

على ذيل الثعبان

باقية

للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: على ذيل الثعبان

تأليف: خالد سعيد

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

التسيق الداخلي: أسماء عطا

رقم الإيداع: ٨٩٢٦

الترقيم: ٩٧٨-٩٧٧-٦٧١٨-٠٦-٧



جميع حقوق محفوظة
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كلياً أو جزئياً، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storage and retrieval systems, without permission in writing from the publisher, except by reviewers, who may quote brief passages in a review

رواية

على ذيل الثعبان

تأليف

خالد سعيد

إهداء

إلى المجانين الذين ظنوا أن للوحل برزخا وأن الأرناب
الببضاء التي تخرج من فبعث الساحر سننشدنا معلف
عمرو بن كلثوم

إلى الطبيبين الذين صدقوا أن ثمة صداف بين الجراح
والمدى وبين البمام ورصاص الصيادين
إلى الأنقباء الذين غادروا مبسمين
إلى ثمانين عشر يوما كانت هي هي

الوجه اللطيف للبحر

كدكتور جيكل ومستر هايد .. هكذا يكون البحر، وكأنه مصاب
بالشيزوفرينيا، فهو الرفيق الودود والحكيم الوقور والحكّاء المدهش إن
جالسته في مساءات الصيف وأنت تستمتع بتناول المثلجات وتصغي إلى هدير
أمواجه كخلفية موسيقية لضحكات المتزهين وتلاؤم أيدي العشاق، وهو
المستبد الظالم والجلاد الباطش إن ركبت متنه ذات تقلب أطوار وتعكر مزاج
.. قادر على أن يسلي ويضحك أو يؤذي ويسحق، وربما قام بالدورين في وقت
معا، فترى بعضه يرسم اللوحة ويكمل اللحن وبعضه يقسو على الثكالى
ويبتلع الراحلين كقبر كبير .. ترى ما الذي يضحكه الآن؟ اللهم اجعله
خيرًا.

من حديث البحر ١

بينما .. أمسك يدها وهو منتشٍ بشعور لم يجربه من قبل، ويسراه .. رفع أمام عينيه ورقة، وبدأ يقرأ منها ما كتبه صديقه عبد الهادي من غزليات عذبة لا يفهم معظمها ويزعم أنها ريبية أشواقه ونتاج قريحته .. ولأنهم أخبروه بأن تلك المرحلة ليس مهما فيها أن تكون صادقا، وإنما المهم أن تكون مقنعا؛ فقد أجهد الفتى نفسه وارتسم صورة الصب المتيم كما رآها في الأفلام المصرية القديمة، وجعل يؤدي كلمات عبد الهادي أداء ناعما مصحوبا بنظرات العاشق وهو لا يدري أن فتيات اليوم ربما يفضلن نظرات المتحرش، وبين الفينة وأختها يرسل تنهيدات متكلفة بل مضحكة إن تأملها المجربون المهرة في الإيقاع بالفتيات، وبالطبع لا أحد يعلم من أين نقل عبد الهادي كلمات كهذه ..

" يا سيدة الضوء .. أيتها المقتدرة على الجمال بالجمال والحاكمة في عوالم الحسن بالحسن .. إن جبينك القمري الذي يشبه بقعة ضوء في لوحة سريالية قائمة قد انتشلني من متاهات الدنيا وأرسل وارده لينقذني من غياهب الوحشة .. حين أراك يا حبيبتي أستاذ بعيني على الأشجار والأسوار واللوحات المضيئة وواجهات المتاجر مخافة السقوط في دوامات فتنة الألوان والروائح الشهية .. " استدارت ذات الرداء الكحلي لتواجهه وهي تطلق زفرة حرى .. نظرت إليه نظرة حانية ارتفع معها سقف توقعاته، ثم قالت :

(حوده .. أنا جعانة .. نفسي ف ساندويتش كبدة)

ضحك بحر الإسكندرية الهادر على تلك الحبيبة الجائعة، ثم تابع دون كبير اهتمام تلك الرواية التي يشهدها بشكل شبه يومي، قد تختلف التفاصيل قليلا، لكن الحكاية واحدة؛ ف(حودة) هو ذلك الفتى الذي ظل طبيعيا إلى أن دخل مرحلة إعادة الشعر إلى الخلف واقتناء نظارة سوداء وسترة جلدية يرتديها دوما حتى في أيام الصيف القاطئ .

وبطريقة ما وجد الفتى الخجول سبيلا ليكون واحدا من زمرة المتنمرين، تلك الطائفة التي تختبئ بنقصها وعجزها وضعفها وراء بعض الوقاحة وبعض الشر؛ فباتت تتمتع ببعض المهابة والكثير من الكراهية والازدراء

سمع كثيرا من رفاقه حكاياتهم الصادقة أو الملفقة عن علاقاتهم وربما شهد ذلك أيضا .. إنه يريد بشدة أن يكون لديه ما يحكيه ويتباهي به وكأن رجولته لن تكتمل دون ذلك .. يهرب من مدرسته الثانوية ويقف في الطريق المؤدية إلى مدرسة التجارة حيث الفتيات أكثر جمالا وأسهل منالا، فيجرب مغازلتهم ضمن مجموعة من الأصدقاء؛ لأنه يفتقر إلى شجاعة أن يفعل ذلك وحده .. كانت عدتهم بالية وأدواتهم قبيحة .. ألقوا عصيهم فإذا هي دعابات مستهجنة وكلمات فجأة وحركات استعراضية حمقاء، فما جنوا إلا صدا ونفورا، استقبلوه ضاحكين؛ إذ وقر في يقينهم أنه مصطنع وتأولوه رغبة تتخفى وراء الحياء الزائف .. عندها يدرك الفتى أن الشكل الجماعي لن يفيد .. يشجع نفسه ويقف منفردا ليجرب النظرات الخجولة التي يرسلها إلى كل

غادية وكل رائحة؛ لعله يجد في عيني إحداهن اهتماما ما، وبعد صبر يجد تلك الرغبة عند صباح التي تتوق إلى الحب أيضا، يتبع النظرة الخائفة بابتسامة مترددة ثم تستمر الحكاية بشكل طبيعي، حتى تمر في إحدى مراحلها حتما بلقاء الحبيين على ذلك الشاطئ.

لما أبدت صباح رغبتها في الطعام سقط في يد المراهق المفلس الذي لم يكن قد علم بعد كم يكون الحب مكلفا .. دارت عيناه الزائغتان في المكان كأنه يبحث عن مخرج لتلك الورطة .. على البعد ملح هرولة وزحاما، فقال لها وهو يشير بيده تجاه ما رأى : (إيه الزحمة اللي هناك دي؟ تعالي نشوف إيه اللي بيحصل) أخذها في يده وانطلقا حيث تجمع الناس؛ ليكونا شاهدين معا على خاتمة هذه الحكاية، لقد كان مشهدا غريبا بحق، ربما أنساها للحظات (ساندويتش الكبدة).

حبيبتى

في الإسكندرية يحلو الصباح كما يحلو المساء، ويحلو الشتاء كما يحلو الصيف ..
لن تستطيع أن تكره هذه المدينة أبدا؛ فلها وجوه من الحسن إن طَلَّت بأحدها
فتنتك .. لا يختلف الأمر إن كنت من زائريها أم كنت من سكانها ففي الحالتين
ستصير عاشقا شئت ذلك أم أبيت ...

أبو قير، سيدي بشر، البياضة، بحري، العمود، زيزينيا، النبي دانيال،
الأنفوشي ... عليك فقط أن تذكر الأسماء، ووحدها ستكتب القصيدة .

من حديث المقهى ١

مر وقت طويل وهو ملتصق بذلك المقعد في انتظار صاحبيه .. ساعات من الانتظار الثقيل استهلكها بالإفطار وطلب المزيد من المشروبات الدافئة ومراقبة المارة .. وجد أخيرا بعض التسلية في متابعة صبي المقهى وهو يعبث برجل عجوز يبدو من موقعه وسحنائه أنه صاحب المقهى .. لقد أتت السنون على سمع العجوز وأتلف كّر العشيات بصره، لكنها لم تنل من صوته الأجش ولسانه السليط الذي لا يكف عن إصدار الأوامر، مصحوبة بالشتائم السوقية الفجة .

ربما لو لم يكن يشعر تجاه صديقيه بشيء من المسؤولية لما تحمل ذلك الانتظار المرهق .. والآن يمتلكه بعض الندم؛ لأنه تركهما بالأمس من أجل تدبر بعض أموره الخاصة وهو يعلم أنها ليسا صحيحي العقل ولا يؤمنان على أنفسهما بشكل كامل .

يبد أن الحق الذي لم يعترف به لنفسه أن المسألة لم تكن مجرد إحساس بالمسؤولية فحسب، إنه يحب مجالستها ويجد لذة في سماع ثرثرتهما المعجونة بالحكمة واللامعقول معا، ويندهش حقا حين تخرج تلك الأفكار اللامعة من عقليْن يفترض أنهما مصابان بشيء من التشوش وعدم الاتزان، ولا ينقضي عجبه مما لديهما من ثقافته رفيعة يعلم جيدا - بحكم وظيفته السابقة - كم هي ثقافة حقيقة وغير زائفة من طول صحبته لأدعياء العلم وطفيليات الإبداع .

صحيح أنه يجهل اسميهما الحقيقيين لكن حسبه أنها رجلان ملئا بطبيعة إنسانية بكر لا يلوثها كذب، وصراحة صادمة لا يغض منها تجمل ... لقد كانا بالنسبة له اكتشافا مهما وليس مجرد عابرين في درب حياته؛ وذلك معناه أنها يستحقان منه ذلك الانتظار وأكثر، خاصة وهو لا ينسى أن وجودهما بجانبه في الفترة الماضية قد يسّر عليه مرارة الليالي الطويلة التي قضاها بعيدا عن ذويه .

انقضت ساعة أخرى في مراقبة كوميديا الصبي والعجوز صاحب المقهى، حتى لاحظ الصبي أن الرجل الأنيق الوقور يراقبه مبتسما؛ فأغراه ذلك بأن يزيد من مشاغبه للعجوز حتى أضحك صاحبنا ملء فمه حين لمح الصبي يضيف فحما غير مشتعل إلى شيشة (المعلم)، والأخير مستمر في سحب الأنفاس بمتعة وهمية تصاحبها أصوات القرقرة .

وفي تلك اللحظة ظهر أحد الصديقين مرتديا ثيابا غريبة، كان يمشي ببطء وقد عقد يديه خلف ظهره وأخذ يلقي نظرات على الجالسين بتعاضم كأنه ملك يتفقد رعاياه ... حين رآه مقبلا على تلك الهيئة تقلصت مساحة البسمة على وجهه وكأنه قد استاء لرؤيته، لكنه قدم الترحيب المألوف :

- أهلا صديقي العزيز .

- أهلا بك .

- اجلس .. ماذا تحب أن تشرب ؟

- أظنني سأطلب طعاما .

يجلس الصديق على الكرسي البلاستيكي ويخرج علبة سجائر كليوباترا شبه فارغة وقداحة بلاستيكية شفافة من النوع الرخيص .. يضعهما على الطاولة أمامه، ثم يمد ساقيه في كسل، ويستأنف قائلاً:

- لن تصدق يا صاحبي أن أكثر ما يعجبني في هذه المدينة هو طعامها، خاصة الفول من ذلك المطعم ذي الواجهة الصفراء .. ورغم أن فول عربية الشارع هو الأشهى في نظري إلا أن مقامي لا يسمح بالوقوف كما يقف هؤلاء البسطاء .. تعلم كم أعتز بنفسي .

- ولماذا الذي هو أدنى، وإن تطلب آتك بما هو خير ؟

- عجباً لك، أنا الماضي .. أنا التاريخ، والفول هو ما اعتدت عليه؛ فأنا كما تعرفني أسير العادة، وقلما أجرب شيئاً جديداً دون أن يساورني التوجس .
نادي صبي المقهى وأعطاه مالا ليحلب ما طلبه صديقه الذي يسمى نفسه (التاريخ)، فقبل الصبي بالمهمة راضياً غير عابئ بترك موقعه بالمقهى تقديراً للصدقة التي نشأت بينهما بعد أن تشاركا في ضحكات العبث بالعجوز .. وقبل ذهاب الصبي يسرع التاريخ بسحب السيجارة الأخيرة وتكوير العلبة الورقية بين أصابعه؛ كي ينه صاحبه إلى ضرورة ابتلاع أخرى، فيفعل ذلك وهو يقول:

- لك ما تشاء أيها (التاريخ)، رغم أن أفعالك - بصرache - تثير الريبة .

- وماذا يريبك من أفعالي ؟

- ألم تنتبه لثيابك ؟ إنك تسبب لي إحراجاً شديداً بملابسك العجيبة تلك .

- لماذا؟ ألم يكن من الضروري أن نبدل ملابسنا القديمة التي هربنا بها، إن تلك الثياب كانت أفضل شيء وجدته أمس حين أخذتنا لنقضي الليلة في مسرح سيد درويش .. وقد سمح لي صديقك بأن أختار ما يعجبني من ملابس الممثلين، فلم التذمر الآن؟

- ولم يعجبك إلا تلك الأسماك العتيقة التي تبدو بها ككومبارس فاشل في مسلسل تاريخي رديء؟

- أية أسماك؟ إنها ملابس أمراء العباسيين أيها الجاهل، .. عمامة سوداء وقميص من الخز المصري وحلة من الديباج الخسرواني وخف مزركش وزنار عريض .

- أرايت؟ هذا هو ما أتحدث عنه، إن الكلمات نفسها غريبة، فكيف بالملابس؟

تغير وجه التاريخ وتملكته كآبة ظاهرة، ثم قال :

- وكيف ألبس في رأيك؟

- انظر إلى ملابس الناس وكن مثلهم .

خفض التاريخ بصره، وتابع نفث شعيرات من شاربه في حركة عصبية .. ثم قال في حزن مكتوم :

- سأفعل يا رجل كي لا أخرجك .

انتبه صاحبه إلى رنة الحزن في كلامه فقال متلطفا وهو يخفض صوته كي لا يسمعه أحد :

- صدقني إن الإحراج أمر هين بجانب احتمال أن يفتضح أمرنا ونعود إلى المستشفى بسببك، وقد هربنا من هذا المستشفى اللعين بشق الأنفس، فأرجوك إننا لا نريد أن نلفت النظر .. ويكفيك من الغرابة ذلك الاسم الذي اتخذته لنفسك .

- تنتقد الاسم وما أنت منه ببعيد .. أنسيت أن اسمك (الآن) ؟

- أنت أطلقت علي ذلك الاسم .

- وأنت رضيت .

- أردت أن أبدو مجنوناً مثلكم، فإذا كان رفيقاي في الغرفة اسمهما (التاريخ) و(الغد)، فما عسى يكون اسمي ؟ لقد كان جنوني تمثيلاً أردت أن أثقنه، وقد فعلت .

- وأي عاقل سليم النفس يرمي نفسه بالجنون إن لم يكن به بعض ما ادعاه ؟

- ليس بي شيء .. إنها هي حيلة قانونية رسمها لي المحامون الذين وكلوا

بقضيتي .. كان مستشفى الرعاية النفسية أهون عندي من السجن ...

سكت الرجل قليلاً ثم استأنف :

- وها أنا قد أفصحت عن سري الكبير وكشفت لك عن خبيثتي، فإن

كانت هذه لحظة مكاشفة أيها الرفيق - وإني لأرجو أن تكون - فاعلم أنني لا

أحب أن تخفيا عني شيئاً بعد أن جمعنا أيام حزن ولحظات فرح ووقائع خطر

ومستقبل لن يتشكل لأحدنا بمعزل عن الآخر .

- وماذا تحب أن تعرف ؟

- إنني ما زلت حائرا بشأنكما؛ إذ أراكما في منتهى العقل أحيانا وأسمع منكما حديثا عجبا، وأراكما في غاية الجنون أحيانا وأشهد منكما أفعالا منكرا، فهلا أخبرتني بما جرى لكما .

- لن أحكي لك عني شيئا، ولكن اعلم أن المرء لا يولد مجنونا ولكنه فقط يلتقى بحسنا ما .

- ثم ماذا ؟

ضحك ضحكة غريبة تحمل كل الألم في داخله .. ثم قال في هزل :

- ثم يحين إن لم يتزوجها، أو يحين إن تزوجها، فالنتيجة واحدة، أليس كذلك ؟

- هههههههههه، صدقت .. فماذا عن رفيقنا الثالث ؟ .. أعني كيف صار إلى ما صار إليه ؟

- إنه يستحق ما جرى له .. أتدري أنه عالم وحاصل على الدكتوراه في الكيمياء ؟

- ماذا ؟ أيكون قد ادعى الجنون مثلي ؟

- كلا إنه مخبول متوهم .

- كيف ؟ .. أخبرني .

- لقد اخترع ذلك المسكين تركيبة كيميائية تنتج معدنا أصلب من الحديد وأرخص ثمننا .

- وما الضير في ذلك ؟

- رفض أن يبيع سر تلك التركيبة لإحدى شركات الحديد والصلب التي يهددها مباشرة ذلك الاكتشاف المذهل .

- لم أفهم بعد، كيف يكون ذلك سببا في جنونه ؟

- أيها الأحق، لقد رموه بذلك كي يتخلصوا منه ومن فكرته .

- هو عاقل مثلي إذن ولكنه ظلم .

- كلا إنه برأيي مجنون حقيقي .

- لماذا ؟

أخذ التاريخ نفسا من السيجارة ونفثه في الهواء ببطء كأنه يعتمد أن ينتظر صديقه الإجابة، ثم قال :

- لأنه رفض أن يبيع .

وصلت العبارة بما تحمله من تأثير إلى الأستاذ أمين الماحي المدير السابق لهيئة قصور الثقافة الذي كاد ينسي اسمه من كثرة ما نودي باسمه الجديد (الآن) .

كان قد اتهم قبل شهر باختلاس ما يقرب من مليوني جنيه من خزينة الهيئة ..

لقد أوقع به حيتان الوزارة المنهوبة ثم ساموه اتفاقا يأخذ بمقتضاه نصف ذلك

المبلغ مقابل ألا يأتي على ذكر أسمائهم في التحقيقات أو يكشف المستندات

التي تثبت تورطهم .. وبعد تفكير وافق الرجل الشريف الذي قضى عمره

يعمل بنزاهة وأمانة، فليس أمامه إلا السجن مع المال أو السجن دون مال،

فكان بدهيا أن يقبل بالخيار الأول دون تردد كبير ؛ إنها فرصة ما كان ليجد

مثلا أبدا لو استمر في تقاضي راتبه الشريف المضحك .. ولما وافق على

طلبتهم سخر له اللصوص الكبار أفضل المحامين في المدينة حتى أدخلوه
المصححة وظنوا أن المسألة ماتت إلى الأبد .. لكنه الآن يهددهم من جديد بعد
هروبه من المستشفى ليذبوا له طريقة آمنة للسفر خارج البلاد وإلا ..

أطرق الرجل قليلا ليتأمل مغزى العبارة ويسأل نفسه للمرة الألف : هل كان
مصيبا في قبول ذلك الاتفاق؟ أم كان الخير له أن يكون مثل صاحبه الذي
رفض أن يبيع ؟ .. لم يجلد ذاته لأنه رمى بمبادئه الشريفة خلف ظهره؛ فقد
توقف عن ذلك منذ زمن ليس بالقصير، لكنه شعر بشيء من الإكبار الممتزج
بالأسى لصديقيهما الآخر الذي أتلف حياته في سبيل مبادئه، ورفض أن يبيع ..
وبعد مدة رفع رأسه ليوأجه التاريخ ثم سأل :
- و ما السر وراء خلافاتكما المستمرة؟ .. لقد مكثت معكما قليلا فوجدتكما

كالعدوين .

كان التاريخ قد أطفأ سيجارته حين أقبل الصبي بطعامه وشرع في فتح الكيس
البلاستيكي الذي يحوي الطعام .. ثم أجاب بلا اهتمام وهو يقضم شطيرة
الفول فيخرج صوته غريبا لامتلاء فمه بالطعام .

- هو اختلاف في فلسفة الحياة، وكما تعرف فإن اختلاف الرأي يفسد للود
كل القضايا .

- هههههه، صدقت أيها المجنون الحكيم، ولكن، أخبرني فيم اختلفتما؟

- دعوته إلى اليأس المريح ودعائي إلى الأمل المزعج، حدثته عن عبر التاريخ
وهزائم المستضعفين وعذابات البؤساء وحدثني عن فرص المستقبل

وإشراقات الغد وآمال الطامحين، ومن هنا صرنا مختلفين في كل شيء .. نَعْتَنِي
بالتاريخ المزيف وظل يرددها حتى تبعه آخرون، ونعته بالغد المشؤم وظللت
أكررها حتى التصق به الاسم .. وصار لا يقبل مني كلاما وأنا كذلك ..
أتصدق يا رفيقي أنه رغم ما حدث له مازال يؤمن بأنه سيفوز في النهاية وأن
ميزان العدل سيستقيم؟

خفض الآن صوته وهو يقول :

- كفاك حديثا ... إنه قادم نحونا .

- من؟

- رفيقنا .. المخبول الآخر (الغد).

- ذلك الرقيق المتذاكي ؟ تعلم أننا لا نتفق .

- هون عليك وتحمل سخافاتاه فهو لن يطيل البقاء .

يدخل (الغد) بلحيته الكثيفة ونظاراته السمكية وشعره الأسود الطويل الذي
تتخلله بعض الشعيرات البيضاء .. يرتدي كنزة صوفية وسروالا من الجينز،
وقد لف رقبته بشال فلسطيني مرقط، من ذلك النوع الذي أضحى علما على
الثورة والثائرين، وهو يقفز في سعادة ويتغنى على نعمات موقعة : عيش.
حرية. عدالة اجتماعية. الشعب... يريد ...

- (التاريخ) باستغراب : ماذا تقول يا رجل ؟ ارتسمت على وجه (الغد)
ابتسامة متفائلة، ورد بثقة وحماس : ألم تسمع يا رجل ؟ إنه الهمتاف الهادر في

كل ميادين مصر منذ أيام، لقد خرج الشعب، ولا رادّ لشعب غاضب، إنها
الحن الثورة، وابتهاالات وطن يستأذن السماء كي يعود إلى أبنائه .

الآن: أنظن أنه ..؟

الغد : طبعا إنه ..

التاريخ : ساذجان أنتم كذلك الشعب الطيب .

الغد : ماذا تعني ؟

التاريخ : أعني أنه لا داعي لتلك الفرحة العارمة، وإن كنتم تتمتعان بروح
الدعابة حقا فسنضحك كثيرا على هذا الشعب .

الغد : ولكن .. يبدو لي أنهم بدءوا المباراة جيدا .. وأظنهم سيحرزون أهدافا .

التاريخ : حتى إن فعلوا فسيتدخل الحكم، ويلغي أي هدف يحرزونه .

الآن : ولم العجلة في الحكم يا صديقي، يقال دائما إن الغد يحمل مفاجآت
..فلنتنظر .

التاريخ : أنا سيد الانتظار .. ولا مشكلة عندي في ذلك، ولكن بالنسبة لي لم
يفاجئني الغد ولو مرة واحدة ولن يحدث ذلك أبدا، فالاستغراق في قراءة
التاريخ يطلعك على الغد بأدق تفاصيله، وإني على ثقة من أن كل ما سيحدث
قد حدث من قبل .

في خفة وسرعة وبحركة صبيانية يرمي الغد تحت مقعد التاريخ صاروخا
صغيرا مشتعلا من الصواريخ التي يلهو به الأطفال في الأعياد دون أن ينتبه
التاريخ ..وفجأة يدوي الانفجار الصغير .. يتفرض التاريخ من مكانه

ويهرول باتجاه باب المقهى .. ثم يستدير بعد خطوات ليرى صاحبيه غارقين في الضحك، ويشاهد رواد المقهى وقد ضج المكان بضحكاتهم وانحنوا ممسكين ببطونهم بسبب إغرابهم بالقهقهة خاصة حين لفت انتباههم ملبسه الغريبة .. ينظر إليهما نظرة غضب ثم يقول للآن: قلت لك إن ذلك الصغير لا يحسن مجالسة الكبار .. لقد أهنت نفسي حقاً حين قبلت أن أجلس معه .. ولن أكمل حديثي معكما.

كفكف الآن ضحكاته وتكلف الجد وقال : نعتذر لك أيها الصديق، ولكن لعل الغد أراد بدعابته أن يثبت لك شيئاً .

التاريخ : دعابة سخيفة، وهي لا تثبت أي شيء .

الغد ضاحكا : بل تثبت أنك تفاجأ أحيانا، وأنه من الممكن أن يحدث ما لم يحدث من قبل، وها أنت تريد المضي هاربا؛ خوفا من الاعتراف بأنك مخطئ.

يعود التاريخ إلى حيث يتخذ مجلسه كما كان بعد أن استفزته العبارة، ثم يقول في تحد: أقصى ما يمكنك مفاجأتي به هو مدى التطابق بين القصص المعادة ..

إنني سأندشش حقا من الإعادة دون أي إبداع .. ونحن بالمصادفة في بلد التكرار الممل، فالمصريون يا سادة هم سارقو الروايات والأفلام الأجنبية وهم مقلدو المدارس الأدبية والفنية في أوروبا، وإن نجح الفيلم صنعوا منه مسرحية ثم مسلسلا ثم قناة تليفزيونية .. ثم مطعما وقارورة زيت .

الغد :ظلمت القوم يا رجل، وكأنك تريد القول إنهم بعيدون عن أي إبداع ..
وكنت أولى الناس بقول خلاف ذلك، إن تذكرت - فقط - أن اسمك هو
(التاريخ).

التاريخ : أما الإبداع فلا أمة في الدنيا بعيدة عنه، لكنني أتحدث عما انتهوا إليه،
لا ما كانوا فيه أيام أجدادهم .

الغد : أتعلم لقد سئمت من تنظيراتك المملة، ومللت من تلبسك بحالة
الفيلسوف البصير الذي لا يخطئ.

التاريخ : أنا - وبكل تواضع - كما وصفت تماما .

الغد : أتقبل إذن أن تشارطني؟

التاريخ : علام أشارتك ؟

نظر الغد إلى أعلى باتجاه مدخل المقهى المطل على البحر في منطقة الأزارطة
وكأنه يتأمل شيئاً ما في الأفق البعيد، ثم قال بثقة :على أن الثورة ستنتصر وأن
ذلك الشعب سيفاجئنا جميعاً، وستنزل عليه آيات الإبداع وسرى منه فرادة
الابتكار، وسينتصر المعذبون والمهمشون وتستقيم الحياة .

التاريخ : وإن فشلوا في ذلك ؟

الغد : سأقبل بحكمك .

يحك التاريخ رأسه من فوق عمامته الغربية ثم يقول بابتسامة واسعة : تلبس
ملابس العباسيين تلك وترقص بها في ميدان عام .

الغد : ماذا ؟ لا ..

التاريخ : لم ؟ أأست واثقا بالقوم ؟

الغد : بلى، ولكن حكمك قاس .

التاريخ : هذا هو ما نتشارط عليه، وأنا لا أطلب الكثير، ويمكنك بالطبع أن ترفض وتقرر بهزيمتك.

يضحك الآن وقد بدت له الفكرة مسلية ثم يقول : إنه يقبل يقبل، فاختر ميدانا .

التاريخ : أختار ميدان سعد زغلول، لعله يكون مناسباً لإثبات وجهة نظري .

الآن : ولماذا ؟

التاريخ : بحسب الأسطورة فإن سعد زغلول هو صاحب العبارة الخالدة : " مفيش فابدة " .

الآن : ههههههه، اتفقنا، ولكن كيف سنقيس الأمر ؟

الغد : هناك قصة صغيرة بدأت منذ أيام .. فلنراقبها ونرى .
الآن : أية قصة ؟

الغد : قصة مؤنس ووعد ؟

الآن : وما علاقتها بالرهان ؟

الغد : إن صدق ظني فإن أحداثها ستثبت ما ذهبت إليه، وسأحكي لكم تفاصيلها أولاً بأول .

التاريخ : ومن أين ستأتي بتفاصيلها ؟

الغد : لا تشغل بالك، عليك فقط أن تستمتع بالحكي، وإن كانت مسألة المصدر تؤرقك فسنعتمد أسلوب الصحافة .. وعلمنا من مصدر قريب .. ومصادر تؤكد ..

التاريخ : وماذا عن القصة الكبرى .. قصة الشعب وثورته ؟ فهي مناط الرهان .

الغد : يا حكيم، كيف لم تفهم أن كل قصة صغرى جزء لا ينفصل من القصة الكبرى؟

التاريخ : صحيح، أصبت في هذا، ولكن عندما يحين دوري سأقص عليكم ما خبرت من أوراق الأزمان الغابرة، لأثبت أن أية قصة تروى إنما هي إعادة لقصة سابقة .. وربما تكون الإعادة بالأسماء .

الآن : وما دمنا مضطرين للانتظار ريثما أدبر أمور السفر إلى خارج البلاد فأنا لا مانع عندي من سماع ما تثرثران به، وسأكون حكما بينكما، أترضيان؟
قالا بصوت واحد : بالطبع نرضى .

فقال الآن : هيا إذن أيها الغد قص علينا قصتك ..

الثلاثاء ٢٥ يناير ٢٠١١

تنادوا عبر فيسبوك وتويتر .. نادوا بالعيش والحرية .. مظاهرات في القاهرة والإسكندرية والمحلة والسويس .. آلاف الغاضبين وبعض المتفجرين ..
والحصيلة في اليوم الأول ثلاثة قتلى من مدينة السويس وجندي من الشرطة
وعشرات المصابين .. وفي اليوم الثاني سبعة قتلى .. وفي اليوم الثالث قطع
الإنترنت ثم جاءت جمعة الغضب .. نادى مناد في الظلمات والغياب : مدد يا
خضرا .

أيتها الحياة الكريمة .. أيها الزمن القبيح، لقد سئمتك وكرهت ذاتي .. في حياة أخرى .. في عوالم مقبلة أمنيته أن أكون فاحش الثراء، أريد أن أجرب النوادي .. الفنادق .. السيارات الفارهة .. القصور الشاهقة، أريد أن أجرب نساء تلك الطبقة .

تتابعت تلك الخواطر على ذهنه وهو ينظر من نافذة مكتبه الصغير في الدور الرابع لمبنى كلية العلوم الإنسانية، حين توقفت قريبا من مدخل الكلية سيارة من طراز فخم لا يعرفه، ومنها نزلت فتاة لها قوام بديع، عليها مخايل النعمة وآيات اليسار .. قطرات متتابعة من مطر يناير دفعتها للهرولة باتجاه مدخل المبنى فاهتز أمام ناظره غصن رطيب يحمل من طيبات الفاكهة ما يحمل .. هناك ما جعله يشعر بأنها ذات جمال، وطالما صدّق حدسه في الإحساس بالجمال عن بُعد، وود لو يتأكد له ذلك عن قرب .

غابت الفتاة حين دلفت من الباب، بينما أخذته قليلا أحلام الشراء التي تعبت بخواتمه كثيرا في الفترة الأخيرة .. ظل ينظر في شرود إلى قطرات المطر التي زاد انهماؤها وأخذت تسيل على زجاج نافذته، ومن ورائها تلك التخللات السامقة التي تضربها الريح بعنف فتميل بجذعها قليلا ويضطرب سعفها في غير نظام .. وبعد دقائق من الشرود نظر في ساعته ثم ارتدى معطفه الأسود

وانطلق إلى القاعة الكبيرة؛ ليلقي محاضرة في التنمية البشرية، وهناك مضى فيها يجيده من أخذ الأسع والألباب .

كانت الكلية في ذلك الثلاثاء قد خلت من طلابها بسبب إجازة منتصف العام والطقس الشتوي المتقلب، ولكنها كانت تغص بطائفة أخرى من المحبين للتنمية البشرية أو قل لمدرّب التنمية البشرية، جمهور مختلف الأطياف ومتنوع المشارب بعضهم يبحث عن شهادة، وبعضهم أراد العلم والتدرب، وبعضهن لفراغ يقتلهن أو لمآرب أخرى .

مرت ساعة أو أقل، كان فيها يصول ويجول على تلك المنصة المرتفعة .. لقد كان ذا موهبة فريدة في استثارة عواطف الناس وحماسهم وبكائهم وضحكاتهم .. إنه يعرف متى يلقي النكتة ومتى يستخرج العبرة ومتى يتجهّم ومتى يتسم وكيف ينظر إلى جمهوره وكيف يحدثهم .. تسعفه على الدوام ثقافة واسعة ولا تحذله أبداً فصاحته وانطلاق لسانه، لقد اكتشف موهبته منذ سنوات قلائل واستطاع أن يصقلها ويطورها حتى بات من ألمع نجوم التنمية البشرية في الإسكندرية .

استمر الشاب في استشارتهم وبلوغ أعماقهم بذكر الثورة والحديث عن فردوس الشعب المفقود، وفجأة أمسك عن الكلام حين رأى الأعين شاردة باتجاه آخر .. فتوجه ببصره تلقائياً إلى ما ينظرون إليه ..

وعندها ... رآها ثانية .. إنها هي، ذات القوام الذي اهتز لقطرات المطر ..
وها هي تدخل قاعته دخولا سينمائيا لا ينقصه إلا أن يصحبه دقات الطبول،

متوشحة بابتسامة طاغية الإغراء .. تسير في موكب أسطوري، يتقدمه عطر جريء، وتتراقص به في عنف ونعومة خصلات شعر تياهة، تمشي بقوامها المشوق بتؤدة قاسية سير من يعلم أن العيون به معلقة .

كانت الفتاة في عقدها الثالث تامة الأنوثة فارهة الحسن تتهاذى كعارضة أزياء محترفة بين صفين من مقاعد الحاضرين في ثقة وخيلاء، خيل إليه ساعتها أنها خلفت ارتعاده على ذلك الرخام الإسباني الأسود الذي مرت فوقه، ولم يدر لماذا قفزت إلى رأسه ساعتئذ عبارة (ظالم الحسن) التي شدت بها أم كلثوم..

وعندها أخذته لفتة إلى الملاء، فإذا الرجال قد ارتسمت على وجوههم ابتسامة بلهاء لا يعرفون لها سببا، وإذا النساء يتملكهن وجوم يحاولن إخفاءه بمشقة وتكلف، ولاحظ أن القاعة قد أظلمت لم يعهده منذ بدء المحاضرات، فحُق له أن يعجب لأمرهم ويبتسم ..

ولما صارت أكثر قربا من موضعه التقت عيناها للحظة يسيرة؛ فوقع ما لم يضعه في حسبانها، لقد أبصر عيني زرقاوين ساحرتين تحرسهما أهداب كالرمح المشرعة ما رأى شيئا في جمالهما قط .. كانت نظرة رقيقة قاسية زلزلته وأصابته بدوار غريب لا يجد له تفسيراً ..، حاول أن يقلب بصره في القاعة ليرى شيئا آخر يزيل آثار نظرتها ويعيد إليه رشده إلا أن العقل أبى بصرامة أن يستقبل أية صور أخرى، بات قلبه يدق بوتيرة متسارعة عنيفة؛ حتى ليكاد

من يقترب منه أن يسمع تلك الدقات، وتملكه ارتباك مزعج زاد منه أنه يعلم أن كل الأعين الآن مصوبة إليه .

ثم زاد الأمر سوءا حين أراد أن يستأنف حديثا لا يذكره، فارتج عليه القول وطاشت منه رصاصات فصاحته، وأحس بسخونة العرق الذي تصبب رغم أجواء يناير الباردة، حتى إنه التمس ساعتها تلك الهمسات البغيضة والتعليقات الساذجة التي كان قد تعود كارها على سماعها من بعض المستمعين إليه .. فالآن حُق لجلسائه أن يعجبوا لأمره ويضحكوا .

لجأ حينها إلى استراتيجية دفاعية مكشوفة لإخفاء ارتبাকে، إذ استدعى عم رفاعي، وبصوت خفيض - مستعينا بإشارة من يده؛ لعلها تخفي تلعثمه - طلب أن يأتي له بكوب ماء، ريثما يعيد ترميم اتزانهِ ويللم شتات نفسه، ثواني مرت بطيئة ثقيلة كأنها ليل النابغة وامرئ القيس معا، تعتمد خلالها النظر إلى السقف والنوافذ والمقاعد الفارغة ..

في تلك اللحظة كان طبيعيا أن يتدخل عقله ليمنع انهياره الوشيك .. ما بك يا رجل ؟ ليست إلا امرأة جميلة وقد مربك مئات الجميلات فائتد .

استجاب لزجر العقل فسكن بعض خفقان قلبه، وما أن أخذ يستعد لمواصلة الحديث حتى عاوده هجوم لم يكن قد تمهأ له وإن قدر أنه قد يقع، كان ذلك المهجوم قادما من حيث جلست، إنه صوتها، صوت حريري يمر بالقلب قبل الأذن أكمل لوحة الفتنة وتوج سيمفونية الكمال وحطم ما بقي لديه من تحصينات الثقة وأبراج الوقار .

وحار في أمره، ماذا يفعل؟؟، وقد طرحت الفاتنة سؤالاً، أو طلبت شيئاً،
وها هي تنتظر منه الإجابة التائهة .

لم يتعرض طوال حياته إلى موقف كان فيه بهذا الضعف والارتباك .. إنه لا
يجد الكلمات، يملك زحمة من المشاعر المضطربة ولكنه لا يملك لغة .. يا الله
...أكل هذا من نظرة واحدة وجملته واحدة ؟ .. علم أنه إن تحدث في تلك
اللحظة فسيزيد الطين بلة .. فأخذ رشفة من الماء وتبعها بأخرى ثم نظر في
ساعته، ثم تعلل بأن الوقت قد نفذ وبأنه يريد إنهاء المحاضرة الآن، على أن
يجيبها في وقت لاحق، رغم أنه لم يكن يدري ساعتهما ماذا طلبت، أو عم
سألت، أو ما موضوع المحاضرة .

ورغم إحساسه في تلك اللحظة بأنه قد أفلت وحمى بعض بعضه، إلا أن ما
حدث له لم يكن ليخفى على بعض العيون الماكرة في القاعة، خاصة تلك
العيون التي ترمقه من البداية بإعجاب أو أكثر من إعجاب .

والحق أنه كان بذلك الإعجاب خليقاً؛ فخلف ذلك الوجه الجاد والطلّة
المهيبة والصوت ذي النبرات الواثقة تقبع شخصية جذابة، ذات حضور طاغ
وكاريزما أسرة، فإن تحدث لا تحب له أن ينتهي، وإن اتخذ رأياً فإن الألسنة
تسارع إلى تأييده وموافقته وكأنه يملك الحقيقة المطلقة، وإن كان بيان لسانه
ووضوح حجته ماضييين فإن عينيّه وحديثهما الأخاذ كانا أكثر مضاء وأعمق
أثراً، كان ثلاثينياً صفيف الشعر فاحمه يرتدي ملابس أنيقة تتخفي وراءها

حاله مادية متوسطة، شاب التقت عنده أسباب الوسامة ومظان الرجولة وقلبا يلتقيان .

ولحسن حظه كانت تلك هي الإجابة النموذجية، إذ أنقذته وحفظت بعض ماء وجهه، وأكثر من هذا أنها سمحت له بأن يعد نفسه للقاء آخر .. لقاء أراد به شدة ليعوض فيه عن تقزم حضوره وانزواء بديته في ذلك اليوم .

أما هي فالغريب أنها ما كانت يوما مهتمة بالتنمية البشرية بل إنها كانت تعتقد أن ذلك محض هراء، فلا تبتعد في ظنها عن تلك المنتجات الصفراء التي تباع على الأرصفة وأمام المساجد وتعالج كل الأمراض، إنها أسلوب جديد للنصب تحت دعوى بث الأمل وشحن الناس بطاقة إيجابية .. بضاعة يروجها رجال أغلب الظن أنهم لا يمارسونها على مستوى التطبيق .. فلماذا دخلت ؟

لقد دخلت تلك القاعة فقط لكي تراه؛ إذ استفاضة لديها أخبار رجل تتحدث عنه صواحبه بشغف، رجل شغل جمهوره من النسوة اللاتي قطعن أيديهن أنبهارا به، حركها الفضول فقررت أن تجرب مشاهدة عروضه التي شاع الحديث عنها، وزعمت لنفسها أنها تريد أن تتعلم منه بعض أساليب العرض الجذاب وتكنيكات مواجهة الجمهور، لتكون جاهزة للتدريس في الجامعة بعد حصولها على الدكتوراه .

ولما تواجها فعلت نظرت ما فعلت .. رسائل كثيرة حملتها نظرة قصيرة .. وعجيب حقا أمر الأعين وقدرتها على نقل المشاعر وإخفائها في آن واحد، وكأنه قال لها أنت رائعة الجمال، بل أنت جميلة فقط، أنا مأخوذ بك، بل مهتم

فقط .. لم تنل النظرة منها من جهة الحب والهيام ولكن من جهة التطلع والفضول .. المهم أنها أخذت تستعد هي أيضا للقاء تشعر بأن وراءه ما وراءه.

هدأ كلاهما في الظاهر وسكن قلقهما شيئا إلا أنه كان بكليهما عجلة للقاء واستبطاء للموعد الذي سيحل بعد أيام قريبة ويريانها بعيدة ..

لم يفهما على التحقيق حقيقة مشاعرهما بعد تلك النظرة .. ربما كان فيروس الحب لديهما الآن في فترة الحضانة وطور التشكيل، لم يشعرأ بعد بالإصابة به، لأن الحب - كما يقول العارفون - لا تدق له الطبول أو تنفخ الأبواق حين يأتي، بل يتسلل في خفاء حتى يتمكن من الأفتدة ثم تبدأ الأعراض، حيث لا ينفع علاج ولا يصلح التدخل الجراحي .

وكان اللقاء أسرع مما خططا، ففي اليوم التالي (الأربعاء ٢٦ يناير ٢٠١١) استدعي إلى مكتب الدكتور عصام عميد الكلية .

كانت المفاجأة حين دخل مكتبه أنه وجدها جالسة بأريحية صاحب المكان، فعراه ساعتها ارتباك مفرح، لم يمنعه من إلقاء السلام وتلقي الرد مع إشارة بالجلوس .. قبالتها .

وبعد نظرة خاطفة تبادلاها وخفق لها قلبه .. نظر إلى الرجل الأشيب الذي تجاوز الخمسين ولكنه مازال متين البنية لم يظهر عليه أثر السنين سوى من ضعف البصر الذي اضطره لارتداء نظارة غليظة نالت من بقايا وسامته ..

كان رجلا عصبي المزاج لكنه يحمل قلبا طيبا .. قال له مؤنس متوددا وقد عزم على اغتنام الفرصة لتصحيح صورته عندها :

كيف أنت يا أستاذنا ؟ بي شوق والله لمحدثك .

بدا العميد متجهما وكأنه لم يسمع عبارة المجاملة .. فارتبك مؤنس وأصابه بعض القلق من تجهم العميد على غير عادته، فهرب ببصره إلى البراويز وشهادات الفخر الأكاديمي المعلقة على الحائط خلف مكتبه واستأنف قائلا في جد بعد أن أزال ابتسامته : أوامرك يا دكتور ؟

فقال العميد وهو يوجه إليه نظرة لائمة : أمرتك من قبل .. فماذا فعلت؟ فطن مؤنس إلى غاية أستاذه، وتملكه العجب من سرعة إيلاغ العميد بحديثه السياسي في محاضرة الأمس فقال:

- آه .. فهمت، لقد استجدت أمور .. فما استطعت كتمان رأيي .

العميد : وما تلك الأمور ؟

أرسل جهتها نظرة تساؤل كأنه يستوضح بها من هي ؟

فأشار العميد إليها بيده قائلا :

- وعد ابنة أختي، ماجستير في تاريخ الفنون وحاليا في برنامج الدكتوراه

ثم أشار إليه قائلا :

- الدكتور مؤنس واحد من أولادي، متخصص في علم النفس، ونجم واعد

في عالم مدربي التنمية البشرية .

مؤنس : فرصة سعيدة ..

وعد مع إيماءة ترحيب :

-أشكرك ..

مؤنس : لقد رأيتك في إحدى محاضراتي لكنني لم أشاهدك في الجامعة من قبل .

وعد : لقد عدت حديثا من أوروبا بعد حصولي على الماجستير .

فقال العميد مقاطعا حديثهما بعصبية خفية : ها .. ما مستجداتك ؟

مؤنس : اتضح لي أنها ليست مجرد احتجاجات إنها بداية حراك حقيقي،

ودورنا كمثقفين أن ...

العميد مقاطعا: خسارة، كنت أحسبك أكثر ذكاء ..وعموما مهما كان رأيك

فيما يحدث فما كان ينبغي لك أن تعلنه .. إنها تعليقات من أعلى، وليس لنا إلا

الإذعان ..هذا هو الواقع .

كؤنس : واقع مؤلم، واليوم تواتينا رياح تغييره .

أشاح العميد بيده قائلا : أية رياح ؟

أجاب مؤنس بلا تردد: لدينا اليوم فرصة لهزيمة الخوف وقهر ما ظنناه

مستحيلا .. أرى بلادي تصحو من سكر وتنتبه من غفلة، وأرى زهورا بريئة

تواجه وحدها وهي تحمل الأكفان بطش مجرمين خائفين، ولا أخطر من

المجرم حين يكون مذعورا، شباب وشابات يواجهون سرطان الفساد وقبح

التزوير وأمراض الدولة المهترئة، يواجهون بلادا اعتادت أن تأمر لينهضوا

ببلد أدمنت أن ترقع ..اليوم ليس يوم عجز وخوف، اليوم يا سيدي هو يوم

الخلاص ..

ألقي الشاب خطبته القصيرة المنمقة، ليعوض عن إخفاقه السابق كان هدفه الأول استعراض فصاحة موجودة وشجاعة مزعومة ليثير إعجاب الجميلة .. وقد فعل؛ فقد كانت الفتاة تنظر خلالها إليه باهتمام شديد مأخوذة بحماسة ونظم حديثه، والأهم أن هذا الحوار السريع كشف لها عن شجاعة افتقدتها في كل من تعرفهم وخاصة أباه الذي رحل منذ سنوات قصار، حتى صارت مقتنعة بأنها اختفت من الحياة، وها هي ترى رجلا لا يتردد أو يتلعثم أمام رئيسه الغاضب بل إنه يجبهه بقول لا يحمده له .. لقد بدأت نظرتها له تتبدل، وصرح الآن المتحدث الرسمي باسمها بأن الاهتمام قد استحال إعجابا .

قال العميد مستنكرا :

- ونسيت أنك من شباب الحزب ؟
- إن أردت الصدق، فأنا اليوم من شباب البلد .
- تعلم أن الصدق والسياسة ليسا صديقين .. فاختر لنفسك .
- أختار الصدق ولا أغلق باب السياسة .. فربما تتطهر البلاد ويغدو الصادقون قادرين على طريقه .
- عما قليل ستخبو جذوة الغضب في صدور المحتجين وربما يهزمهم الخوف أو اليأس وساعتئذ لن ينفع الصادقين صدقهم ولن تجد بابا تطرقه ؟
- أعلم أن الطريق بلا رجعة .. وسأتحمل التبعات .
- حصانك خاسر، وهؤلاء الشباب مصيرهم الضياع .

- لو تخلينا عنهم فالضياح ليس مصيرهم وحدهم، إنما سيكون مصير جميع من خذلوهم .

- عموماً، أنت لست صغيراً، لكني أحب لك أن ترى الصورة كاملة .

قال مؤنس في توتر، وكأنه أحس بما سيقوله الدكتور عصام :

- وما الصورة الكاملة ؟

- برغم أهميتك لنا يا دكتور، لكن يحسن بك ألا تنسى أنك تعمل في جامعة خاصة، بتعاقد قد يلغى؛ لأن المالك رجل الحكومة الأول في الإسكندرية، وإما أن تعمل ضده أو تعمل عنده .. رجائي يا دكتور أن تفهم نصيحتي .
- أشكرك يا دكتور على النصيحة .. بعد إذنكم .

انطلق خارجاً يلعن ذلك التهديد الذي يرتدي رداء النصيح، ويلعن تلك الحاجة التي تجبره دوماً على التخلي عن مبادئه، فهكذا انضم إلى حزب يكرهه وهكذا سيضطر إلى صمت يؤله، ويلعن في ذات الوقت غباءه الذي ورطه في الإفصاح عن خبيثته، أين حصافته ؟ لقد كان دوماً قادراً على مسيطرة الموجة وركوب التيار، شعر أنه تورط في هذا الموقف بسببها وجودها .

ماذا حدث له ؟ .. ربما لو لم تكن موجودة لأجاب الإجابة الآمنة، التي اعتاد عليها طوال عمره بحكم انتمائه إلى عائلة عريقة في الوطنية، والوطنية عند هذه العائلة هي نسب شريف يصلها بالحزب الوطني لا بالوطن، إنه نسب دفع مؤنسا للحزب دون اقتناع حتى أنجبت له وطنيته عملاً مرموقاً في جامعة

خاصة يملكها رجل أعمال سكندري يعد كبير الوطنيين الحكوميين في تلك المدينة ..

وبرغم وطنية مؤنس تلك إلا أنه كان وطنيا أيضا من الجهة الصحيحة؛ إذ كان يستاء كثيرا لما يجده من خيبات الوطن ويألم كثيرا لما يراه من قبحه ومعايبه، لكن وطنيته لم تتجاوز عتبة الإنكار القلبي وربما بعض السخرية والألم تبدو في بعض فلتات اللسان .

ومنذ بدأت الاحتجاجات وهو في حيرة باهظة لا يعلم أي وطنية يتبع .. لقد اختار الآن وجهته وتورط في أن يكون (ثورجيا) بسبب سعيه وراء فتاة لا يعلم هل يرضيها ذلك أم يغضبها ؟ أم أنه هو واختياراته ليسا في حسابها أصلا؟

لكنه بشكل ما كان مطمئنا إلى أن أسلحته - إن أتيح له استعمالها - لن تترك لها فرصة للفكاك خاصة أنها بالنسبة له حتى الآن مجرد حسناء، والذي يعرفه من خبرته الطويلة أن الجميلات حمقاوات وأن الجمال والذكاء لا يجتمعان، فليطمئن إذن فعما قليل ستكون رقما جديدا في قائمته الطويلة من الحبيبات ... هكذا فكر وهكذا رسم خطته .

أما هي فقد كان في عينيها رجل، فلن يختلف إذن عن سائر الرجال، إنهم جميعا غريزيون شهوانيون يفكرون بعقلية الذئب، ولا شك عندها في أنه سيسعى خلف جمالها .. هي ليست من النوع الذي يجد المتعة في عذاب الآخرين، إلا

أنها تريد أن تستمتع بما تحسبه نوعاً من اللهو البريء، .. هكذا فكرت دون أن تعترف أو دون أن تدري بأن شيئاً ما في داخلها يدعوها إلى الاقتراب منه .
ومنذ اللحظة التي أنهى فيها الحديث أخذ يستعد للقاء الآخر بشوق وترقب، كان يقضي أغلب ليله مستيقظاً، يتخيل لقاء الغد القادم، ذلك اللقاء الذي رسم له ألف سيناريو وتخيل له ألف حوار وارتدى له كل ما لديه وما ليس لديه .

وجاء (الخميس ٢٧ يناير ٢٠١١) الذي استعد له جيداً، كان في قمة الأناقة، أعد محاضراته لتكون أشبه بعرض سحري باهر فهي آخر محاضرة في الكورس وهو يعلم أنه أمام تحد جديد عليه أن يربحه .

كان كل شيء مهياً لما أراد، فقد وصل قبل المحاضرة بساعتين، ...أخذ يخرج ويدخل في قلق واضح وحيرة مفضوحة أثارت ريبة العمال؛ كان خروجه المستمر من مكتبه لأنه يقدر أنه سيصادفها خارج المكتب فيدعوها إلى الدخول ثم يبدأ في نصب شباكه .

طال الأمر وانقضت الساعتان ولم تحدث المصادفة المنتظرة، لقد تأخرت عن الموعد المحدد لبدء المحاضرة، فقرر أن تكون الدعوة بعد انتهائها رغم أنه وقت لا يحبه؛ لأن مكتبه بعد المحاضرة لا يخلو من سائلة أو مدعية أو طفيلي وهو يريد لها وحدها ...

بدأ محاضراته كاسف البال قليل الحماس لا يوزع نظراته على طلابه كما اعتاد وإنما تعلق بصره بباب القاعة في انتظار قدومها .. وسرعان ما أنهى محاضرة

كان يتمناها كرنفالية فجاءت كحفلة تأبين .. التقط صورا تذكارية مع بعض طلابه وتبادلوا أرقام الهواتف ثم تخلص من السائلين بلباقة وسرعة، وقبع خلف مكتبه بين اليأس والأمل، قضى ساعتين آخرين في انتظار ودخول وخروج وتساؤل، ترى ما الذي حبسها عن المجيء ؟ قد تكون مريضة، لعلها انشغلت بشيء .. لعلها ..

قرر أخيرا العودة إلى شقته محسورا لينام بعض الوقت؛ فسائر يومه حافل بالارتباطات .. لقاء مع صديقين سيزوران في شقته في منطقة باكوس التي يتشارك فيها مع صديق ثالث، وعليه أن يذهب مساء إلى إحدى القاعات بمكتبة الإسكندرية لحضور حفل توقيع ديوان شعر دعاه إليه العميد، ثم في النهاية عليه أن يرتب حقيبته ليسافر إلى مسقط رأسه ليقضي إجازته الأسبوعية في إحدى قرى محافظة البحيرة ..

خرج من الجامعة وسار مبتعدا حتى موقف سيارات الأجرة .. كان يتجنب ركوب المواصلات العامة من أمام بوابة الجامعة رغم وفرتها حتى يحافظ على مظهره أما الطلاب الذين يمرون أمامه بأحدث السيارات .. ركب إحدى الميكروباصات حتى وصل إلى منطقة باكوس حيث يقيم .. اشترى جريدة الأهرام ثم عرج على سوق باكوس الشهير ليتزود بما يحتاجه من الباعة الذين بات يعرف معظمهم ويعرفونه .. صعد على ذلك السلم المظلم الضيق حتى وصل إلى شقته بالطابق الخامس ..

حين دخل غرفته لينام جرب كل الطقوس التي يمكنها أن تجلب النوم ..
أغلق هاتفه وأطفأ نور الحجرة والتف ببطانية ناعمة ووضع رأسه تحت المخذة
وأغمض عينيه .. لكن النوم تأبى عليه وصورتها تتراءى أمام عينيه المغمضتين
دون نوم .. غير من وضعية نومه عشرات المرات دونما فائدة .

وبعد ساعة من الرقاد القلق نهض من سريره متعبا، ولا بد له أن يفعل؛ فعما
قليل سيلتقي أصدقاءه في جلسة قد تطول لمتابعة آخر أخبار المحتشدين في
الميادين .

طُرق الباب بعد لحظات ففتحه .. كان الطارق هو عبد الله رفيق صباه وابن
بلدته بالبحيرة وبصحبته كرش صغير يتدلى أمامه يعتز به كثيرا ويعتبره علامة
العز والفخفة .. بدا متعبا والعرق يتصبب منه بعد صعود خمسة طوابق، كان
شابا متوسط الطول وزائد الوزن، يحمل دائما ابتسامة جميلة وضحكة ليست
أقل جمالا وإذا بلغ حد القهقهة - وكثيرا ما يفعل - فهو يضحك رغما
عنك، وهو أظرف الأصدقاء وأسرعهم نكتة برغم أن مظهره لا يشي بذلك
بالنظر إلى جلبابه الأبيض القصير ولحيته الكثيفة اللذين يكشفان عن انتماؤه
السلفي ..

قال مؤنس مرحباً :

- أهلا ببرهامي الكبير .

- لكم تمنيت أن أصبحك مرة لتحضر دروس الشيخ؟

- وفيم ذاك ؟

- قد تفهم بدلا من أن تظل حمارا هكذا .

- أشكرك، ولكنني أحب أن أظل حمارا هكذا .

ما أن يلقي عبد الله بجسده المتعب على أقرب مقعد من مقاعد الصالون المذهب العتيق حتى يرن الجرس مرة أخرى، فيبادر مؤنس مازحا وهو يتجه نحو الباب : ها قد جاء قطك أيها الفأر السمين، ثم يفتح الباب فيدخل هشام ثالث الأصدقاء فيصافحه مؤنس ثم يتجه إلى المطبخ ليعد الشاي .

كان هشام طويل القامة أنيقا ذا عينين خضراوين وشارب أصفر ووجه أقرب إلى الحمرة، يقول إنه ورث تلك الملامح عن جده التركي، كان ذا وجه أجنبي لا يشوبه إلا جرح قديم في خده الأيسر لا يظهر إلا حين يحلق لحيته الخفيفة .. يعمل مدرسا للغة الفرنسية بمدرسة ثانوية حكومية في منطقة المعمورة، وهو سكندري الميلاد والنشأة، التقى مؤنسا في كلية الآداب وتوطدت بينهما الصداقة حينما كانا ناشطين بإحدى الأسر في الكلية .

هشام مصافحا عبد الله :

- طبعا راكب السيارة لابد أن يسبق راكب الترام، إنها وزارة الكهرباء وليست التربية والتعليم .

عبد الله ساخرا:

- وهل تسمي سيارتي سيارة ؟ إنها مواليد الستينيات أي من عمر أمك تقريبا ههههههههه .

فقال هشام ضاحكا - مقلدا صوت مذيع نشرة الأخبار - :

تقنعها إجاباته عندما سألاه عن حاله وأحسا أن أمرا يحدث لكنها لم يضغطا على ذلك الكتوم ..

وتمتد الجلسة دون أن يأتي (على) صديقهم الرابع الذي يصغرهم بنحو عشر سنوات فهو مازال طالبا في كلية الفنون الجميلة، كان والداه يعملان في السعودية ويرسلان له مبلغا جيدا إلا أنه قرر أن يعرض شقيقته للمشاركة مقابل بعض المال يستعين به على مصاريف الكلية الخاصة الباهظة، وبدأت علاقته مع الأصدقاء حين قرأ مؤنس الإعلان وعرض عليه الإقامة معه فرحب، وقد أحبه الجميع كأخ صغير، لما وجدوه فيه من طيبة قلب ونقاء ورزانة لم يلاحظوا مثلها في أقرانه .

تأخر الشاب فهاتفوه فأخبرهم أنه لم يشتر الحواوشي؛ لأنه يسير في مظاهرة ضخمة عند مسجد القائد إبراهيم؛ ففضلوا التفرق كل إلى بيته وأوصوا مؤنسا بأن يطمئنهم عند مجيء على، وتضاحكوا قليلا على الحواوشي الذي سيفقدونه، ثم مضى الصديقان وبقي مؤنس ليعد نفسه للحفل الذي سيكون في السابعة مساء .

ذهب إلى الحفل كارها، ولولا أنه أراد أن يخطب ود العميد ليزيل آثار لقائه السابق لما ذهب، فضلا عن أنه يرحب بمثل هذه اللقاءات التي تعد سبيلا للترقي الاجتماعي وتوطيد العلاقات، هو ليس وصوليا لكنه يتمتع بقدر من الذكاء الاجتماعي يجعله صديقا للجميع، وآية ذلك أنه بمثابة خزانة أسرار الجميع، أما سره هو فلا اطلاع لأحد عليه .

وصل إلى الحفل أنيقا كعادته ... استنتج أن صاحب الحفل ذو ثراء وجاه ..
كان ذلك واضحا من فخامة القاعة، والخدمة الفندقية، والزهور المنتشرة في
كل مكان، والنسخ المجانية من الديوان بتوقيع الشاعر ... لم يجد أحدا يعرفه
رغم أن الحاضرين كثر على خلاف المعتاد، يعلم أن أكثرهم جاء للمجاملة أو
الظهور ولم يأت لوجه الشعر إلا الأقلون عددا، فهكذا هو مجتمع الثقافة
والأدب في مصر، وكان في تلك الليلة راغبا في العزلة وزاهدا في الناس، لكنه
لما وجد العميد بصحبة بعض البذلات الفخمة اتجه إليه وصافحه هو
والمحيطين به .. وبدأ له أن نقاش اليوم مع العميد لم يغير من حفاوته المعتادة به
فاطمأن قلبه .. بعدها تأخر ليجلس في آخر القاعة تمهيدا للانصراف بعد أن
أثبت حضوره .. أخذ نسخة من ديوان الشاعر وأخذ يقلب في الصفحات،
انبهر بفخامة الغلاف ولمعان الأوراق وصدم لضآلة الفحوى وترهل المستوى .
قدما سأل نفسه كيف يكون الأديب مشهورا أو بالأحرى كيف يكون أديبا ؟
واليوم اكتشف الخلطة السحرية : مال + معارف وعلاقات - موهبة = أديب،
موسيقي، رسام كل ما تشاء، أما الأديب الحقيقي فإن حاله الحظ فقد يعترف
الناس بأدبه بعد أن يموت .

هم بالانصراف حتى يدرك وقته ويدبر أمر السفر .. ولكن مفاجأة حلوة
جعلته يتسمر في مكانه .. إنها هي، سفيرة الحسن ومبعوثة الفتنة الطاغية
لسلب عقول الرجال تدخل القاعة، تسارعت دقات قلبه وأحس بخفقان
بات اعتياديا مع كل ظهور لها .. دون وعي تقدم خطوات قليلة ليبرز أمامها

لعلها تراه، ولكنها لم تلحظه فقد كان بصرها مصوباً نحو شاب آخر يبدو من اهتمام الجميع به أنه ملك الحفل وصاحب الديوان، وعندها رأى صاحبنا مشهداً آله أشد الألم وادعى فيها بعد لنفسه أنه لم يحدث، رآها تتجه إليه .. تصافحه، فيميل بخده ليطبع قبلة على خدها ثم يضع يده على كتفها ويسير بها خطوات نحو بعض الرجال الذين صافحتهم ثم استدارت لتجالس بعض النساء .

طعن الشاب في سويداء قلبه وأحس بغضب شديد؛ إنه يرفض ما رأى بكل جوارحه، يرفضه كفلاح حر تربي على أصول بعيدة الصلة عن سلوكيات ابنة أوروبا المتحررة .. وربما كان غضبه مبعثه أنه تأكد أنه لا سبيل إليها أو أنه ليس من أهل تلك الطبقة .. مضى يلوم نفسه الأمانة بالتطلع إلى ما لا سبيل إليه .. من أنت أيها الصعلوك التافه لتحلم بأميرة ؟ أنت لا شيء، فلا تحلمن بعد أيها البائس بأن تكون ذات يوم سطرًا في كتاب عمرها ..

أخذ ديوانا للشاعر بيده ومضى حزينا إلى خارج القاعة ليتنسم بعض نسيم البحر .. عساه يطفى بعض غضبه، مشى خطوات قليلة باتجاه باب الخروج .. وإذا به يسمع خلفه صوتا يناديه باسمه ..

رباه .. إنه ذلك الصوت الملائكي يمارس فعله في تعذيب الرجال .. إنها هي كانت قد تحركت إليه في سرعة حين لمحتة وهو يغادر القاعة ..

يبدو أن القدر يفتح له أملا جديدا .. يتلقاه بصدر منشرح متناسيا ما حدث منذ قليل، ثم ناسيا أن له غريبا على بعد خطوات منه هو سيد الحفل وصاحب الفرح، لكنه رضي .. بل طار فرحا لمجرد محادثتها .
بابتسامة الواثقين:

- مساء الخير يا دكتور .

بابتسامة السعداء:

- أهلا أهلا، كيف أنت ؟

تمد يدها لمصافحته .. فيمد يده في تردد خائفا من لمسة تفتح عليه بابا آخر من أبواب الضنى .. يلتقي الكفان .. عندها تسري في جسده رعدة ينخلع لها الفؤاد، ولكنه يظل متماسك الوجه .

بابتسامة السعداء :

-بخير، وأنت ؟

سؤالها البديهي المألوف أسعده، فأجاب باحترافية الراغب في إطالة الحوار .

- أفضل من ذي قبل .

أراد لإجابته أن تحمل معاني كثيرة، فهل أراد أن يجاملها بأنه بات أحسن حالا لرؤيتها ؟ أم أراد منها أن تسأله عن حاله قبل اليوم وكيف أصبح أفضل حالا فيستطيل الحديث؟، لكنها ما زادت في الرد عن قولها :

- الحمد لله .

بهت لإجابتها وصمت برهة يقلب في ديوان الشاعر، ثم نظر إليها واستأنف

سائلا : وجودك في الحفل بسبب حب الشعر ؟

- فعلا هذا سبب، لكن الشاعر أيضا خطيبي .

اهتز كيانه من وقع الكلمة لا من وقع الصدمة فقد توقع ذلك من قبلته لها،

لكنه تمالك نفسه، فمن ميزاته أنه يتحكم غالبا بوجهه، فهو قادر على إخفاء

كل مشاعره، وإظهار ما يريد وقتما يريد .. أراد أن يحول دفة الحديث فساءها :

- وفي أي بلاد أوروبا عشت ؟

أجابت بخيلاء :

- سويسرة .

أجاب باستعراض معلومات :

-وأي لغاتها تستخدمين ؟ أظن أن سويسرة فيها أربع لغات رسمية، أليس

كذلك ؟

عدلت من وضع بعض خصلات شعرها وأجابت باستعراض أكبر :أنا أجيد

اللغات الأربعة، بما فيها لغة الرومانش .

فطن صاحبنا إلى أن المنازلة الفكرية بينهما قد بدأت مبكرا، وأقلقه قليلا أن

ثقافته مختلفة عن معارفها ولا يدري أيكون ذلك ميزة أم عيبا، إنها تقف في

أرض ما وطئها من قبل، فمن المحقق أنها ستحدثه عن الموسيقى الغربية

والفن التشكيلي، والأقرب إلى الظن أنه لن يكون مدهشا إن حدثها عن تاريخ

ابن خلدون وفلسفة ابن رشد وفتاوى ابن تيمية، هي تملك ثقافة أخرى ومعرفة أخرى، ولا يعلم هل سيقربهما ذلك الاختلاف أم يبعدهما ؟
- ما شاء الله .

ولسان نظرتة يقول:

-إن تلك الشفاه جديرة بأن تتقن لغة الورود ووشوشات العصافير لا لغات البشر .

أما هي فقد ألح عليها الفضول لتحاول كشف بعض الغموض الذي يحيط بشخصيته، فتهيات لتطرح السؤال الذي ينتظره ليطول بينهما الحديث، لولا أن قاطعها صوت رنين هاتفها فأسكتته، ثم رن مرة أخرى، فأشار إليها كي ترد، لقد أراد حقا تلك المكالمة ليتفرس - دون أن تنتبه له - في ملاحظها على مهل، أراد أن يتأمل تفاصيلها ويطبع صورة فوتوغرافية لها في ذاكرته ليستعيدها إذا خلا لنفسه .

وبدأت وعد في مكالمة مع صديقة لها، وادعى هو انشغاله بقراءة شيء من الديوان، ولكنه كان بكل حواسه مع ذلك الصوت الملائكي وبين لحظة وأخرى يمر ببصره على كل جزء يستطيع أن يراه فيها .. يمارس بذلك نوعا من التدليك البصري المانع .

كانت ترتدي ثوبا أسود فضفاضاً لكنه يكشف عن ذراعيها وجيدها فبدت بشرتها البيضاء الناعمة كأنها هي مصدر تلك الأضواء التي تزين المكان .. بات موقنا أن صورتها يمكنها أن تغني معاجم الدنيا عن كلمات مثل : ..

روعة .. إبهار .. دوار .. تخدير ... وقف أمام وجهها ينظر في حيرة فراشة
وسط زهور الحقول، يحار أين يركز نظره، ويتردد بصره بين منابع السحر
كطفل يقف في متجر اللعب وعليه أن يختار لعبة واحدة .. عيناها شفتاها
وجنتاها كلها تزيد دقات وجده وترفع ضغط حيرته .

كان سيمضي في حديث النفس إلا أن أمرا مؤسفا حرمه من دوحة الحسن
والألق التي كان يستظل بفيئها، إذ نوديت من سيدة تبدو كأميرات القصور
الخدوية في العصر البائد، خن أنها أمها وكان مصيبا، فاستأذنت منه وتركته
بين الألم واللهفة يراقب خلصة ما يدور هناك .

انتهت من حديث أمها سريعا، وإذا بها تستدير عائدة إليه، إن عودتها تعني له
أشياء كثيرة، تعني على الأقل أنها استمتعت بحديثه وأرادت المزيد ..

- وما أكثر ما أعجبك في أوروبا ؟

- في أوروبا وجدت كل ما يهمني ويشبع رغباتي : مسارح، مكتبات،
متاحف، معارض فنية، حتى سباق الخيول والسيارات .

- إذن حافظ إبراهيم كان يخدعنا حين قال :

أي شيء في الغرب قد بهر الناس جمالا ولم يكن منه عندي ؟

- هي ضاحكة : كذاب طبعا .

- وتلك طبيعة الشعراء ..

- إلا خطيبي، ههههههه، أم لك رأي آخر ؟

- في الشعر أم في خطيبك ؟

- في كليهما، ولنبدأ بخطيبي .
- وكيف أحكم عليه وأنا لا أعرفه؟
- كيف هذا ؟ إنه عضو مجلس إدارة في الجامعة التي تعمل بها وهو ابن (أونكل) معترز صاحب الجامعة .
- أجابت تلك العبارة عن تساؤلات كثيرة كانت تشغله، فقد فهم من أين أتى التقارب بينهما .

وتصنع الابتسام واستغل الاسم فقال مازحا :

-ابن المعتز ؟ طبعي أن يكون شاعرا ههههه .

توقع بعد عبارته أن تسأله ومن ابن المعتز هذا؟ لكنه فوجئ بقولها :

-لا تقل هذا فلا أريد له نهاية كنهاية ابن المعتز ..

أدهشته الإجابة؛ فملاحظتها الأخيرة تعني إنها ذات معرفة بالتاريخ العباسي وشعراء العرب القدامى وسيرهم .

ثم جال في رأسه خاطر ارتاع له، ذلك أن ابن المعتز الشاعر العباسي الشهير ارتبطت سيرته بمؤنس الخادم، ذلك الخادم الذي ولي الإمرة وقيادة الجيوش في زمن العباسيين، وهاله أن تتوالى المصادفات بتلك الصورة...وأراد أن يغير الموضوع سريعا قبل أن تلمح الصلة بين الاسمين فيلتصق به لقب الخادم وتلك علامة شؤم يخشاها ..

من حديث المقهى ٢

التاريخ : ألاحظتم ما لاحظت ؟

الآن : وماذا لاحظت يا فيلسوف زمانك ؟

التاريخ : أن قصتي بدأت من هنا .

الغد : أية قصة ؟

التاريخ : قصة مؤنس الخادم وابن المعتز .

الآن : ومن هما ؟

التاريخ : هما رجلان من زمن العباسيين، ويناسبهما تماما أن أحكي وقد ارتديت ما ترون .

الآن : أظنك تخترع تلك القصص لتثبت وجهة نظرك، وليس ثمة رجلان بهذين الاسمين .

التاريخ : هما حقيقيان بل إنهما شهيران، فأحدهما هو ابن المعتز الشاعر الشهير وصاحب الطبقات والبديع، والآخر هو مؤنس الخادم أمير الجيوش، والغد يعلم هذا، أليس كذلك ؟

الغد : بلى أعرف، فهيا هات ما لديك . وأرنا كيف تتشابه الحكايات .

مال التاريخ بظهره على الكرسي البلاستيكي .. وبدأ يحكي قصته ببطء يبدو أنه يحقق له متعة طاغية، قال برنة صوت حكيم :

- منذ نحو ألف سنة، في زمان لا يختلف عن اليوم، ومكان يختلف عن سائر الأماكن كان ..

قال الغد مقاطعا :

- فلسفة جوفاء خالية من أي معنى ..

فقال التاريخ : ماذا تقصد ؟

فرد الغد :

- ما أقصده أنك لو عكست العبارة لكنت عندي أولى بالقبول، إذ لا تختلف الأماكن - فيما أرى - إلا في أمور غير جوهرية، أما الزمان فشتان بين ما مضى وما هو قائم، لقد اختلف الناس والعادات والطبائع واستشرت الحضارة بوجوهها الصبيحة والكالحة .. فكيف تستوي الأزمان ؟

التاريخ : لا تزال يا صاحبي تقيس الأمور بشكل سطحي .. ولو نظرت بشكل أكثر عمقا لرأيت كل شيء على حاله ولم يتقدم إلا أرقام الزمن .

الغد : هذه هي نظرتي السطحية، فاكشف لنا عن نظرتك العميقة كما تراها أيها العبقري .

التاريخ : سأشرح لك الأمر ببساطة، خذ مثلا رأس الدولة .. الحاكم الذي هو في ذلك الزمن البعيد خليفة المسلمين العباسي .. رجل يتلاعب به أصحاب المصالح الذين يحيطون به في شكل وزير أو مستشار أو قائد، فيقدمون ويؤخرون ويرفعون ويضعون بحسب أهوائهم ووفق ما يحقق لهم

المصلحة، وهو مبرمج على طاعتهم إما مقتنعا أو مدعيا الاقتناع .. أما الشعب فهو كذلك الشعب الذي نراه الآن يصفق للفائز وينصاع للباطش ويهلل لجبروت الطاغية .. مسكين قد أعوزه التبصر فلا يعلم مصالحه وأعوزته الإرادة فلا يخالف أعداءه وطحته الدنيا فلم تترك له طاقة ليؤازر أحدا أو يعارض أحدا، وإن بدت منه انتفاضة ضد أي شيء فوراء انتفاضته بالتأكيد سياسي بارع استطاع أن يحرك الجموع ليحقق مبتغاه، إنهم كانوا وسيكونون كما يقول الناس يجمعهم صوت وتفرقهم عصا ..

وفي الدين تفرقت الأمة أيادي سبا، فثم معتزلة وجهمية وخوارج وقرامطة وسنة وشيعة ... أليس ذلك ما نراه اليوم وإن اختلفت الوجوه وتغايرت المسميات ؟

أما البلد فإني أتحدث عن بغداد، أتدري ما بغداد ؟

قال الغد : وما بغداد ؟

قال التاريخ : ذكر العارفون بالبلدان أنها : محلة بني هاشم ودار ملكهم، ومقر سلطانهم، اختطها الهاشميون الشرفاء، فلم يسكنها ملوك قبلهم .. مدينة ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، فليس كمثلها سعة وعمارة وطيب هواء .. أثرها الناس من كل صقع على أوطانهم، فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا . وتأتيها التجارات والمير برا وبحرا بأيسر السعي حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان أنفسها، وكأنها سيقت إليها خيرات الأرض، وجمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت بها بركات العالم .

وذكروا أنها باعتدال هوائها، وطيب ثراها، وعدوية مائها حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم، وانفتقت أذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم، والفهم، والأدب، والنظر، والتمييز .. قد أحكموا كل مهنة، وحذقوا كل صناعة، فليس عالم أعلم من عالمهم، ولا أروى من روايتهم، ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من نحوهم، ولا أصح من قارئهم، ولا أحذق من مغنيهم ولا أبين من منطيقهم، ولا أعبد من عابدهم، ولا أفنك من ماجنهم . فقال الآن وقد أخذه الحماس :

-هو والله ما تقول .. فدع ذا وأكمل حكايتك .

التاريخ : استمعوا أيها الرفاق جيذا ولكم الرأي في النهاية إن كنت مخطئا أم مصيبا .

حين استدعي إلى بغداد جهاز متاعه على عجل ثم امتطى راحلته مصطحبا ابنه عمارا وخادميه وبدأ رحلة العودة على الفور وقد أمل أن يكون الأمر خيرا، فقد آلت الأمور إلى جعفر المقتدر الذي يعرف له قدره .. يبدو أن الأيام ستصفو له بعد كدر، فما كان المقتدر ليستدعيه إلا ليقبله منصبا شديدا للخطر أو على الأقل ليعيده إلى سابق عهده قائدا لجند يحبونه ويحترمونه .

كان شديد الرجاء في المقتدر، ولم لا ؟ وقد كان بينهما ما يجعل ذلك الخليفة الصغير يثق به ويقدمه على غيره من رجال القصر، فمن المحقق أن الخليفة الجديد لم ينس موقف مؤنس حين كان الخليفة أميرا صغيرا لما يبلغ التاسعة وقد خرج للصيد مع بني عمومته .

إنه يتذكر أحداث ذلك اليوم كأنها وقعت بالأمس، يومها انفرد الأمير الصغير عن رفاقه لغفلة منه بطرائق الصيد وأصول الحيلة التي ينبغي أن يسلكها الناس في ذلك الموضع الخطر من الغابة الشرقية لا سيما إن كان من أبناء الخلفاء، كان الدغل قد تشابكت فيه فروع أشجار السرو العتيقة والسنديان والكافور والتوت البري بخلاف ما ينمو فيه من حشائش ترتفع عن قامة الرجل؛ فغدا موثلا لطوائف شتى من الحيوانات الخطرة وغير الخطرة، و في تلك الأحراش طرق معلومة يطرقها الصيادون والخابطون، وكان على اللاهين بالصيد ألا ينحرفوا عن تلك المسارات المحددة صونا لحياتهم من وعورة المكان وما يقيم فيه من حيوان .

يوم انفرد جعفر وأوغل في الغابة كان معه مؤنس الذي كلف بحراسته، وكانت تلك أولى المهفات التي أسندها له صافي الحرمي مدبر دار الخلافة .. اعترته غضبة أبداءها على قسّات وجهه حين سمع التكليف فقد عد ذلك استصغارا لشأنه وهو الفارس المعروف وقائد الجند الذي أثبت غير مرة أنه جدير بتولي عظام المهام، عندها سارع الحرمي بتطبيب خاطره مشيرا إلى أنها مهمة ثقيلة خطرة لا يثق بغيره لأدائها، فخرج من عنده غير مصدق كيف تكون رفقة صبي يلهو أمرا صعبا أو خطرا ..

وقتها كان قد قارب الأربعين لكنه يبدو كابن العشرين فقد كان تام الصحة متين البنيان ذا طول فارح وذراعين مفتولتين، عاش حياة الجنديّة منذ نعومة أظفاره وأجادها أيا إجادة؛ فصار فارسا يتقى وبطلا ينبغي لمحبي الحياة تحاميه، كما يشهد له من يعرفونه بأنه موفور العقل سديد النظر قد هذبته الأيام، وأحكمته التجارب .

وقد ساعدته تلك البنية الجسدية والعقلية على أن يتقلب في رتب الجيش حتى صار قائدا لفرقة من فرق الجنود الأتراك الذين استكثر منهم العباسيون منذ المعتصم حتى بلغوا شأوا عظيما في الكثرة وفي المنزلة، ورغم الشارب الكث واللحية العظيمة والحاجين المتقارين إلا أن بشرته البيضاء وقسمات وجهه كانا يحملان البشر والراحة، فوجهه فيه شيء من الوسامة الصارمة أو الصرامة الوسيمة .

سرعان ما تبدت لمؤنس مقاصد الحرمي حين بدأ المهمة وخبر الطفل أخا الخليفة ابن التسعة أعوام أو أقل، لقد كان الأمير الصغير ذكيا نابها، لكنه كان متهاونا بالأخطار، يتوق إلى الانطلاق وخوض المغامرات، لا يستقر له بدن ولا تهدأ له جارحة مما جعل مهمة مؤنس صعبة بعض الشيء فلم يكن مقبولا أن يعود بالأمير مصابا ولو بخدش صغير وعندها يبدو فاشلا في أولى مهامه مع أبناء بيت الخلافة، وزاد من ثقل المهمة أن صاحبه فيها رجالان من حرس القصر، وجد مؤنس منهما نفورا وازورارا كأنهما استقلا وجود مؤنس قائدا لهما وهو ليس من رؤسائهما المعروفين، فأنفوا من الانقياد له، ولأن أوامر الحرمي لا مهرب لهم من تنفيذها فقد تبعوه على مضض ونفذوا أوامره بتناقل، ولما وجد مؤنس ذلك منهم لم يحفل بهم ولم يهتم بمحادثتهم أو كسب ودهم، حتى أنه لم يُعنَ بمعرفة أسائهم، وحينما كان يُعنُّ له محادثتهم لتوجيه أمر أو التنبيه على شيء كان يخاطبهم قائلا : يا جندي .. يا محارب .

استطاع مؤنس أن يتجاوز تلك المشكلة الصغيرة حين شغل الأمير بالحديث معه وهما يسيران ببطء داخل الغابة الشرقية .. فقد كان مؤنس حكاء بارعا، مهارته في الحكي تأخذ القلوب وقدرته على التصوير تشغل الأذهان، فلا عجب إن بدا الأمير الصغير مأخوذا بحكاياته متلهفا لساع المزيد؛ فانشغل بذلك تماما عن مقارنة الأخطار، حكى له عن الحروب التي خاضها والمنازلات التي ظفر فيها برءوس أعدائه والبلاد التي زارها والوحوش التي رآها في البرية، والأمير يلتهم كلامه التهاما ويتوق للمزيد، فجعل مؤنس

يتزايد فيما حدث ويخترع من الحكايا ما لم يحدث، وربما بالغ قليلا بذكر بعض الوحوش المجنحة والأفاعي المتعددة الرؤوس التي تعرضت له والأمير مستمتع وهادئ .. وذلك كل ما يرجوه مؤنس حتى تنقضي تلك المهمة الثقيلة وهو لا يدري أن في انتظارهما خطرا أكبر من حماقات الأمير الصغير .

كان مكنم الخطر في رجال من القرامطة قد نكل بهم الخليفة المعتضد في مبدأ أمرهم فقتل وشرد، وسار على نهجه في التنكيل بهم ابنه الخليفة المكتفي بالله، وله معهم وقائع مشهودة وفي عصره قتل رأس القرامطة مهرويه بن ذكرويه .

لقد قرر أمير القرامطة الذي أخلف مهرويه الانتقام من المكتفي وإن كلفه ذلك بعض رجاله المخلصين، فأمر نفرا منهم بأن يغادروا مواضعهم في بادية الأهواز ويذهبوا إلى بغداد حاضرة الخلافة وقاعدة ملك العباسيين، ولما كانت مهاجمته في قصره أمرا مستحيلا، فقد رسم لهم أن يترصدوا للخليفة في مناطق الصيد بأطراف بغداد وأن يقتلوه إن أمكنهم ذلك، وإن لم يتيسر لهم قتله قتلوا أيا من أولاده .

كان القرامطة فرقة ضمت كل موتور وناعق وجد في تلك الدعوة الشاذة عشا يربي فيه كراهيته ويتعهد فيه أضغانه حتى غدت تلك الأضغان أشجارا أصابت الدين نفسه، كانوا ألفافا من اللقطاء والمنبوذين وأخلاطا من المرضى النفسيين؛ فلم يكن تطرفهم إصلاحا للدين وإقامة لاعوجاجه كما يدعون بل كان رفضا وانتقاما من مجتمعات لا تتقبلهم أو أقوام لا يلقونهم إلا بالازدراء، ومعلوم أن الجهل كان - وسيظل - تربة خصبة لنمو تلك الخبائث واستشراء

هذه البلايا .. ولو التفت الناس صدقا إلى هؤلاء المرضى فقدموا لهم عقاقير
التقبل وأدوية الاحتواء لكان ذلك عسيا أن يحمي وحدة الإسلام من أكثر
أخطار التمزق وآفات التشردم .

أما مذهبهم فظاهره الرفض وباطنه الكفر، يحرصون العلوم في قول إمامهم
المعصوم، ويعزلون العقول من أن تكون مُدركةً للحق لما يعترضها من
الشبهات، فالمعصوم فقط هو يطلع من جهة الله تعالى على جميع الأسرار أما
بقية الناس فهم أدوات تنفيذ لإرادة المعصوم التي هي إرادة الله .

وطلبا لكثرة الأتباع واجتذاب الحمقى والجهال فقد يسر لهم المعصوم
شرعتهم فتخفف من بعض مشاق التكاليف وأباح كل محظور من الشهوات،
فأضحى كل ما يريده الإنسان ويقدر عليه مباح .. حتى إنه ليقال إنهم
يجمعون في كل سنة هم ونسائهم، ثم يطفئون المصباح وينتهبون النساء،
فمن وقعت يده في امرأة حلت له، ويقولون: هذا اصطيد مباح .. وقد جمعوا
بين خصلتين متناقضتين، أولاهما السعي وراء الدنيا والإسراف في ملذاتها
والثانية الإيمان الكامل بقضيتهم والإخلاص لها .

قدم القرامطة الموكلون بمهمة قتل الخليفة إلى بغداد يتحينون فرصة يخرج فيها
للصيد في أحراش كانت تقوم الى الشرق من بغداد، كمنوا في تلك الأحراش
منتظرين .. جلبوا مؤنهم وأقاموا كوخا صغيرا، وكان القادم من بغداد لا بد
له من أن يأخذ للغابة أحد طريقين إن أراد أن يدخلها فوضعوا على كل طريق

رجلا يراقب من يأتي، وظلوا كذلك مدة يبعثون أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم بالطعام والمؤن وأسباب العيش ثم يعود إليهم .

طالت أيام الانتظار حتى فقدوا حماسهم وشعروا بالسأم وبدأ على تصرفاتهم الانفعال والعصبية وربما وقع بينهم شجار لسبب تافه .. وفي يوم من أيام الانتظار كان المكلف بمراقبة مدخل الغابة من أحد السبيلين قد وقعت عيناه على صيد مباح، إنها فتاة جميلة اعتادت أن تحتطب لأبيها، ذلك العابد الكفيف الذي اتخذ كوخا صغيرا عند أطراف الغابة .. انقطع عن الناس في هذا المكان يبغي الخلو والانقطاع للعبادة في مكان يندر فيه الطارئون من البشر .

كانت عاداتها تقضي بأن تجمع ما يتيسر لها جمعه من الأحطاب من أطراف الغابة ولا توغل فيها .. لتستخدم ذلك الحطب في إشعال نار تطبخ عليها أو تستدفئ بها ..

إنها معتدلة القوام جميلة العينين مستديرة الوجه بيضاء البشرة تبدو غداؤها ممتدة من تحت غطاء رأسها الأسود فتشي بجمال باهر، إنها لم تعتد منذ وردوا هذا المكان أن تحتاط لملابسها وتبذل الغاية في احتشامها؛ لأنها لم تر في هذا الموضع أحدا من الناس .

حين رآها القرمطي عن قرب لما مرت به طار عقله لجمالها، أما هي فأغلب الظن إنها لم تتفرس في ملامح ذلك الذي يجلس على الأرض مستندا على جزع السنديانة العتيقة في ثياب المشتريين وكأنها لم تره، وإن رابها وجود شخص غريب في تلك البقعة الموحشة ..

قضت أربها من فروع الشجر اليابسة ثم انطلقت إلى كوخ أبيها لتشعل نارها بالقرب منه وتصنع طعامها البسيط ثم يتشاركوا العبادة ويتعاونوا في السعي إلى الله ..

بدأ القرمطي منذ رآها يتحين الفرص ليظفر بها .. مرت أيام يراقب القرمطي فيها الطريق في فتور وكسل ويراقب صيده المباح بجوع ونهم، يقضي أغلب أوقات المراقبة وهو يحلم بها ويتخيل لقاء يجمعه بتلك الحسناء حتى كان ذلك اليوم .

كان صبره قد نفذ واحتاله للبعد عن النساء قد وهى بعد مرور شهور على بدء تلك المهمة .. أطاع مهديه المزعوم واستغل فرصة ابتعادها قليلا عن بيتها وخلو المكان من جنس البشر .. اقترب منها ببطء يتصنع العرج .. حين التفت الفتاة إلى ذلك الأعرج المقرب أحست بسوء نيته، فدق قلبها بقوة الخوف، ولكنها اجتهدت في تثبيت نفسها وفكرت في أن تنتهي لأسوأ الاحتمالات، فألقت ما في يدها من أعواد كانت قد جمعتها واستبقت غصنا غليظا يمكنها أن تدفع به الشر عن نفسها حين تواجهه، ثم شدت في سيرها متجهة إلى بيتها، فرأته يقطع عليها الطريق وقد تخلص من عرجته المصطنعة .. في تلك اللحظة أيقنت المسكينة ما وراء ذلك من خطر .. فهولت دون تفكير في الاتجاه الآخر، اتجه الغابة .. لم تفكر في أن هذا بالضبط هو ما يسعى إليه ذلك القرمطي الجائع .. جرى بسرعة كبيرة تتجاوز سرعتها .. وحين أدركت أنه سيدركها لا محالة قررت مواجهته بذلك الغصن الذي ما زالت

ممسكة به .. استدارت لتواجهه .. ولكن ماذا تفعل فتاة بريئة تمسك غصنا مع جندي مدرب وإن كان لا يحمل سيفاً .. تفادى ضربتها الضعيفة وأمسك بسهولة ذلك المعصم الرقيق وجمع يديها معا خلف ظهرها وبدأ يقهقه في ظفر. قاومته بمنتهى جهدها وأقصى طاقتها .. ولكنه أخذ يدفعها أمامه حيناً ويجرها حيناً والدموع تنهمر .. وهي تصرخ ولا سميع لها من الناس .

جرها جراً إلى حيث يجلس أصحابه في كوخهم وقد استماتت في المقاومة؛ حتى إنه اضطر لحملها في بعض مراحل الطريق وهي تضربه بقبضتها الضعيفة أو تركله بقدمها صراخها يتصل ويستمر .. كان زملاؤه قد سمعوا صراخاً وبكاءً أنثوياً يقترب من موضعهم فخرجوا من كوخهم ليرى ما الخبر .. فإذا هم يرون صاحبهم يجير الفتاة وهو يصب عليها اللعنات ويمطرها بالشتائم، بعد أن تمكنت في لحظة من أن تغرز أسنانها في يده بقوة الفزع فيسيل منها الدم .. لما رأتهم ظنت أنهم النجاة، وأن أي رجل منهم به ذرة نخوة ومروءة سيسارع إلى نجدها .. ما لهم لا يفعلون ؟ نادتهم : يا بني الإسلام أدركوني .. أدركوني؛ فما وجدت منهم إلا نظرات بلهاء، سرعان ما استحالت نظرات شهوانية يتأملون بها حسناتها الأخاذ، ثم صيحات فرح وتهليل بصيد مباح وقع في خاطرهم المريض أنهم سيعتقبون عليه كالذئب، وهنئوا صاحبهم على براعته في الصيد وأقروا بأنه مكافأته أن يكون له المفتاح ..

بدأت الفتاة ترتجف من الخوف وهي ترى أنه سقطت بين حفنة من المجرمين السفلة .. جعلت تتوسل إليهم بكل تذلل أن يرحموها، ويرحموا أباهما المسن العاجز المريض .. ناشدتهم بالإسلام والمروءة والشرف فما استجاب لها أحد . كان بكاءها مؤلماً حقاً وتوسلاتها تخلع الأفتدة حقاً، ولكن ما عسى تفيد التوسلات في قلوب قد ماتت، وما يفعل البكاء لرحمة قد وئدت في رجال أقرب في تلك الحال الشهوانية إلى الحيوانات .

حين بدأ القرمطي الصياد في تقييدها ليضمن أن يعتدي عليها دون مقاومة لم يفكر أحد منهم كيف يكون ما يقومون به ديناً، وبأي مقياس تكون تلك الممارسات جهاداً .. وقفوا ينظرون إلى صاحبهم وهو يستعد للاستمتاع بصيده .. والفتاة بكاءها يتصل وتوسلاتها لا تنقطع .. وفجأة توقف كل شيء حين قدم المراقب الآخر يلهث .

قال وكأنه منبهر :

- ديوان جميل .

- أهذا رأيك جديا ؟

- آه .. طبعاً .. جميل .

- أعلم أنك شاعر، ولك ديوان منشور .. ومن المؤكد أن لك رؤية في الأدب، فقل رأيك بصراحة .

أعجبه أنها بحثت عن سيرته الذاتية وتراقص قلبه لهذا الإطار اللذيذ .. قال مدعياً التواضع :

- لست ناقدًا بارعاً .

- يكفي أن تذكر انطباعاتك المبدئية .

- رأيي قد يضايقك .

- لا عليك، فأنا أريد أن أعرف رأيك دون مجاملة .

فأجاب دون تردد :

- شعر تافه، صاحبه يجري وراء استعارات غامضة؛ فيلحق من هنا كلمة ومن هناك أخرى، فيحدث المزج الذي يراه البعض مدهشاً وأراه ملفقاً، عبارات مثل - يفتح الديوان ويقرأ- : (أتناسل فرحاً، ويتككبك النغم في روعة الأمطار، والعشق الشمسي البائد - سلاف الفراشات) إنها موجة

جديدة من الشعراء سرعان ما تنزوي وينساها الناس وسيبقى فقط للشعر شعراؤه الحقيقيون .

سكت لحظة ثم أردف قائلا :

- لا تغضبي فربما يكون انطباعي هذا ناتجا عن موقف مسبق؛ فأنا كلاسيكي النظرة في الشعر وفي أشياء أخرى ..

أجاب دون أن يستيقن من بواعث هجومه وأسباب إسقاطه لشعر الرجل، أكان مدفوعا في ذلك الرأي بكرهية الشاب الذي بدا له غريبا ومنافسا فأراد الانتقام مما رأى منذ قليل ؟ أم كان رأيا نقديا يقصد به وجه الشعر، وأغلب الظن أن دافعه كان مزاجا من الأمرين؟ ... لكن الغريب حقا هو جوابها الذي أدهشه؛ ذلك أنها قالت :

- أتفق معك في أن المستوى ضحل والشعر هابط ونحن هنا للمجاملة لا أكثر، لكنني أختلف معك في النظرة الكلاسيكية للأشياء، لا يمكننا التوقف بالشعر عند النابغة وامرئ القيس وأبي العتاهية والمتنبي؛ فالكلاسيكية رغم سحرها وفرادتها تحتاج إلى روافد العصور المتتالية .. تحتاج الرؤى المختلفة والإطلاقات المتباينة .. تحتاج بصمات كل شاعر وأصالة كل فنان .

فرح بإجابتها وهم ببسط وجهة نظره لشرح مفهوم الكلاسيكية عنده لولا قدوم الشاعر الذي بدا مستاء من وقوف خطيبته طويلا مع ذلك الرجل الذي لا يعرفه .. مديده مصافحا ليتم التعارف بشكل رسمي هي مشيرة إلى مؤنس : الدكتور مؤنس، يعمل في الجامعة القومية مع (خالو) عصام ..

ثم إلى عمر : خطيبي الأستاذ عمر معتز مرعي، يعمل في الخارجية .

هو : تشر فنا يا أستاذ عمر .

عمر : الشرف لنا يا دكتور، أتمنى أن تكون الحفلة قد أعجبتك .

هي بابتسامة مأكرة : أعجبتة جدا .. فقد كان يمدح للتو في جمال ديوانك .

هو بخبث : هي أيضا منبهة بديوانك .

اكتشف عمر بسهولة - وهو الشديد الذكاء - أن مدح ديوانه لم يكن ضمن حوارهما السابق .. فاكستت الأجواء بمزيد من عدم الارتياح عند الأطراف كلها .. وساد بينهم صمت قصير مزعج، ادعى كل منهم خلال الصمت انشغاله بشيء ما ليخرج من حرج ذلك السكون المتوتر، فأخرج عمر هاتفه وجعل يقلب فيه، وكاد مؤنس يفعل مثله، لكنه تراجع عن إخراجه من جيبه حين أدرك أنه لا ينبغي لهاتفه الأعمور أن يظهر في وجود ذلك الهاتف البصير، ووجد ضالته في ديوان عمر فأخذ يتصفح بعض الصفحات فيه دون أن تلتقط عيناه حرفا واحدا .. فأرادت وعد أن تفتح موضوعا يجري حوله الحديث، لينكسر ذلك الجليد، فسألت عمر :

- وما موقف الخارجية من الثورة يا عمر؟

عمر : أية ثورة؟ .. إنها مجرد فوضى ستنتهي ويعود كل شيء إلى حاله السابق .

وجدها مؤنس فرصة ليرضي نفسه بانتقام كلامي، لعله يخفف لهيب ما رآه وعرفه، وعزز من تلك الرغبة أنه لا بد أن يستمر على موقفه الذي عرضه من

قبل أمامها، فلن ينكص الآن ويوافق عمر في حين خالف الدكتور عصام في
المسألة ذاتها .. فقال :

- ألا ترى زخم الناس؟ ألا تسمع هدير الهتافات ؟
- أو من بأن البالونات تكون أكثر ضعفا كلما انتفخت، وعمّا قريب سينفص
ذلك السوق وسيكون الرابحون منه هم الذين تعودوا الربح دائما؛ فالنفوذ لا
يجب كسب صداقات جديدة لأنه مغرم بأصدقائه القدامى .
- وأنا أو من بأن صخرة الجبل المنحدرة لا تنظر خلفها، ولا لوم عليها إن
حطمت الكوخ الخشبي الذي سيصادفها .
- إن صدقنا أنها صخرة فالأهم هو ما بعد تحطيم الكوخ - إن افترضنا حدوثه
أيضا - فهل يمكننا بناء كوخ أفضل ؟
- ولم لا تقول بناء قصر مشيد ؟
- هل يمكننا بعقولنا تلك بناء أي شيء ؟
- بالطبع فبناة الأهرام لن يعجزهم بناء الغد متى استطاعوا تحطيم الماضي
- بناءة الأهرام يتنفسون اليوم بحسب نص مكتوب، لا يمكنهم الخروج عنه .
- ومن كاتب النص ؟
- أمريكا هي السيد الكبير هي المخرج والمؤلف والشريك في الإنتاج، وهي
التي ستقنعنا فيما بعد بأن العمل ناجح وستجعلنا نصفق عليه .
- استفاقة الشعوب اليوم أكبر من أمريكا وابنتها أو إسرائيل وأمها .
- سينزل الجيش لينهي المسألة .

- لا أظن البراكين تبتلع حممها استجابة لأمر عسكري .
- في مباريات الكئوس يا صديقي لا بد من رابح وخاسر ولا مجال فيها
للتعادل، والمحتجون لا يملكون خبرة الفوز ولا أدواته
- لكن لديهم بواعثه، ولا شيء يخسرونه .. وكفى بذلك مرجحا لفوزهم
وستتمخض الأحداث عن أرض جديدة وناس جدد، سنمسح التراب عن
حضارة هذا الشعب الفريد التي طالما أخفيت بيد المحتل الأجنبي والمحتل
المصري على السواء .

- أمل ضعيف .

- يكفي أنه أمل .

- سنرى .

- سنرى .

كانت العبارة الأخيرة إيذانا بانتهاء اللقاء العاصف، فقد مضى الشاعر وفي
قلبه عاصفة حقد على صاحبنا وعلى وجهه بعض علائم الغضب، حاول أن
يخفيها بابتسامة دبلوماسية صفراء، استأذن للترحيب بضيوفه .. ثم سار إليهم
ممسكا بيد الجميلة ليغرس قبل أن يمضي في أحشاء صاحبنا سكيناً، فيما يبدو
أنها رسالة مفادها : ممنوع الاقتراب أيها الصغير .

كان قلب الفتاة يدق بقوة وهي تتابع تلك المجادلة الساخنة، وتملكتها مشاعر
مضطربة .. فكرت أكثر من مرة في التدخل بأي كلام يخفف من تلك المناقرة
التي تخشى أن تنتهي بما لا يمكن مداواته، فهي تعرف عمر جيداً وتدرّك مدى

عنجهيته وكبره وغرامه بالفوز بكل شيء حتى الكلام، كانت نفسها تدفعها إلى نصره مؤنس لكنها آثرت الصمت وهي تراه يبلي حسنا ولا يحتاج منها عوناً .

وبعدها انطلق مؤنسا إلى بيته محملاً بفيوض من المشاعر المتناقضة لقد كان سعيداً ببقائها .. حزينا لأنه لا سبيل إليها .. قلقاً لأنه أثار حفيظة رب عمله .. اتخذ قراراً سريعاً بالآلا يذهب إلى بلدته هذا الأسبوع، كأنه أراد أن يقضي هذين اليومين في الاستمتاع بذكرى لقائهما، لقد آمن بعد أن تشقق بينهما الحديث أن فتنة روحها أقوى من فتنة جسدها، وأن جمالا آخر يستدعيه ليخر أمامه، لأول مرة يصغي إلى فتاة ويستمتع بحديثها المدهش، لديها بساطة في الفهم وفي التعبير تجعله يعجب لما كان يراه معقداً .. ما حدث له ذلك من قبل مع فتاة أخرى، إن ذكاءها يتحداه وهو يحب التحديات الكبرى .

أدرك أنها ليست مجرد حسناء فحسب، فثقافتها عميقة، وبديتها حاضرة، ويمكنه أن يحدثها حديثاً ذكياً يطول لساعات ولا يسأم، إنها المرأة الكاملة التي كان يبحث عنها طيلة حياته الماضية، لقد انخطف بها جمالا وآمن بها عقلاً وتعلق بها روحاً .. يا الله لقد أحبها حقاً وهو الذي كان يسخر من قصص المحبين وروايات العشاق وجنون الهوى، ... إنه الحب إذن ...

قررت نفسه أن يقاتل كي لا يخسرها .. فهي فتاة أحلامه التي كان ينتظرها وتبحث عنها روحه في آلاف العوالم .

في حين شعرت الجميلة أنها أمام مزاج غريب لم تشهد مثله، ثقة وذكاء وثقافة وغموض ووسامة .. تركيبة أدهشها وجودها .. ولعل الأكثر إدهاشا في نظرتها لمؤنس أنه عزز من رأيها بشأن شجاعته، كانت الشجاعة هي الصفة المفتاح؛ ذلك أنها صفة افتقدتها في كل من عرفتهم من الرجال حتى أبيها وخالها، أو قل خاصة أباهها وخالها، فلطالما رضحوا وانقادوا بل تزلفوا لمعتز مرعي، ولكم ساءها أن ترى أباهها هكذا .. منذ عرفت عمر معتز وهي ترى الناس يتحاشون غضبته ويتزلفون له بكل عبارات الرياء الممكنة .. فلماذا لم يكن ذلك الرجل مثلهم خصوصا وهو من العاملين لديه؟ .. إلام يستند هذا المؤنس ليتصرف بتلك الشجاعة؟

لقد عاشت وعد طاهر حياتها عقلانية في رؤيتها لكل شيء وفي حكمها على كل شخص .. إن كثيرا من الرجال حولها يمكن وصفهم بأنهم رائعون ومميزون ولكنهم ليسوا مكتملين .. هكذا كان رأيها في الرجال؛ لذا تأخر اختيارها وترددت كثيرا في قبول عمر؛ لأن من تستحقه أو بالأحرى من تنتظره لم يأت بعد .. حين خلت لنفسها لتعيد التفكير في أمر الوافد الجديد بدا لها أن العقل ينسحب من المعركة الجديدة باكرا وأن القلب قد تسيد الميدان .. لقد انشغلت به حقا .. وتساءلت أيكون ذلك هو الحب؟ .. لم تستعجل الإجابة ولكنها باتت أكثر حرصا على تكرار المقابلة .

والعجيب أنهما أغفلا وجود حائل شديد الارتفاع بينهما، إنه عمر مرعي، هو
عقبة كثود لا يستهان بها .. لكنهما تناسياه عن قصد أو عن غير قصد وقررا في
اللاوعي أن يبذل كل منهما وسعه من أجل القرب من صاحبه .

-ب-

قال كبيرهم :

- ماذا تقول يا رجل ؟ أعد ما قلت .

- أقول إنه أخو الخليفة واثنان من بني عمومته قد دخلوا الغابة وأوغلوا فيها.

- الله أكبر .. هو ما جئنا لأجله .. ولكن .. أخبرني : كيف علمت أنهم أبناء

بيت الخلافة ؟

- من زينتهم وملابسهم ومن الجنود يصحبونهم، كما أنني استمعت إلى بعض حديثهم حين مروا بالقرب من موضعي دون أن يلحظوني، وأحدهم ينادونه جعفرًا هو أخو الخليفة بلا شك، أليس أخو الخليفة يسمى جعفرًا ؟
- بلى، لئن كانوا هم فقد اقترب موعودنا .

- إنهم هم بإذن الله .

- وكم معهم من الحراس ؟

- ليس معهم إلا ثلاثة رجال .

التفت كبيرهم إلى صاحب الصيد المباح قائلاً :

- إذن سنترك هذه الفتاة يا ابن الراعي .

- كلا لن نتركها .. فقد انتظرتها أياما ولا بد أن أقضي منها وطري ...

انصرفوا أنتم إلى مبتغاكم وسألحق بكم .

صاح به الكبير :

- أجننت يا رجل كيف نترك خلفنا ؟ أتريد أن تتسبب في مقتلنا ؟
- لا تخشوا شيئاً فسأنتهي منها وألحق بكم سريعاً .
- يا رجل ، حين نعود إلى الأمير سيكافئك بمن هن أجمل منها .. فألجم نفسك واصبر حتى ننتهي من مهمتنا .
- لن أترك صيدا ساقه الله إلي . هي عندي خير من ابن الخليفة أو أخيه .
- يا رجل .. لا نقدر أن ننطلق من دونك .. ولا نقدر أن نترك خلفنا .. ونخشى إن انتظرناك أن تضيع فرصتنا .
- فلنقيدها ونكمم فاهها وننجز مهمتنا ثم نأخذها معنا .
- إن خلص إليها أحد وأفلتت هلكنا .
- ومن سيخلص إليها في هذا المنقطع من الحياة ؟
- وما يدريك ربما ساق لها حظها حاطباً أو صيادا .. وعندها نهلك بسبب تهورك .

- وماذا نفعل فيها ؟ أنناخذها معنا ونحن بصدد قتال ؟

- فلنقتلها ونصرف .

كانت الفتاة قد أنهكها الخوف وهي ترقب أن خياراتها بانت بين القتل والاغتصاب انهارت باكية متوسلة .. فما سُمعت توسلاتها؛ إذ كان القضاة يتداولون على مسمع منها وكلماتهم لا تحمل لها إلا كل شر .. كانت شاحبة

اللون منقبضة الوجه ترتعد شفتاها الرفعتان وتجري دموعها دون توقف ...
وفجأة .. تبدلت حالها على نحو غريب فبدت آمنة مطمئنة وكأنها لا تخشى أي
شيء، ذلك أنها حين حاصرها القنوط من استدرار رحمتهم، أمسكت عن
التوسل إليهم وصرفت همتها إلى الدعاء .. وبعد لحظات من الرعب و توقع
المصير المشؤم نزل عليها صبر عجيب وسكينة أعجب وفتحت لها أبواب من
الأمل كانت قد ذهلت عنها منذ بدء الضائقة؛ لقد وكلت أمرها إلى خالقها
فشعرت باطمئنان لم تعهده وهي حرة آمنة، وأحست برجاء قوي في النجاة
حين أيقنت بأنها باتت في معية الجبار .

وجاءت أولى بشارات الأمل لذلك القلب المؤمن بأن انتهت محاورتهم
بالانفاق على تقييد الفتاة ثم العودة إليها بعد الفراغ من مهمتهم فكان ذلك
بمثابة هدنة قصيرة أو تأجيل لقرار الموت استقبلته برضا ورجاء؛ لعل الله
يحدث بعد ذلك أمرا ..

ركب القرامطة أفراسهم بعد أن شدوا وثاق الفتاة إلى جزع شجرة وكمموا
فمها، ذهبوا مقتنعين بأن عين الله تكلؤهم ويحف بهم رضوانه؛ إذ إنهم يؤدون
مهمة بعثهم فيها إمامهم المعصوم .. لحظات وكانوا قد اقتربوا من مكان
الأمراء .. فنزلوا عن خيولهم وتسللوا حتى أصبح الصبية أمام أبصارهم
فتواروا ليقربوا من الحراس غفلة يقتلون فيها أخا الخليفة أولا ثم أبناء أعمامه
إن استطاعوا ذلك .. في تلك اللحظة انفتل جعفر من جماعته حين سمع خريز
ماء لجدول يمر بالقرب من موضعهم فأراد برغبة طفولية أن يراه وذهب

خلفه حارسه مؤنس مرغما؛ فلا بد أن ينصاع الحارس لرغبة الأمير مهما كانت..

وجد القرامطة أن تلك فرصة ذهبية وزاد إيمانهم بأن الله ييسر لهم الأمور .. فبعد أن كانوا سيواجهون ثلاثة انحصر الأمر في جندي وحيد وهم ستة جنود .. تسللوا حتى أصبحوا على قرب من الأمير وحارسه الذي يقف عند رأسه ويحاول إقناعه بأن العودة أسلم حتى يطمئن على الأمراء الآخرين، كان يقول ذلك لأنه يعلم أنه ليس من الممكن إقناع الأمير بأن ثمة خطرا عليه فليس أمامه إلا محاولة إقناعه بأنه يجب أن يمضي إلى الجماعة ليكون هو حاميتهم ومنقذهم من الأخطار .. ولكن محاولة الإقناع تلك كانت فاشلة أيضا فقد صمم الأمير على الجلوس قليلا بجوار الجدول .

كانت خطتهم تدل على براعة وحنكة، فقد قسموا أنفسهم فريقين، ثلاثة رجال مهمتهم مهاجمة حارس جعفر وقتله ثم قتل الصغير وستكون مهمة يسيرة على ثلاثة أن يتغلبوا على حارس واحد ومعهم عنصر المفاجأة، والفريق الآخر يكمن للجنديين الآخرين ليقطع عليهما الطريق إن سمعا صليل السيوف فأرادا إنقاذ صاحبيها .

تقدم الفريق الأول إلى حيث يجلس مؤنس .. كان تقدمهم في ببطء وحذر يتوارون خلف الأشجار وأجم الحشائش يريدون بذلك ألا ينتبه الحارس إلا والسيوف فوق رأسه .. لكن مؤنسا كان رجلا داهية حذرا شديد الانتباه، وكأنه كان مدربا على تشتم الأخطار والإحساس بها قبل أن تقع .. سمع

صوت تحركهم فوق الأوراق اليابسة وهو جالس .. فوقف وهو يتصنع الغفلة ومشى ببطء في اتجاه الأمير ليقوم بأمر حمايته من المهاجمين الذين قدر أنهم على بعد خطوات قليلة منه .. سار وقد أمسك بمقبض سيفه في قوة واستعداد .. انتبه كبيرهم إلى تحركه وأدرك أن مؤنسا قد كشف تقدمهم فبادر بالاندفاع إليه شاهرا سيفه ومن خلفه كان الاثنان .. سبق الرجل زميله متجها إلى مؤنس بضربة سيف قاتلة في اللحظة نفسها استطاع مؤنس أن يستل سيفه في مهارة وسرعة وينخفض برأسه متفاديا ضربة القرمطي وفي نفس اللحظة سدد لذلك القرمطي ضربة سيف أصابت مقتلته في الحال .. وانتصب قائما ليستعد لمواجهة الرجلين الآخرين .

توقف الرجلان وقد أذهلتهم المفاجأة وأعمى أعينهم الغضب لمقتل صديقهم، وقفنا على بعد خطوتين ليبدأ مناظرة ذلك الجندي وما يشكان في أن موت صاحبهما ما كان إلا ضربة حظ وفق فيها ذلك الجندي الوحيد .. اندفعا في وقت واحد وضربا مؤنسا ضربتين متواليتين انحنى ليتفادى إحداهما ودفع الضربة الأخرى بسيفه ثم أتم وقوفه رافعا سيفه في تحد زاد من حثتها وأعمى تفكيرهما .. كررا المحاولة ففعل مثلما فعل في المرة الأولى، ولكنه تمكن في تلك المرة من أن يلتقط سيف القرمطي القاتل .

في المرة الثالثة توالى الضربات سريعة، ولكن مؤنس أظهر بسالة وبراعة في تلقي الضربات وتفاديا في خفة وسرعة فائقين مستخدما سيفه .. كانت ضربات السيوف وصيحات الرجال قد وصلت مسامع الجنديين الآخرين

فأخفيا الأمرين العباسيين خلف أجمة كثيفة وأوصياهما بالصمت ثم اندفعا نحو مؤنس دون بصر بالكمين الذي أعد لهما .

مر أولهما من بين القرامطة الذين كانوا قد تواروا خلف مجموعة من الحشائش الكثيفة دون أن يدري بهم وفجأة جاءت ضربة من أحدهم في عرقوبه أسقطته دون حراك وانتظر طعنة أخرى تنفذ من ضلوعه وهو راقد على الأرض .. عندما رأى زميله ذلك المشهد توقف ممسكا بسيفه يتردد بين إقدام وإحجام .

في حين كان الرجلان يهجمان بضراوة على مؤنس استطاع في براعة أن يوجه ضربة قاتلة إلى أحدهم فيخر صريعا ويقف في مواجهة الآخر .. عندها جاء صوت الجندي المتردد وهو ينادي بأعلى صوته : أيها القائد مؤنس أدركني .. فجاء رد مؤنس من الطرف الآخر : اثبت أيها المحارب فإني قادم إليك ...

لما فطن إلى وجود آخرين أراد أن ينتهي من خصمه ليفرغ لمواجهات أخرى قد تطول .. هجم في شراسة وسرعة على ذلك الجندي الذي فكر في أن يتلقى الضربات ويشغل خصمه لحين مجيء مدد من أصحابه .. كان يفكر بطريقة دفاعية تسببت في مصرعه هو الآخر بسيف مؤنس الذي لا يعرف الخطأ ولا يصيب إلا المقتل .

وقف الأمير الصغير يشاهد القتال وهو لا يشعر بأي خوف ولا يبحث عن طريقة للاختباء بل كان منتشيا سعيدا؛ لأنه يشهد معركة حقيقية من تلك المعارك التي حكيت له، إنه قتال حقيقي .. وسيوف تتطاحن وقتلى يخرون

أمامه وتسيل منهم الدماء .. أخذ يتابع بحماس وهو لا يشعر بأي قلق ومعه ذلك الحارس المهيب .

بعد أن انتهى من ثلاثتهم نادى على زميله، إني قادم أيها المحارب وتوجه بسرعة إلى الأمير يطلب منه الابتعاد عن مجال الموت .. فهز الأمير رأسه موافقا لكنه لم يتحرك .. حين سمع الآخرون نداء تركوا الجندي الآخر وأسرعوا هم إليه شاهرين سيوفهم .. فقد أيقنوا أن زملاءهم قد قتلوا مادام ذلك الرجل باقيا يصرخ بذلك الصوت الجهوري .. كان بهم بعض التردد والحشية من أن يلقوا نفس المصير خاصة وقد باتوا يعلمون أن النحس ساقهم ليوажهوا خصما لقاؤه محفوف بالأخطار ..

زاد فزعهم حين رأوا زملاءهم صرعى، فاندفعوا بين غضب وخوف ووقف مؤنس يتفادى ضربات في خفة ورشاقة ويتلقى مثلها في ثبات ..

والأمير قد فتح فمه واتسعت حدقاته وهو يرقب المعركة تشتد والتحدي يتزايد .. ومؤنس ثابت في الدفاع عن نفسه وعن الأمير، لا يستطيعون وهم ثلاثة أن يوجهوا له ضربة إلا تفادها بوسيلة ما .. وأقبل الجندي العباسي الآخر فخفف من الضغط على مؤنس حين التفت إليه واحد من القرامطة ليبدأ في المنازلة .. استغل مؤنس الفرصة فوجه طعنة إلى أحد خصميه الباقين أوقعته على الأرض قتيلًا .. ووقف ليوواجه القرمطي الأخير وهو يرمي بالسيف من يد إلى أخرى في زهو وقد أحس بريح النصر تقترب وأحس ذلك القرمطي بأن نهايته أقرب من شهيقه أو زفيره إن ظل واقفا أمام حاصد

الأرواح الذي يواجهه .. تراجع القرمطي وهو يستعد للهرب لينجو بنفسه ..
في حين كان زميله يتصاول مع الجندي العباسي ولما أبصر صاحبه بهم بالهرب
فعل مثله وانطلقا لينجوا بحياتيهما إلى حيث الجياد ليخرجا من تلك الغابة
المشئومة ..

أراد الجندي أن يطاردهما .. لكن مؤنسا أمره بالتوقف عن؛ ذلك لأنه لا يعلم
ماذا سيكون وراءهما، مشيرا إلى أن القرار الصائب هو الخروج الآن من تلك
الغابة سريعا حرصا على حياة الأمراء، فامثل الجندي مسلما بصحة رأي قائده
وذهب ليسند زميله المصاب الذي يسيل دمه، تساندا وسارا ببطء وهما ينظران
إلى مؤنس نظرات امتزج فيها الإعجاب بالشكر بالندم على ما قارفاه من
تعامل ما كان يليق مثله بهذا الأسد الهصور .

حين التقى جعفر بابني عمومته اللذين يكبرانه أخذ يحكي لهما في حماسة عما
فاتهما من أحداث القتال، كان يشعر بكثير من الزهو لأنهما لم يشهدا ما شهدته،
لقد كان عرضا رائعا للشجاعة ومهارة استخدام السيف .. أخذ يعيد ما رأى
على أسماعهما مرات عديدة دون ملل معرضا بجبنهما الشديد الذي دعاهما إلى
الاختباء في فرق بينما تدور على بعد خطوات منهم معركة هائلة، وهما يقرعان
السن على فوات تلك المعركة التي كانت قريبة منهما ولكنهما لم يشهداها .

ولما وصل الصبية سالمين إلى قصر الخليفة أبلغ الخليفة بما حدث من اعتداء
مجهولين على أخيه الأصغر وابني عمه فانزعج لذلك انزعاجا شديدا وهول

مع مدبر قصره وأمين سره صافي الحرمي إلى حيث يوجد أخوه؛ ليطمئن قلبه على سلامة الجميع ويسمع منهم خبر الحادث ..

مرت ساعة يسيرة استمع الخليفة فيها إلى الحكاية المشوقة من الأمير جعفر الذي استخدم فيها كل عبارات الانبهار والدهشة من شجاعة مؤنس ومهارته، فأحب الخليفة أن يرى مؤنسا نفسه ليقص عليه القصص .

وكان المكتفي- ويكنى أبا محمد- رجلا ربعة جميلا، أبيض اللون، حسن الشعر، وافر اللحية، وأمه أم ولد تركية يقال إنه ورث منها حدة الطباع وتقلب المزاج، فلما مثل مؤنس بين يديه سأله، وكان ذا هيبة :

- ما اسمك أيها الرجل ؟
- مؤنس الخادم يا مولاي .
- ومن أطلق عليك اسم الخادم ؟
- مولاي الخليفة المعتضد رحمه الله وأطال الله بقاءك يا مولاي .
- ولم أسماك بذلك الاسم دون سائر الخدم ؟
- كنا جماعة من الكتاب والجنود دخلنا عليه حين بدا له أن يغير من حاشيته وبطانته لأمر ساءه ممن سبقونا، وكان فينا رجل آخر يسمى مؤنسا أيضا، فألحقني بالخدمة في القصر وألحقه بالعمل في الخزانة وأسماي مؤنسا الخادم وأسماه مؤنسا الخازن ليسهل للناس التفريق بيننا .
- ولكني لم أرك في القصر من قبل ؟
- لم ألبث في القصر طويلا يا مولاي، إذ طلبت أن أعود إلى الجيش .

- إنك امرؤ غريب حقا، فمن يترك نعيم البلاط وطيب العيش فيه من أجل حياة ملؤها شقاء وخطر ؟

- أراني رجلا لم يخلق إلا للشقاء الحرب وغبار المعامع يا مولاي مال المكتفي بظهره على عرشه، ثم قال في إعجاب :

- هذا واضح، إن جعفر ايكاد ينشد فيك شعرا .

- أصلح الله الخليفة، لعل الأمير يبالغ قليلا إذ شهد مخاطر لم يعتد أن يراها .

- يقول إنك أبليت بلاء حسنا في صد المهاجمين وقتلت أربعة فرسان منهم .

- يا مولاي ذلك عملي، أنا خادم الخلافة ولا أطمع إلا في رضاكم

- أحسنت قولاً وأحسنت عملاً، ولك عندي خير الجزاء حين تعود من مهمة أخرى سأוכלها إليك .

- خير الجزاء هو رضاكم يا مولاي، فمرني بما تشاء .

عندما عاد الحالم إلى شقته فاجأه اتصال غريب .. إنه ابن عمه صبري، ووجه الغرابة أن صبري لم يعد محادثته؛ فالعلاقة بينهما ليست جيدة أو قل إن بينهما ما يشبه الحرب الباردة .. والأغرب توقيت الاتصال المتأخر .. ظن أول الأمر أن مكروها قد حدث .. ولكن المكالمات مضت بشكل عادي؛ إذ شملت تحيات مكررة وأسئلة معتادة .. ولكن حين سأله عن جدته فهم منه أنها مريضة بعض الشيء .

جال في خاطره أن مرضها شديد وأن صبري لم يرد إقلاقه بحقيقة وضعها الصحي فأفزعته ذلك الخاطر ... فأخبر ابن عمه بأن سيعود على الفور إلى بلدته .. فليس لديه في الدنيا أغلى من جدته .

تحرك في عجل ليدرك وقته؛ لأنه يعلم أنه كلما تأخر الوقت زادت صعوبة الوصول إلى قريته النائية التابعة لمركز حوش عيسى .. أعد حقيبته ونزل مسرعا، أشار إلى تاكسي ليذهب به مباشرة إلى موقف السيارات .. كان الطريق في شارع أبي قير مفتوحا أمام التاكسي مما يتيح للسائق الإسراع به إن أراد ذلك، لكن السائق العجوز بدا شديد التمهّل ميالا إلى الثرثرة كحال قطاع كبير من سائقي التاكسيات، انصب حديثه على الاحتجاجات بوصفها حديث الساعة، فأخذ يحكي ما شهده من أحداثها بحكم تطوافه طوال اليوم في أنحاء المدينة .. شكا من سوء الحال والعجز عن الوفاء بأقل أعباء الحياة ..

ولعن الحياة .. تحدث عن زوجته المتطلبة .. ولعن حظه .. تحدث عن ابنته المريضة .. ولعن مستشفيات الدولة، وعن ابنه العاقل .. ولعن الحكومة، وتحدث عن مشكلاته مع رجال المرور الذين لا يشبعون من الرشاوى .. وناهم من اللعن قدرا، أما القسط الأوفر من لعناته وشتائمته فالغريب أنها كان من نصيب الثوار .. المخربين .. الخونة .. العملاء .. المأجورين، وكأي عارف بصير شديد الثقة يستقي معلوماته التلفزيون الرسمي وشبه الرسمي أبدى تخوفه من خطورة ما يحدث ومن عاقبة ذلك على البلاد .. ارتسمت ابتسامة كلها ألم على شفاه مؤنس الساكت المستسلم وهو ينظر إلى ذلك العجوز الهالك ويتأمل حديثه .. لكنه لم يجاره ولم يناقشه على أمل أن ييأس من محاورته ويلتفت إلى الطريق ويسرع به .

في أثناء ذلك الحديث نظر مؤنس في مرآة اليمين فلمح سيارة جيب سوداء تسير خلفهم وتنعطف وراءهم كأنها تلاحقهم، والغريب أن الفرصة كانت مفتوحة أمامها لتجاوز التاكسي البطيء ولكنها لم تفعل .. يبدو أنها تتجه نفس وجهتهم .. كان الأمر ليبدو عاديا لولا أنه تذكر في تلك اللحظة أن تلك السيارة رآها منذ قليل واقفة على ناصية الشارع الذي يقع فيه مسكنه .. حاول أن يتبين وجه من يقودها لكنه لم يستطع، بدا له الأمر مربيا لكنه لم يضع فيه وقتا كبيرا للتفكير، ومال إلى الاعتقاد بأنها مصادفة .

في موقف سيارات الإسكندرية الجديد لم يجد سيارات أجرة لحوش عيسى في ذلك الوقت المتأخر .. وبعد لحظات من انتظاره اقترب منه شخص في عقده

الخامس تقريبا يرتدي ثيابا رسمية فاخرة وتبدو عليه أمارات اليسار .. سأل الرجل مؤنسا عن وجهته فأجاب بأنه مسافر إلى حوش عيسى .. فقال له الرجل إنه متجه إليه أيضا ومن الأفضل لهما أن يبحثا عن سيارات دمنهور؛ ومنها إلى الحوش فلا أمل الآن في وجود سيارات متجهة إلى الحوش مباشرة ... فبدلا له الرأي وجيها وسار معه .

وفي سيارة دمنهور تعارفا وتبادلا أرقام الهواتف، لقد كانت محادثة شائقة لم يعكر صفوها إلا صوت الشخير المزعج المنبعث من المقعد الخلفي، والبرد الشديد بسبب زجاج النافذة المكسور .

لقد تعجب حقا حين علم أن د : هادي البربري .. ذلك الشخص المسافر إلى الحوش أيضا بلا حقيبة ولا سيارة خبير آثار مرموق وأنه - بحسب زعمه - أستاذ في التاريخ الفرعوني ويعمل في جامعة الإسكندرية وقد عاد حديثا من فرنسا .. وفي بعض الحديث ذكر الدكتور هادي أنه يمكنه أن يوفر له فرصة عمل في الخارج إن أراد السفر لأنه - بحسب تعبيره - ذو علاقات وثيقة بالمستولين في بعض جامعات الخليج .

حين وصلا إلى حوش عيسى كان الطقس مختلفا عما تركه في الإسكندرية وهو أمر مألوف لبعد تلك المدينة عن تأثيرات البحر وعواصفه وأمطاره .

افترقا بعد أن وجد أخاه الأصغر همام في انتظاره بتوك توك، فهو الوسيلة الوحيدة للعودة في هذا الوقت إلى قريته العتيقة قرية كفر الأكناز .. يقال إنها سميت بذلك الاسم بسبب كثرة كنوزها التي استخرجها الإنجليز ورجال

الآثار أيام الاحتلال، وفي الطريق عرف من همام أن الجدة بأحسن حال ولا تشكو من أي شيء .. فزاد عجبه من أمر صبري وتلك المكاملة الغربية، وعجبه من نفسه إذ ظن أن صبري خشي عليه من القلق وهو القريب اللدود .. وحين عاد وجد الجميع نائمين إلا أمه التي ارتمت في أحضانها وقبل يدها .. ثم أوى إلى فراشه .

كانت عالية هي أمه الأولى أو أمه الحقيقية؛ فقد حظي مؤنس بوالدتين أمه عالية وجدته صالحة .. كانت عالية أما دون ضجيج، وهو أمر ليس معتادا في كثير من النساء؛ لقد أحبت بصمت وتعذبت بصمت وأنكرت ذاتها بصمت .. لم تنم ليلتها لأنه تنتظر مجيئه كل خميس ورغم تأخره وضعف احتمال عودته، لكن هكذا هي الأم .

أما الأم الأخرى فهي جدته أو (حنّه) الحاجة صالحة بحسب طريقتهم في الكلام فقد جرت العادة في العائلة أن يسموا الجدة (حنّ) وينادونها (حنّي) وربما كان الاسم مأخوذا من الحنان .

كانت الجدة نمطا فريدا من النساء، إنها لا تشبه أحدا .. وجهها كمخطوط عتيق وكفها كبردية نادرة، نالت السنون من كل شيء فيها إلا لمعان عينيها وقوة ذاكرتها .. إن أخذت في الحديث ينساب لسانها بالحكمة ويبسط صوتها لك بساطا من الطمأنينة .. حديثها ممتع ودعواتها تريخ المكدود .. لها معرفة نادرة بتاريخ البلدة وأنساب العائلات، ولها عبارات تفاجئك معانيها كما

يفاجئك نظمها، إنها مدرسة حقيقية وقائدة حقيقية تجبر الجميع على احترامها وتقبل قيادتها .

لم ينم مؤنس تلك الليلة مباشرة بل أعاد شريط ذلك اليوم العجيب الذي امتلأ بالمفاجآت، وتعجب من أنه حين استيقظ صباحا لم يكن يقدر أن يلقي كل هذه الأحداث في يوم واحد .. فيا له من يوم ...يكفي أنه التقى بفتاة خياله ووجد أنثاه المنشودة .. استرجع صورتها التي انطبعت في ذاكرته ثم أغمض عليها عينيه وراح في نوم قلق .

استيقظ صباح الجمعة (٢٨ يناير) نشيطا بحسب عادته فأخذ حماما دافئا وصلى الصبح، ثم اتجه إلى حجرة جدته فوجدها تنفل بحسب عاداتها أيضا ...انتظر خروجها من الصلاة ثم ارتمى في أحضانها ..لقد كانت أغلى مخلوق عنده، وكان هو أحب من كل أبنائها .. أحبته ربا لذكائه وتفوقه وربما لموت أبيه وربما لأنه في الحقيقة أشبه الناس بزوجه الراحل العمدة وفقى العبايدي وربما لكل ذلك .. كانت الأم الروحية لأجمل قصص الحب على الإطلاق، لقد تولت تربيته بعد موت أبيه وأغدقت عليها من الحنان و الخيرات ما جعله موضع الحسد من أبناء عمومته لاسيما صبري، حادثها قليلا واطمأن عليها ثم أفطر مع أختيه شيما و فاطمة وأخيه همام، وخرج إلى فناء المنزل منتظرا أن تأتيه فاطمة بالشاي، وأخذ في تلك الأثناء يتأمل البيت ويستعيد مع جدرانها بعض الذكريات .

كان البيت قديما ولكنه يتميز بفخامة وصلابة، شيده جد أبيه العمدة عزيز بك العبايدي، الذي حصل على لقب البكوية في أيام الملك .. وورث العمودية وأورثها لابنه وفقى آخر عمدة من العائلة الكبيرة؛ فالعمودية ظلت في العبايدة كابرا عن كابر حتى رأت الحكومة إلغاء ذلك المنصب في قريتهم .

وكالعادة الشهيرة في بيوت أهل الريف رسمت على الجدران الخارجية الأمامية للبيت سفن وطائرات وبجوارهما الكعبة المشرفة، وكتب الكثير من عبارات الذكر والدعاء بقبول الحج والعودة السالمة، وكانت هذه الزينة التي تسجل ذكرى ذهاب العمدة وفقى إلى أرض الحجاز قائمة منذ طفولتهم وقد أصابها الزمن بما يصيب كل شيء فبدأت تلك الكتابات والرسوم تبهت ثم تساقط بعضها بفعل الرطوبة، وما بقي منها صار كأنه الأطلال والرسوم الدارسة .. أما الجزء الخلفي فقد كان موضعا لحظائر المواشي التي بناها العمدة وفقى وكانت من قبل مرقدًا للجمال وجرنًا للقمح .

وللبيت باب ضخّم من الخشب (يفوَّت جمل) حقيقة لا مجازًا، فكم شهده في أيام جده يفتح على مصراعيه؛ ليدخل منه الجمل محملاً بحمل الذرة ليفرغ حمولته في الفناء ليتولى العمال نقله بعد ذلك .

نظر في أسى إلى ذلك الفناء الواسع الذي كان فيما قبل حديقة مليئة بأصناف الأشجار: رمان وجوافة وبرتقال وتوت، وتذكر شجرة المشمش العتيقة التي لم تترك الأيام منها إلا جذرا وبعض ساق أصبحت اليوم مستعمرة للنمل، وبحسب الرواية الرسمية التي ترددها الأسرة فقد ماتت الأشجار حزنا على

جده الراحل الذي زرعها وكان يتعهدا .. لم يبق من آثار الماضي في الحديقة إلا أحواض تزرع فيها أمه الآن النعناع وبعض الجرجير والفجل ..
لقد أصبح سور البيت الذي كان يراه شاهقا في صغره قصيرا؛ ربما لأن مؤنسا الصغير أصبح الآن ذا قامة فارعة فتضاءلت في عينيه الأشياء، وربما بسبب تنابع نقل الردم إلى الشارع حتى صار المارون في الشارع يرون بعض البيت من الداخل .

لكن البيت العتيق ما زال يحتفظ بأجل ما فيه .. بضع درجات يرقى بهن الداخل إلى باب البيت، وعلى اليمين من هذا السلم الصغير أروع مكان في البيت، إنه ذلك المكان الذي يتعلق به ولا ينساه، شرفة واسعة تطل على الفناء كانت مجلس جده وفقى فيما مضى، إنه الجد الذي ما زال - رغم مرور السنوات الطوال على وفاته - يسكن ذاكرته كشخص خارق مهيمن .
في هذا المكان وضعت كنبه عريضة بسط فوق حشيتها القطنية فرو خروف، لايزال مؤنس يذكر الجد جالسا على الفرو ممسكا بذيل عنزة قد اتخذها مذبة لإبعاد الذباب، وبين الفينة والأخرى يلف سجائره في ورق البفرة .

يذكر كم كان ذلك الرجل شديد الصرامة مع كل من يخالفه حتى بات مهيبا يخشاه الجميع ويرهبون غضبته، ويذكر في الوقت نفسه كم كان حنونا مع أحفاده من أبنائه التسعة، فكم أحاط به أولئك الصبية وهم كثر .. يطعمهم بيده ويتقافزون على كتفيه ويحكى لهم في ليالي الشتاء الطويلة وهم جالسون حول مواقد التدفئة تاريخ عائلته بكل فخر ليلقي في روعهم ما يريد إرساءه

من سمات الرجولة والبأس، وكان مؤنس أكثرهم إلحاحا في سماع تلك القصص يطلبها مرارا دون أن يمل تكرارها حتى حفظها، فكان يستمع إليها من فم جده بكل حواسه وإن نسي الجدة جملة أو غيّر في النص شيئا يذكره الصبي بها ليعيدها الجدة كما ذكرها الصبي .

ما زال يتردد في أذنيه صوته الرخيم وضحكته الهادئة وهو يستمع بصبر إلى طلبات الصبية من حوله :

- (يا سيدي وفقّي احكي لنا عركة الرواية)

- (لا أنا عاوز عركة عيت وافي) يقصدون عائلة وافي

- (عركة عيت وافي حكاها امبارح، خلوه يحكي لنا يوم الصعايدة)

ويطول لغط الصبية واختلافهم والجدة مستمتعة حتى يقطع ذلك الحجاج الطفولي بسؤال يوجهه إلى مؤنس : (قول انت يا مؤنس عاوز حكاية ايه؟) فينطق على الفور : (حكاية زفة حني صالحه)، ومن ثم يبدأ الجدة بسرد الرواية التي يفضلها هو أيضا، ولعل ذلك هو دافعه لسؤال مؤنس تحديدا ..

كانت عائلة الجدة صالحه تقطن في عزبة كفر قاسم حيث موطن العشايبة وهم قوم من العرب قبيلتهم عدد الحصى شأنهم في ذلك أن العبايدة، وكانوا في تلك الأيام أعدى أعداء العبايدة؛ فبين العائلتين تاريخ مؤلم من تنافس تجاري أخلف معارك كانت تتكرر أسبوعيا في سوق المواشي الذي يقام في الحوش كل خميس، وتسعى العائلتان كلتاهما إلى فرض السيطرة على السوق، وكان جده وفقّي حينها هو صاحب الحضور الطاغي في كل المعارك، ولم لا

وهو أوفرهم قوة وأصحبهم شبابا وأمهرهم في التحطيب؛ فكان من الطبيعي أن يكون صاحب النصيب الأوفر من الجرأة في تلك اللقاءات التي أوقع فيها بكثير من رجال العشائية، وله في ذلك سيرة عظيمة، وبالطبع تنطوي تلك السيرة على بعض المبالغات لكنها تثير خيال أولئك الصبية وتملك عليهم نفوسهم، المهم أن العشائية كانوا في هذه الأثناء يكرهون رؤيته، ويكونون له حقدا خاصا فوق ما يحملون لباقي العبايدة .

لقد أقدم على خطبة صالحة من أبيها الحاج سعد القادوسي تاجر الحبوب المعروف رغم علمه بما سوف تجره تلك الخطبة من مخاطر، ثم شاع خبر الخطبة في كفر قاسم فاشتد غيظ العشائية وحنقهم على ذلك المتجرى العنيد الذي بلغ من الغرور مبلغا يجعله يخطب فتاة من بلدتهم، .. وجدوها فرصة للانتقام منه وهم في موضع القوة والتمكن، فأقسموا على ألا يدخل طبل العبايدة ولا موكبهم إلى قريتهم وتوعدوا بقتل من يدخل القرية من العبايدة .. وبعد محاولات كثيرة قام به المصلحون بين العائلتين فُرض على العبايدة أن ينتظروا خارج كفر قاسم وأن تحمل لهم العروس خارج البلدة وأن يدخل وفقى العبايدة وحده دون أحد من أهله لكتب الكتاب .. رفض العبايدة هذا الشرط المذل، وحاولوا حمل وفقى على ترك تلك الزيجة إلا أنه صمم على إمضائها وقبل بالشرط وتحمل النتائج أمام رجال عائلته الغاضبين، ومضت الأمور في اتجاه قبول العشائية بهذا الشرط المجحف في ظل عدم قدرتهم على فعل شيء، وأشيع الأمر في كفر الأكناز وفي القرى المجاورة وأصبح الأمر بمثابة إذلال

للعبايدة وإرغام لأنوفهم أمام غيرهم من العائلات التي كانت تنظر إليهم بكثير من الحقد أيضا وانتظر الجميع يوم الفرح .. كانت أياما سوداء عصيبة على كل أفراد عائلة كانوا حتى الساعة يشمخون بأنوفهم على سائر أهل قريتهم .

في يوم الفرح ذهب وفقى إلى كفر قاسم وحده بحسب الاتفاق .. دخل القرية على حين نحد من أهلها وما كان خائفا يترقب بل مر من أمام منازلهم رابط الجأش لا يلتفت، ولا يأبه بنظرات تكاد تلتهمه التهاما .. كُتب الكتاب وزغردت أم العروس زغرودة يتيمة نالت بعدها زجرا بعين محمّرة من زوجها الخائف مما سيأتي، وحملت العروس في صمت حزين إلى المحني المزين بجريد النخيل وبعض الورد المقطوف من شجر الشوك .

لا شك أن حالة الترقب والقلق الذي سيطر على ذلك اليوم لم تترك لها فرصة لتحزن على هذا العرس الساكت المضروب عليه بالذلة والصغار .. كانت في تلك اللحظات القلقة تتضرع إلى الله تضرع المضطر وتسأله السلامة والنجاة في ذلك اليوم المكفهر، وتصيح السمع لكل حركة وكل صوت خارج المحني المغطى بقماس حريري يحجب رؤية واضحة في ما وراءه ..

بحذر شديد أمسك وفقى بخطام الجمل وسار وئيدا ينظر في صبر إلى عيون العشاية التي ترمقه في تشف وسخرية ويسمع في تجلد لكلماتهم الساخرة، وفجأة انقلبت الأمور انقلابا عجيبا، وإن من ظل حيا ممن شهد تلك اللحظة

لن ينسى أبدا ما حدث في ذلك اليوم البعيد، وما زال رجال العبايدة ونساؤهم يتبححون في كل ناد بما فعله العمدة وفقى يومها ..

سمع دوي طبل ومزمار وشوهدت أعلام وشمعدانات ضخمة على طريق العزبة، وخرج نساء كفر قاسم وفتياتها يتساءلن في إعجاب : لمن هذا الطبل الجميل؟ وأخذ الطبل يقترب ويصاحبه مزمار راقص يحرك الأفئدة بتؤدة فتتأيل له الأجساد بعنف ولا يعرف أهل الكفر إلا أنه مجرد طبل مار بالبلد لا يعرف لمن هو .. وفجأة يخرج من حقول الذرة أكثر من مائة رجل غريب يلبسون ملابس العربان وبأيديهم البنادق .. بدءوا في إطلاق الأعيرة في الهواء وأخذوا يتراقصون بتهاء شديد على نغم المزمار البلدي الذي كان قد اقترب من الوصول ... ثم يقترب أحدهم بحصان ذي زينة جميلة ويقف به أمام وفقى الذي يترك خطام الجمل لأحد هؤلاء النفر ويقفز على صهوة الفرس ممسكا ببندقية خرطوش بروحين ويبدأ بدوره في إطلاق الأعيرة وسط دهشة الجميع .

سقط في أيدي العشائية ولم يستطيعوا لذلك الأمر دفعا، وكيف سيفعلون؟ وما لهم بهؤلاء طاقة ولا استعداد؛ لذا فقد آثروا الصمت حفاظا على حيوات أبنائهم في وجود ذلك العدد الضخم من المسلحين وتولى عقلاؤهم كبج جراح بعض شبابهم المتهورين وهم يعضون على شكائهم ..

أما هؤلاء الغرباء فكان وفقى العبايدي قد جلبهم من رجال قبيلته الذين يسكنون بالقرب من مدينة العامرية، ذهب إليهم قبل العرس وقص عليهم

القصص واستنفرهم فأجابوه إلى ما يريد بدافع العصبية، ومن ثم اتفق معهم على هذه الخطة المحكمة .. قدموا إلى مكان خال بالقرب من كفر قاسم على مصرف الرشيدى وأقاموا فيه خيامهم ومكثوا هناك أياما ومعهم قطع ضخم من الأغنام يملكه وفقى العبايدى .. ويزعمون لمن يسأل عن أمرهم أنهم رعيان، ولما اقتربت الساعة المنتظرة تسللوا إلى داخل أقرب الحقول للبلدة وكمنوا قريبا من موضع مرور المحنى، ثم خرجوا في اللحظة المناسبة .. وهكذا خرج الطبل محفوف بالرايات وسعف النخيل وكان النصر العبايدى الذى مازالوا يرددون أهازيجه حتى اليوم .. والعشائية يتحسرون ويتلاومون ويتدافعون ولا يجراء على ارتكاب حماقة علموا أنها ستكلفهم كثيرا ..

كان الجد يصف مشاهد ذلك اليوم كل مرة بحماس غير اعتيادى ويصف معها خلجات نفسه بمتعة كبيرة ... وكم سأل مؤنس نفسه عن سر ذلك الرجل، أكون حقا بتلك الشجاعة ؟ أما كان قلبه ينتفض من الخوف فى تلك المواقف المرعبة ؟ كلما تكررت القصص تعزز لديه اليقين بشجاعته وبات أكثر تصديقا لحكاية يرددها أبناء العبايدة ويباهون الناس بها، إنها حكاية قتله الذئب والنهامه كبده التى يروونها بوصفها تفسيراً سهلاً لمن لا يتقبل السيرة الوفقية ويقف إزاء تلك السيرة وقوف المتردد أو المنكر ..

والأجل من ذلك أن مؤنسا مازال يذكر التماح عينيه مع كل ذكر للحاجة صالحة كما كان يخلو له أن يسميها .. ومازال يكرر على نفسه أنه لن يتزوج إلا امرأة كجدته لعله يشعر بنفس شعور جده، يريد حقا أن يعايش النسخة

القديمة من الحب .. ذلك الحب (المانيوال) المعجون بالمتعة البطيئة وربما الألم البطيء، أما هذا الحب الرقمي الآلي ففيه تبدأ سريعا وتصل سريعا فيفوتك الاستمتاع بمنعرجات العلاقة وسهد الطريق، هو اليوم أسهل مما مضى فبات أضعف مما مضى، وإذا كان شباب اليوم يعيشون قصصا كثيرة فمن المؤكد أنه ليس من بينها قصة حقيقية واحدة .

القصة نفسها كانت تروى من جهة الجدة بتفاصيل أخرى تضيف البعد الرومانسي وتصور ترقب فتاة جميلة تركب المحني لأول مرة وتصف إحساس الهلع مع قيام الجمل الذي يحملها، وتحكي عن نظراتها الخائفة من فرجة الستر إلى قائد الجمل الذي تزوجته للتو وهو مشغول عنها بما سيحدث، كانت في أفضل زينة للعروس في جلوتها .. صبغت شعرها وزخرفت يديها بالحناء وتقلدت أساور الذهب في يمينها ودملج الفضة في يسراها والخلخال في قدمها وتدلّى من أذنيها حلق ثقيل من الذهب الخالص .. ولكنها ذهلت عن ذلك كله والقلق والخوف يملكانها، ثم ملكها الفزع حين سمعت صوت البواريد ودوي الطلقات، ثم الفرحة العارمة مع وصول الركب بأمان إلى أرض كفر الأكناز ... إنها تفاصيل صغيرة ملئت شغفا، وترهق ذلك القلب الناشئ حينما يتعلق بقصة مثلها .

والآن خلا البيت من ساكنيه منذ وفاة الجد بعد أن كان يعج بالبنين والحفدة، لم يبق إلا هو وإخوته، لقد أصرت على ذلك جدته صالحة وكان هو أحرص منها على البقاء، فقد كان يحلم إن توفرت له الأموال بأن يعيد بناءه ليكون

أفضل مما كان قديماً، أما بقية الأعمام فقد انتقلوا بأولادهم ليتخذ كل منهم مكاناً في مدخل القرية ليشيدوا بيوتاً تسابقوا على جعلها أفخم بيوت في القرية .

حملت إليه أخته فاطمة كوباً من الشاي الثقيل ماركة أمه عالية ذلك الشاي الذي لا يجد مثل طعمه في أي مكان ..أخذ يرتشف الشاي باستمتاع بينما عاود التفكير في أمر صبري والسبب الحقيقي لمكالمته .. لقد كان مؤنس هو مشكلة صبري الكبرى ..فكم حاول أن يلحق به صبري في أي شيء فما أفلح حتى استحال الأمر إلى عقده يجتهد في إخفائها ولكن الجميع كانوا يرونها، وظل الأمر كذلك حتى كان ذلك اليوم الذي ظهرت فيه عداوة صبري وكيده على نحو سافر ..

-ج-

قال الخليفة المكتفي بنبرة صارمة :

- ستذهب في فرقة من الفرسان إلى الدغل الشرقي الذي جرت فيها تلکم

الأحداث، أريد أن أعرف من يسكنها ؟ ومن أولئك المتجربين على حانا ؟

- سمعا وطاعة يا مولاي .

تجهز مؤنس هذه المرة لمعركة أخرى لا يعلم كيف ستكون، فارتدى ملابس الميدان كاملة وجمع من رجال فرقته أفضل رجاله ومضى بهم .. انطلق مؤنس يتقدم عشرين رجلا لتنفيذ المهمة بتمشيط الغابة للبحث عن أولئك المهاجمين.

كان شديد الحماسة وقد أسكرته لذة الظفر وأسعده رضا الخليفة عنه وظل يفكر فيما يمكن أن تكون مكافأة الخليفة له .. لم يكن يعرف ماذا ينتظرهم من الأخطار في تلك الغابة؛ لذلك لزم الحذر الشديد في تحركه؛ ففرق الرجال وأوصى بأن يسيروا مثنى مثنى وأن يتنادوا إن وجد أحدهم شيئا .. كانوا يتحركون ببطء بداعي الحذر فمضت ساعات حتى وصلوا إلى المكان الذي كان القرامطة يكمنون فيه، فوجدوا كوخهم .. تنادوا وجاء مؤنس .. شهبوا سيوفهم ودخلوا الكوخ، فوجدوا ما تركه القرامطة الهاربين من متاع وبقية طعام، وعندها سمع أحد الجنود أنينا مكتوما .. التفت إلى مصدر الصوت القريب فإذا بفتاة مقيدة إلى شجرة تبتعد قليلا عن ذلك الكوخ .. استدعى

قائده فجاء على الفور إليها . وجعل يفك بيده وثاقها ويزيل كمامة الفم ..
والفتاة ترتعد.

- اطمئني يا أمة الله .. لا تراعي .. إلى ببعض الماء .

هتفت الفتاة بفرح وعيناها تذرفان الدمع :

- الحمد لله .. الحمد لله .. أأنتم جنود الخليفة ؟

- نعم .. لا بأس عليك يا أختاه .. اشربي أولاً، ثم أخبرينا : من أنت ؟

أخذت الفتاة جرعة من المياه، ثم قالت وهي ترتجف :

- أنا ابنة طاهر بن أبي زرعة العابد .. أقيم مع أبي عند طرف الغابة

- و من فعل بك هذا ؟

- إنهم الرجال الذين ذهبوا ليقتلوا أخا الخليفة .. فهل أدركتموهم أم

أصابوا مقصدهم ؟

- اطمئني، لقد أمكننا الله منهم بحوله وقوته، وما مسنا منهم سوء سوى

جندي مصاب .

- الحمد لله .. بالله عليك أيها القائد أتم علي معروفك واحملي إلى أبي، فلا بد

أنه الآن قد فزع لغيابي ..

- أفعل إن شاء الله، ولكن أخبريني أولاً : كم كان عددهم ؟

- كانوا ستة .. كادوا أن يفتكوا بي لولا رحمة الله .

- أتعرفين من هم ؟ ولم أرادوا قتل الأمير جعفر ؟

- من بعض حديثهم عرفت أنهم من القرامطة وأنهم أرسلوا من قبل أميرهم لقتل الخليفة .

عندها نادى مؤنس على رجل يقف بجانبه .. وقال : اجمع الرجال يا أبا سليمان .. فلم يكن في الغابة إلا ستة الرجال الذين واجهناهم ولا بد أن الاثنين اللذين أفلتا من المعركة قد أسرعا بالفرار .. وبعدها مضى الرجل لينفذ الأمر ثم قفل الجنود عائدين .

كفكت الفتاة دموعها وركبت على فرس لأحد الجنود وسارت بجوار مؤنس، كانت تود أن تطير بفرسها لتدرك أباه قبل أن يجن لفقدها لولا أنها لم تكن تحسن الإسراع بالفرس فسارت وئيدا وسار الراكب كله على خطوها الوئيد .

جعل مؤنس خلال السير يسترق إليها نظرات يتأمل في بديع خلق الله في تلك الحوراء ذات العيون التي تشبه عيون الغزلان ويحمل وجهها رقة كرقعة كنسيم الصبا يجعل منها بحق فتنة للناظرين .

حدث نفسه قائلا :

- يا الله، ما تلك الفتاة؟ لا شك عندي في سماويتها فمثلها ليس أرضيا على الإطلاق؛ فمن التي تحظى بذلك الحسن ولا تكون ملاكا؟

بعد نظرات قليلة ألفى الجميلة تبكي ثانية، كان حسننها باهرا وهي باكية فكيف بها ضاحكة .. سألها في اهتمام :

- ما يبكيك يا ... هلا قلت لي ما اسمك؟

- ورد، أيها القائد .
- لا تبكي يا ورد فقد زال الخطر .
- إنه دمع الفرحه أيها القائد .. فقد استجاب الله دعائي فنجوت من مهلكة محقة .
- لك أن تفرحي، فأنت الآن في أمان .
- أي أمان تقصد ؟
- أمان الخليفة وجنوده، ولا بأس عليك إن شاء الله .
- ومن ذا الذي يقبل من الأيام أمانا وموادة .
- تعجب مؤنس من ذلك الرد، فقال :
- ولم التخوف من الأيام وقد أضحيت آمنة منذ الساعة ؟
- وما الأمن يا عبد الله ؟
- الأمن أن تحاطي بسربك ويفرغ قلبك من انتظار الخطر
- وما الخطر ؟
- الخطر مهالك تحاوطنا ومعايير تترصدنا .
- اعلم يا عبد الله أنه من الأمن يؤتى الخطر ومن الخطر يؤتى الأمن
- كيف وهما ضدان ؟
- أتجد أحدا أكثر أمنا من أبناء الملوك وهم في حراسة الجند ؟
- كلا .

- فإلام تعرضوا في الأحراش؟ وهل ترى أيها القائد أنهم كانوا منيعين ضد
الخطر؟

- لا، والله لقد كانوا على شفير الهلاك لولا يد الله التي نصرت عبده
المسكين.

- وما قولك في فتاة تقع في يد ذئاب ستة، أليها برأيك أية فرصة للنجاة؟
- لا

- فهذا هو يا أخي أمان يتبدد عند أولاد الخليفة .. وخطر يزول عند فتاة
ضعيفة .. فهل ثم أمن إلا في الخطر؟

- أحسنت قولاً، ولكن أخبريني إذن، ما الأمان الحق وما الخطر الحق؟
- لا نطمئن لشيء سوى وعد الله .. ولا نخش شيئاً إلا وعيده، فوعده الأمان
ووعيده الخطر .

- الله الله .. ما أطيب كلماتك يا ورد، ممن تعلمت ذلك؟
- من أبي ...

- فهلا زدتنني .

- اعلم أيها القائد .. أنكم رسل من الله لإنقاذه .. وقد جاءني من الله
البشرى قبل مجيئكم .

- وكيف ذلك؟

- لكم توسلت إلى أولئك الذئاب وكم زرفت الدموع لاستعطافهم فما رق لهم قلب ولا طرف لهم جفن .. وظل قلبي مروعاً فزعا حتى لجأت إلى الله فجاءتني بشراه .

- وكيف تحيي تلك البشري ؟

- يطمئن القلب وتخضع الجوارح .. وتشعر أنك محوط بالملائكة .

- وكيف السبيل إلى مثل ذلك إن أحدثت الأخطار ؟

- إنه التوكل .. إنه اليقين .

- وذلك اليقين كيف نبلغه ؟

- تمتلئ العين بالأقذاء وتغشى القلب أستار وحجب حتى يأذن الله لك بأن تحبه .. فإن بلغت حال الحب زال القذى وانكشفت الحجب ورأيت بعين الله وسمعت بسمعه .. فذلك هو اليقين .

حتى اللحظة لم يكن مؤنس يدري أن هناك فتيات يتحدثن بتلك الطريقة .. إنها فتاة لم يصادف مثلها ولم يتوقع ذلك حتى ساقته إليه الأقدار تلك المهمة المباركة ... نظر إليها متأملاً فوجد نوراً يشع من وجهها وبريقاً عجباً يأتلق في عينيها .. إنها امرأة يزداد حسنهما كلما نظرت إليها .. تركها قليلاً ليطمئن إلى عودة جميع الجنود .. ثم عاد ليسير بجانبها ويسترق إليها نظرات أيقظت ما مات في قلبه من ألف النساء منذ ماتت زوجته ... بعد قليل كانا على بعد خطوات من كوخ صنعت أركانه من جزوع النخيل وفروع الشجر وغطى بالسعف والقصب الذي وقع أكثره وبقي الخشب قائماً .. فنزلت الفتاة من

فوق الجواد وهرولت مسرعة وخلفها مؤنس .. لا يدري لماذا سار خلفها وقد وصلت إلى بيتها ولا خوف عليها .. شاهد لهفتها وهي تلقي نفسها في أحضان أبيها، ذلك الكفيف الذي مسه الكبر فابيض شعره وانحنى ظهره .. بكت وبكى الأب وهو يتحسس وجه ابنته ويكرر أسئلته ليتأكد من سلامتها وهي تحكي له القصة .. وعلى بعد خطوات كان مؤنس يرقب مشهد اللقاء المؤثر وقد دمت عيناه .. ثم استدار على عقبيه وقد هم بالانصراف، فنادته :

- مهلا أيها القائد ..

- من تخاطبين يا ابنتي ؟

- إنه قائد الرجال الذين أنقذوني يا أبي .

- هلم يا بني ..

- أشكرك أيها الشيخ .. فأنا في عجلة من أمري .

- يا بني إنني رجل لا مال لي فأكافئك، فكيف أشكرك ؟

- ادع الله لي أيها الشيخ .. فإني لدعائك محتاج .

- وما اسمك يا بني ؟

- مؤنس الخادم .

- خادم من يا ولدي ؟

- هو لقب غلب على اسمي ولكنني أخدم الخليفة المكتفي .

- كن خادما لله يا ولدي .

- أفعل إن شاء الله يا سيدي الشيخ .

- اللهم املأ قلب عبدك مؤنس باليقين واجعله من السعداء .

- لك شكري أيها الوالد الكريم ..

- مصحوب بالسلامة يا بني .

منذ خطأ مؤنس خارج الكوخ وهو يفكر في شيء واحد وهو الوسيلة التي تمكنه من العودة إلى ذلك الكوخ مرة أخرى .. لقد أسرته تلك الفتاة بحديثها وجمالها .. أكثر من عشر سنوات مضت على وفاة زوجته خالصة .. تلك التي عاشت معه أحلى الأيام وأمرّها .. كانت رفيقة كفاحه ومالكة قلبه .. ماتت وهي تلد ابنه عمارا وبموتها مات قلبه وتحجرت مشاعره وأصبح رجلا لا هم له إلا المناصب والأموال .. ينبغي بذلك أن ييسر حياة ولده عمار .. كان يخطط لإبعاده عن عالم السياسة لأنه قد خبر تقلباتها ومكائدها ودسائسها وأضحى أمله في الحياة ألا يعرض ابنه لتلك الأخطار .

كان غريبا أن يعيد التفكير في النساء ويسعى وراءهن بعد انقضاء تلك الفترة الطويلة، شيء في ورد يجعلها لا تشبه غيرها من النساء لقد شهد من جميلات القصور من شهد وما اهتز قلبه لإحداهن .. فماذا يحدث الآن ؟ طرح هذا السؤال على نفسه فلم يجد إجابة شافية لكن شفتيه كانتا تنفرجان عن بسملة تقول له : اطمئن هو خير بإذن الله .

وقبل أن يمضي مبتعدا ألقى على كوخهم نظرة مشفقة وقال لنفسه : كيف سيصمد ذلك الكوخ الضعيف المتهاوي حين يبدأ فصل الشتاء ؟ وبدأ يفكر

في أن محاولة إصلاح الكوخ وتجهيزه لاستقبال الشتاء ستكون أول وسيلة يمكنه بها العودة إلى الشيخ طاهر وابنته الحسناء .

كان إعجاب الأمير جعفر بمؤنس قد بلغ الغاية.. وانتقل ذلك الإعجاب إلى المكتفي، فأراد المكتفي أن يكافئه، ولما استشار حاجبه صافي الحرمي في كيفية ذلك أشار عليه بأن يولي مؤنسا أمر شرطة بغداد مكافأة له على ما فعل، وأخذ يعدد له مناقبه ويصف له من سابقات أعماله ما يؤكد قدرته على تولي المنصب.. فاستجاب الخليفة وأمر بذلك.

وقد كان الحرمي رجلا أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام بأمورهم فحذقها، كان رجلا تكفيه اللحظة، وتُرشد السكته؛ فذلك مما زاد الرغبة فيه ومكن له عند الخليفة المكتفي ومن قبل ما كان مع المعتضد، فلما حمل إليه الحرمي الخبر وفي يده صحيفة محتومة بخاتم الخلافة، كاد يطير فرحا بتحقيق حلم طالما داعب مخيلته، لكنه توجس خيفة مما تحمله له الأيام .. فإنه رجل خبر الأيام حتى استغلظ واستوى على ساقه لكثرة التجارب، يعلم أنه لا يعقب الصعود إلا الهبوط ولا يخلف العلو إلا السقوط، وأنه كلما اقترب من الخليفة كان أقرب للخطر .

وقد كان صادق الحدس صائب البصيرة فقد جرت عليه تلك المكافأة مشكلات وتبعات لا ينهض بها إلا القوي الحمول؛ إنها نجاح مثل أي نجاح يجتذب الخصوم ويجلب الأعداء .

- ٤ -

تجلى حقد صبري عليه منذ عامين أو أقل حين اجتمعت العائلة في ثالث أيام العزاء في فائزة عمه مؤنس التي توفيت بعد أن أصابها الشلل وعاشت به نحو خمس عشرة سنة .. ويقال إن ذلك أصابها بسبب حزنها على وفاة أبيه همام، كان رءوس العائلة وكثير من شبابها قد اجتمعوا في المربوعة الكبيرة في بيت العائلة، وإذا بصبري يفتح موضوعا شائكا بعد تهامس مع عمه زهران الذي يناديه بلقب :سيدي بحسب عاداتهم في نداء الأعمام .

قال صبري : تكلم يا (سيدي) زهران .

قال زهران في تردد : حدثهم أنت يا صبري .

تنحى صبري ثم رفع صوته مخاطبا أعمامه الذين كانوا منخرطين في أحاديث جانبية :

- يا (سيدي) فايز .. يا شيخ محمود .. يا (سيدي) عزيز ..

انتبه أعمامه إليه فقال عزيز : خير يا صبري .

فقال صبري : أنا و(سيدي) زهران نريد أن نحدثكم في أمر مهم لنا جميعا

عزيز : وما هو ؟

صبري : حقوقنا في الميراث يا سيدي .

عزيز : ماذا ؟ ألم تنته من ذلك منذ زمن ؟

صبري :لم نحسم مسألة نصيبنا في البيت الكبير .

عمه الشيخ محمود : هات ما في جوفك يا رجل .

صبري : هذا البيت هو بيت جدي (العمدة وفقّي) ولنا فيه حق مثل أولاد سيدي همام بشرع ربنا .

الشيخ محمود : وشرع الله يقول أيضا إن (حنك) صالحة لها (التمين) - هكذا ينطقونه ويريدون ثمن الميراث- ولها في الأرض التي وزعت علينا، وقد تركت نصيبها لنا .

صبري : الحريم لهم مال ولا يأخذون أرضا يا سيدي .

الشيخ محمود : وهل هذا هو شرع ربنا ؟

صبري : هذا عرف، والعرف قانون يا شيخ محمود .

الشيخ محمود : العرف أن نترضى النساء بالمال فقط إن كان أزواجهن ليسوا من العائلة كي لا ينال الغرباء من أرضنا شيئا، لكن هذه (حنك) صالحة، أتعي ما تقول ؟

صبري : إذن تأخذ نصيبها في الأرض وتعطينا نصيبنا في البيت .

عزيز العبايدي : لكن المرحوم أوصي أن يكون البيت من نصيب أولاد همام . هنا تدخل زهران وقال :

- هذا كلام مر عليه زمن .

هب الشيخ محمود واقفا ورفع صوته بغضب :

-ولو مر عليه ألف سنة ..انتبه لكلامك يا زهران ..لا تسر خلف صبري .

وبعدها قال فايز العبايدي بلهجة المتحدي لصبري :

-حنك صالحة بالداخل .. ادخل قل لها ذلك لو كنت تقدر .

رد صبري بصوت واضح :

-طبعا سأذهب أنا وسيدي زهران .

فقال زهران بارتباك :

- ادخل أنت يا صبري .. أنا ..

وفجأة تطل على الباب الحاجة صالحة ... تدخل الجدة التي كانت قد سمعت معظم الحوار .. فيعتدل المتكئون على الوسائد الإسفنجية المكسوة بالقماش المزركش وتترك أكواب الشاي وتتجه إليها الوجوه التي تكسوها الشوارب واللعى في انتظار أن تبدأ الكلام ..

فتقول بصوت غاضب :

-أعد ما كنت تقوله يا صبري .

صبري متلعثما :

-أعني .. أعني .. يا حني .. أقول ..

هي بحزم : انطق يا ابن (أنعام) ..

صبري : أقول .. نريد أن نحس بأننا أولادك كأبناء سيدي همام .. و .. و
ونرعاك في البيت الكبير .

هي بلهجة حادة: ما اسمك يا صغير ؟

صبري : سلامتك يا حني صالحة .. ناديتني باسمي للتو ..

- رد علي، ما اسمك ؟

- اسمي صبري مطاوع .

- ومطاوع حي أم ميت ؟

صبري ناظرا إلى الأرض بعد أن فهم غرضها : أطل الله عمره .
هي : إذن يكون الكلام لصاحبه .. أرسل أباك يطلب حقه لو كان له حق يا
ابن (أنعام)... وأنتم أتريدون حقكم في البيت يا أولاد وفقى ؟ سكتوا جميعا،
فاستأنفت وهي تنتقل بنظرها الحادة بين الجميع : البيت لأولاد همام من
بعدي، وصية المرحوم وفقى وستنفذ .. غدا يا شيخ محمود اجمع إخوتك بنات
وأولادا .. سأنتظركم بعد العشاء ومعكم المحامي .. لا بد أن يحسم الأمر
بالمستندات القانونية، ويغلق هذا الأمر نهائيا .

في اليوم التالي حضر الجميع وتم الأمر بشكل قانوني كما أرادت الجدة حتى إنها
اقتطعت من أراضيهم كلهم ما يوازي ثمن الميراث الذي كانت قد تركته لهم
.. وسلمت تلك الأراضي لهما أخى مؤنس ليتولى أمر زراعتها .. وخرج
صبري من هذه المعركة أكثر بغضا لمؤنس .

لم يحضر مؤنس تلك الواقعة لأنها حدثت أثناء إقامته في الإسكندرية حيث
كان منشغلا بمواصلة نجاحه العلمي، في حين لم يتجاوز أحد سواه في
العبادة مرحلة الدبلوم أو (الدبلون) كما ينطقونها، فكان من البدهي لذلك أن
يتمتع بحب الجميع وتقديرهم وبمزيد من كراهية صبري .

لما حكيت له واقعة صبري بكل تفاصيلها، لم يستغرب تصرفه، فهو يعلم ما في قلبه من حقد بدأ قديما ويبدو أنه كشجرة لا تتوقف عن النمو تضرب جذورها في أعماق نفسه وتمتد فروعها لتطال مؤنسا بكل أذى مستطاع .. إن بينهما تاريخا طويلا من الكيد المتبادل، يكفي أن مؤنسا قد وصمه بلقب لازمه منذ الصبا (ابن بهائم).

حدث ذلك في كتاب القرية حين كان يحفظ سورة الأنعام وذكر الشيخ محفوظ أن الأنعام تعني البهائم، وكانت أم صبري اسمها إنعام ولكنهم كانوا ينطقونها بالفتح .. فقال مؤنس بصوت سمعه أولاد الكتاب : (يعني أمك يا صبري) .. فأغرق صبيان الكتاب في الضحك، حتى إن الشيخ محفوظ لم يتمالك نفسه من الضحك .. ومن يومها وصبري يُكاد له بذلك اللقب (ابن بهائم) .. حاول مؤنس كثيرا أن يستل سخيمة حقه ويهدد أضغانه إلا أن صبري كان يزداد له مقتا .

بعد تناول الشاي وانتهائه من التأمل والذكريات المتداعية، عاد إلى حجرته .. وهناك عاوده ذكر من حبيبته البعيدة .. مدهش أن تستيقظ صباحا لتجد قلبك قد انشغل بساكن جديد شغل منه المساحة العظمى .. وأكثر إدهاشا ألا تنتبه إلى أن ذلك الزائر يسعى لتوسيع حدود مملكته على حساب من كان لهم في القلب زاوية صغيرة .

قضى ساعتين تقريبا يتذكر ما حدث، يستعيد كلماتها .. يسترجع ضحكاتها .. يتخيل لنفسه ردودا أفضل مما قال وتصرفات أنسب مما فعل ... دخلت أخته

شيء عليه وهي ترتدي ذلك الخمار النيلي وفي يدها كوب من اليانسون الساخن تتصاعد منه أبخرة تعطي وعدا بالدفع واللذة، فلمحت على وجهه ابتسامة واسعة صنعتها خيالات الأمل السعيد .. مسحها بسرعة حين رآها، فوضعت أمامه الكوب ثم قالت :لقد بدأ قرآن الجمعة، فلا تتأخر علينا بعد الصلاة كما اعتدت وتجعلنا ننتظر، سنضع الطعام بعد الصلاة مباشرة .

قالت عبارتها وتحركت لمغادرة الحجرة، لكنها ما لبثت عند الباب أن توقفت لحظة ثم استدارت وكأنها نسيت شيئاً ما، ثم استأنفت في خجل قائلة : وتقول لك (حنك) صالحة لا تنس أن ضيوفا سيأتون إليك بعد الصلاة .. فسأل في عجب : ومن هم ؟

أجابت : سل حنك صالحة، هي تعلم .. وانصرفت بسرعة وهي تكاد تتعثر في ملابسها .

ابتسم مؤنس حين شاهد تلك البسمة الخجولة على شفثيها والاضطراب في حركتها؛ فقد تذكر أنهم أخبروه الأسبوع الماضي أن عمه الشيخ محمود يريد أن يخطب شيئا لابنه الأكبر جابر .. كانت تلك الخطبة محل ترحيب من الجميع، لا سيما بعد أن ذكرت جدته ارتياحها لذلك، أنهى كوب اليانسون، ثم ارتدى جلبابه الصوفي المكوي بعناية وتلفح بكوفيته ومضى إلى المسجد .

للمرة الألف يشرد فكره وهو في المسجد ولا يتابع ما يقوله الخطيب ذو الصوت الغريب واللغة الغريبة في حرف الشين .. لم يكن ينام مثلما يفعل كثيرون من أهل القرية في خطب الجمعة؛ فليس من الملائم له أن يسند ظهره

إلى الحائط ويغط في نوم عميق ثم يستيقظ عند الدعاء كما يفعل هؤلاء المتعبون .. إنما كان يركز بصره في نقوش المسجد أو في أسماء الله الحسنى المنحوتة على رخام المسجد بخط الثلث أو في السجادة الخضراء المنبسطة تحت أقدام المصلين ثم يسافر في خيال بعيد ..

الشيخ غانم الرفاعي إمام المسجد الذي لا يذكر أنه تحدث عن الجنة من قبل طرق اليوم موضوعا جديدا .. لم يواصل الشيخ كما تعود الناس حديثا قديما أعاده عشرات المرات عن أهوال يوم القيامة وعذاب القبر، وإنما تعرض فيها شيخ المسجد بالغمز والانتقاص لما أسماه بالفتنة الكبرى والمؤامرة العظمى، فوصم الثوار بكل نقيصة وطالب الناس بالصبر وأوصاهم بإصلاح أنفسهم حتى تنصلح حال بلادهم ثم دعا بأن يعصم مصر من الفتن، وأن يهلك اليهود كما أهلك عادا وثمود، حاول مرات أن ينتبه لكلام الشيخ إلا أن الفتاة وذكرها لم يتركها له فرصة الاستماع إلى تلك الخطبة العصماء .

بعد الصلاة التقى بمحببيه من الأهل والأصحاب كما اعتاد بعد كل جمعة وتبادل معهم ثرثرة مملّة تمحورت حول أحداث الميادين، حيث كانت الأخبار تتنامى عما حدث اليوم في الجمعة المعروفة بجمعة الغضب، وحين تطلع أهل القرية إلى معرفة رأي ابنهم المثقف المطلع على الخبايا لم يكن صريحا في إبداء رأيه، فقلبه مع شباب الثورة وحديثه ينبغي أن يدور مع الحزب؛ لم يطاوعه قلبه لما أراد أن يسترضيهم بحديث سلبي عن الثوار، وليس مطروحا بين العائلة أن يتحدث بسوء عن الحزب الذي تنتمي إليه العائلة كلها ومنه

يستمدون بعض نفوذهم وتطاولهم على الناس .. لذلك فقد اعتمد في إجاباته طريقة المسؤولين الكبار في برامج التلفاز، فأدار دفعة الحديث كلما أمكن له ذلك، وتجنب الإجابات المباشرة وأكثر من كلمات مثل : علينا أن .. وينبغي أن ... لم يتوقفوا طوال سماعهم له عن هز الرؤوس موافقة له إلى أن انتهى من محادثتهم دون أن يفهموا رأيه على وجه التحقيق .

بحث عن صبري ليستوضح ما غاب عنه من أمر مكالمته فلم يجده ولكنه وجد أخاه الأصغر، وحين سأله عنه أخبره بأنه في الإسكندرية منذ الصباح .. أنهى لقاءاته سريعا وعاد إلى المنزل حيث ينتظره الجميع لتناول الغداء . في أثناء العودة استوقفه رجل من أهل البلدة يدعونه (مجاور البلحي) .. كان من جلساء جده الراحل وكان هو وأبناء عمه يطلقون عليه اسم الشيخ بلحة .. لم يكن أحد من أهل البيت يرتاح لوجوده أو محادثته بسبب تطفله الشديد وحديثه الذي لا يسأم من تكراره عن المتصوفة وحلقات الذكر والطريقة الأحمدية التي ينتمي إليها .. رجل عجيب غامض .. يتغيب بالشهور عن القرية ولا يعرف أحد أين ذهب ثم يظهر من حيث لا يعلم أحد .. من غرائب ذلك الرجل أنه اعتاد أن يلقاه بالمصادفة في أماكن غريبة .. رآه مرة في مقر الحزب الوطني بدمنهوور ومرة في قصر الثقافة وصادفه مرة في الإسكندرية في شارع النبي دانيال يقلب في كتب الباعة ويومها كان مرتديا حلة لا بأس بها ..

تبادل مع الرجل حديثا ثقيلا على قلبه أبدى الرجل فيه سخطة على المخبرين من الثائرين، ورص له جملة من المعلومات المشوهة التي سمعها من إعلاميي الدولة وأشياعهم .. ظل مؤنس لوقت طويل رافعا يده ليقى نفسه لسعة الشمس في تلك الساعة وهو يستمع لكلام فارغ لا يجد منه مهربا ولم يسعفه التفكير في طريقه لينصرف ويترك الرجل، ثم تبين له في النهاية أنه استوقفه ليخبره أن رجلين غريبين يرتديان ملابس فخمة كانا يبحثان عنه .. تعجب ثم مضى في طريقه إلى البيت .

رجلين غريبين .. مكاملة صبري .. سيارة تتبعه .. ظهور الشيخ بلحة .. شخص مرموق يشاركه رحلة الميكروباص .. تزداد الغرابات غرابة وتنسحق الرتابات رتابة في إثر رتابة .. جال فكره في تلك العجائب المتتابعة سريعا ولكنه لم يتفحص إحداهن بقلب فارغ .. فما أصبح قلبه فارغا منذ لقي العجيبة الكبرى (وعد).

وصل إلى البيت فتلقاه الجمع بلهفة الجائعين الذين أرهقهم الانتظار، فما كان ينبغي لهم أن يشرعوا في تناول الطعام إلا في وجود مؤنس كما اقتضت العادة .. بدأت الأم بمعاونة بنتيها في وضع المائدة، وفي هذه الأثناء أخبره همام الصغير بسؤال رجلين عنه جاء إليه في سيارة فخمة وتركاه له بطاقة عليها اسم أحدهما .. أخذ البطاقة وقرأ الاسم، محمد أبو شوشة المحامي .. ترى من يكون ذلك الرجل ؟ وماذا يريد منه ؟ .. قبل أن يمد يديه إلى الطعام دفعه الفضول لمهاتفته ليعرف الأمر .

كان منصب صاحب الشرطة لابن عمرويه، وهو أحد أشياع ابن المعتز الشاعر الشهير وابن عم الخليفة، وكان تولي مؤنس لهذا المنصب إيذاناً ببدء معركة خفية، مع خصوم بارعين في التآمر ولهم باع في الدس والافتراء، فابن المعتز يسعى منذ زمن إلى اصطناع الأتباع الذين يريد أن يكرسهم لخدمة مطامعه في الخلافة .. كان يتوقع أن تتول إليه الأمور بعد المكتفي إذ لا مآل لها - في ظنه - إلا ذلك؛ لأنه أكبر أبناء الأسرة وقد كان ولياً للعهد قبل أن يغير المعتضد ذلك ويجعل ابنه المكتفي ولياً للعهد .. ولكن الآن ومع مرض المكتفي سيكون هو ولا شك الخليفة التالي، فمن غير الممكن أن يولي المكتفي أخاه جعفرًا وهو لما يتجاوز التاسعة .. كان ابن المعتز يحلم بالخلافة التي كان يرى نفسه أجدر الناس بها .. ومع قربه من الخليفة المكتفي بشكل دائم ومؤثر استطاع أن يضع رجاله في أهم مواقع السلطة، كانت بطانته تضم صاحب ديوان الجند محمد بن داود بن الجراح والقائد الحسين بن حمدان والقاضي أحمد بن يعقوب وغيرهم .. فلما عزل ابن عمرويه وهو أحد زبانية ابن المعتز ورجاله المهمين غضب وكلم الخليفة في ذلك، فأجابه الخليفة بأن تلك مكافأة أنعم بها على مؤنس الخادم جزاء ما قدم من حسن بلاء في حماية أبناء البيت العباسي، فسكت على كره منه وفي قلبه حقد على مؤنس ونية لإبعاده عن ذلك المنصب الرفيع .

وكانت الخلافة العباسية في ذلك الوقت في طور الضعف وجولة الانهيار، وكان قواد الدولة والوزراء ورجال الدواوين هم أصحاب القرار الحقيقيون . لما أعطي مؤنس منصب صاحب الشرطة واجه حربا شعواء من أولئك الذين لم يكن منهم، وكان ابن المعتز بالطبع أكثرهم كيدا له، فقد كان بين الحين والآخر يلقي في أذن الخليفة بكلمات تحمل الغض من قيمة مؤنس والتشكيك في كفاءته .. وكذلك كان يفعل كل أشيع ابن المعتز .

إلا أن مؤنسا كان يستند إلى ركن شديد القوة، وهو صافي الحرمي مدبر القصر وصاحب الأمر النافذ في طول الخلافة وعرضها، فالحرمي كان رجلا داهية ذا عقل وحزم، له أناة الوزراء وصولة الأمراء .. مكن له وثبت قدمه في ذلك المنصب؛ ينبغي بذلك أن يصطنعه لأمر قد تحملها الأيام .

وحين تولى مؤنس الأمر جاء أداؤه لمهام عمله مثيرا للإعجاب، فقد كان رجلا جادا طامحا يخلص لعمله أيما إخلاص ولا يضمن في سبيل ذلك بجهد، يصل الليل بالنهار لمتابعة أدق التفاصيل بنفسه، فقام بشئون عمله خير قيام؛ فبسط الأمن، وردع اللصوص وقطاع الطرق الذين طالما اشتكى منهم تجار بغداد، فحمد الناس له ذلك وأثنوا على صنيعه وبات ذكره بالخير في مجالسهم أمرا معتادا خاصة إذا ذكروا أن ابن عمرويه قائد الشرطة السابق ما كان يهتم بتلك الأمور؛ لأنه كان مؤثرا للهوه متهاكما على إرضاء شهواته .

وكان له من حسن مذهبه وجميل خلال ما جعل العامة والخاصة يرتضونه لذلك المنصب، ومن قبل ما حظي بحب أبناء الخلافة وتقديرهم خلا ابن

المعتز، والأهم من ذلك أنه كان محل تقدير جنوده الذين قدموا له الطاعة المطلقة راضين سعداء؛ ذلك أنهم أحبوا ذلك القائد الذي يسوس الجند بتواضع لا يخل بالحزم ولين لا يذهب بالهيبة وعدل لا تنتقص منه محابة، فامتلاّت قلوبهم بالرضا عن مسلكه وسعوا في تثبيت أمره بكل سبيل .

ما يقرب من عام قضاه مؤنس في تلك الوظيفة سعيدا من كل الجهات، فقد خطا خطوة كبيرة في طريق السلطة والتمكين لنفسه بين صقور البلاط، فصار من المعدودين من أولي الأمر والنهي وأهل الحكم والتدبير .. وكان من ثمرة ذلك أن تكاثرت في يده الأموال وانتقل مسكنه من بيت صغير في الدرب الضيق بسكة أبي قرّة إلى الرحبة الواسعة التي يقوم فيها القصر المعروف بقصر الذهب الذي ازدان بالأقواس العربية والواجهة العريضة والنقوش الغائرة .

كانت داره القديمة ضيقة ورطبة لا يكاد يرى فيها ضوء الشمس، كان الظلام يكتنفها أغلب الوقت كمعظم الدور في ذلك الدرب الضيق، أما في تلك الرحبة الواسعة فلم يكن حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا المسجد الجامع من ناحية الشرق وتلك الدار التي سيسكنها مؤنس من ناحية باب الشام .

كانت هذه هي الدار التي خصصها الخلفاء ليسكنها صاحب الشرطة فلم ينتقل إليها مؤنس إلا بعد مضي ما يقرب من شهر، يريد بذلك أن يترك فرصة مناسبة لابن عمرويه كي ينتقل إلى مكان آخر، فلما تأكد لديه أن الرجل غادر الدار دون أن يكرهه على ذلك مضى إليها وأقام فيها .

كانت الدار الجديدة تتميز بالسعة والفخامة .. ممتدة على عمد ومبينة بالأجر
الرافديني الأصفر والحص، وزينت واجهتها وأفاريزها بنقوش إسلامية ..
..وأمام تلك الدار تقوم حديقة زينت بأنواع من الورد وبعض أشجار
الإجاص والموز، وفي الخلف حظي بحظيرة يستطيع أن يضع فيها حصانه
ويربي فيها بعض الدجاج .

كما أتاح له منصبه أن يستطلع أحوال الناس ويطمئن على أمورهم، وطبعا
كان من الناس ورد وأبوها أو ورد فقط .. أقام لهم الكوخ وثبته وقواه
بأخشاب جديدة وملطه بالطين من أعلى ومن الجوانب بعد أن وثق الوهن
وسد الثقوب في جوانبه بما استطاع من الخشب ليقبهم بذلك مطر الشتاء .

وكان بين الحين والآخر يجالس الشيخ العابد ويسأله في أمور الدنيا والدين،
فيجد في لقائه أنسا وفي حديثه راحة، وربما طاب به المقام فيمتد به المكث
ساعات، يبيع لنفسه خلالها أن يشاركها طعاما شهيا أعدته ورد، وربما
بالغت في العناية بهذا الطعام كعلامة على الاحتفاء بالضيف المرموق، وكانت
الفتاة ماهرة حقا في صنع الأطعمة وخاصة السنبوسة والسماقية اللذين أحبهما
مؤنس كثيرا وكلف بهما .

كان الشيخ قد أجرى عليه بعض الفضلاء ومحبي المتصوفة والزهاد رزقا
يأتيه مع مطلع كل هلال يكفيه الشهر كله هو وابنته، وكان الخدم يأتون بالمال
وتتولى ورد تصريف الأمور بذلك المال، فتذهب كل أسبوع إلى المدينة على
حمار لها تبتاع ما يكفيهما ذلك الأسبوع .

أضحى مؤنس يستمع إلى الشيخ كطالب علم وباحث عن الرشد، ويحدث ورد كعاشق يتحسس الطريق بتلطف إلى قلب محبوبته وهو يعلم أن فارق السن بينهما قد يكون باعثاً على النفور منه، كان يخلو بها أحياناً إن خرجت لتحتطب من الغابة فيكون في رفقتها بدعوى الاحتياط والحذر، وكان يترقب يوم حضورها إلى المدينة ليلقاها فيتشقق بينهما الحديث حتى يكاد يرضى كل منهما، ثم يفترقان ولا يفترق عنهما الشوق للقاء القادم .

علم أن مشكلته مع تلك الملاك أنه يريد طريقاً آمنة ليشق دربه إليها .. وعلم أن مدخلها صعب والطريق إليها غريبة لم يسلك مثلها قط، فهو لا يستطيع أن يلقي على مسامعها كلمات التغزل في حسناتها والإطراء على جمالها وهي التقية العابدة التي تسلك سبيل الزهد إلى ربها، وليس من المدهش أن يروي لها قصص بطولاته في الحروب وقدرته على حصد الرءوس وضرب الهام وهي التي تزدرى الحروب وترفض تفاني البشر لعرض زائل ودنيا مفارقة .. فعلم أنه حين يلقاها عليه ألا يتكلم وإنما عليه أن يستمع .

وقد كان سماعها بالنسبة له متعة حقيقية، فقد سمع منها حديثاً عجبا ما درا بخلده ولا مر بخاطره، إنها تشرح أعقد الأمور في أيسر عبارة فيبدو كل ما يسعى إليه تافها بجانب الفوز العظيم في العبادة والخطوة الكبرى بعناية الله حين يفيض عليها من السكينة والطمأنينة ما يملأ نفسها من كل أقطارها بالراحة والسعادة .

يوما قال لها :

- اصدقيني يا ورد فيما أسألك عنه ..
- إنني لا أكذب .
- هل فكرت مرة في الزواج ؟
- ولم لا تقول مرات ؟
- أفكرت إذن ؟
- بالطبع، ألسنت امرأة تطمع في الزوج والولد ؟
- أأستم - معشر المتصوفة - تتبدلون العبادة بالزواج ؟
- وهل يعتاض المرء عن خمس أصابعه وإن وضع مكانهن ذهباً أو فضة؟
- فبمثل من تحلمين ؟
- أأليديك خاطب ؟
- إن شئت؛ فصاحب الشرطة لا يعجزه أن يقبض على من تحلمين به ويسوقه إليك خاطباً .
- إذن لا أرضى إلا بالخليفة أو وزيره .
- ولكن الخليفة مريض، والوزير قد أسنّ؛ فلا يصلح للزواج .
- إذن فلا أقل من قائد جيوش الخلافة .
- لديه من النساء أربع .
- فلم يبق إلا صاحب الشرطة .
- دعيني إذن أفكر في الأمر .

- تضاحكا قليلا على تلك الدعابات، ثم استعداد جده وسأها : حقا بمن
تحلمين ؟

- حقا، أرجو أن يكون تقيا يخشى الله حق الخشية ولا يصرفني عن طريق
الله.

- والدنيا، ألا تأملين في شيء من مباهجها ؟

- إن أردت مباهجها فدع ما تظن أنه مباهجها .

- وكيف أدعه وهو حولي في كل شيء؟ فيما ألبس وفيما أركب وفيما أطعم
وأشرب .

- لا تدعه من يدك ولكن دعه من قلبك واعلم أن القرب من الله هو أشهى
مسررات الدنيا .

- إنكم معشر المتصوفة غرباء حقا ؟

- وما وجه الغرابة ؟

- كيف تخرجون طيبات الدنيا من القلب إلا إذا أحجمتم عن الاستمتاع بها
وهي في اليد ؟

- ليس ذا بصواب، فإننا لا نرفض الطعام الطيب والملبس الطيب متى يرزقنا
به الله، وغاية الأمر إننا لا نتهالك عليه بل حتى لا نسعى إليه، إن جاء أكلناه
هنيئا مريئا وإن غاب لم نفتقده .. وحين ننعم بالطيبات فلنا منها الكفاف فقط،
فمن تجاوز الكفاف لم يغنه شيء .

انصرف مؤنس بعد ذلك وهو يردد في نفسه جملتها الأخيرة " من تجاوز الكفاف لم يغنه شيء " .. جعل يفكر .. يؤرقه أنه من الساعين إلى ما فوق الكفاف، ويؤرقه أنه لم يكن ممن يجهدون أنفسهم في العبادة فيما فوق الفرض، بل إنه كان أحيانا ينقص من الفرض نفسه، ولا سبيل إلى تلك الفتاة إلا إن لف لفها وامثل طريقتهما في الحياة، وهو مثل الكثيرين يؤجل العودة إلى الله حتى الدورة الأخيرة من سباق عمره وكأنه يعلم موعدها ..

لم يكن مؤنس يجد فرصة لمذ سبيل الحديث مع ورد إلا اهتبلها؛ حتى أصبح الاحتطاب طقسا شبه يومي، وباتت لحظات الخلوة بها هي أسعد اللحظات في حياته .

فإن يمت شطرها تجد قلبها قد ارتاح لمجالسة مؤنس غاية الارتياح .. لقد كان مؤنس بالنسبة لها مؤنسا بحق؛ ففي تلك البقعة الموحشة قلما تجد إنسانا، وإن مر بذلك المكان عابر سبيل فإنها ما كانت لتحادثه، فضلا عن أن تستريح لحديثه .. فأدمنت ورد مجالسته وربما طاف بخلدها منه ذكر أذهب من قلبها التعلق بالعبادة ساعة ثم تنشط لما كانت بصده من ذكر وتضرع .

سألته يوما :

- من أنت أيها القائد ؟

- ماذا تعنين ؟

- أعني نسبك وقومك، ممن أنت ؟

- أنا رجل صنيعة الحياة وابن أقدارها وقومي صروف الدنيا وتقلبات الدهر.

- كلنا لهذا النسب، ولكني أسألك عن أبيك ؟

- الحق أنني لا أعلم من أمر نسبي شيئا، فقد جلبت صبيا من أسواق الرقيق لأخدم البيت الطاهري .. ثم تقلبت بي الأحداث حتى وجدت نفسي جنديا في جيش الخليفة، إلى أن صرت إلى ما صرت .

- وكيف يكون صاحب الشرطة بلا نسب ؟

- لقد اخترعت لنفسي نسبا، وما يعرفه الناس أنني تركي الأصل عربي طائي بالولاء .

- أنتم - الموالي - أضحيتم أركان الدولة وأصحاب الأمر والنهي فيها

- هذا صحيح، فنحن أولو التدبير وبنا تقوم للعباسيين الخلافة .

- ولا عزاء للعرب .

- لقد كان الفرس والترك والصقالبة والديلمة والأحباش ينتسبون بادئ

الأمر إلى العرب ويعدون ذلك فخرا، أما الآن فلا أحد يسعى إلى النسب

العربي لأنه ما عاد سببا في رفع أو خفض، حتى الخليفة العربي الشريف

النسيب، بات مسيرا من حفنة القواد ورجال الدواوين .

- أتعرف لماذا صار خلفاء اليوم إلى ذلك الضعف ؟

- لماذا برأيك ؟

- كان أبائهم قد استقاموا على الطريقة، ولم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكانت همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره أن أرضوا الشهوات وآثروا اللذات واستباحوا الدخول في معاصي الله ومساخطه جهلاً منهم باستدراج الله وأمناء مكره، فسلبهم الله العزّ ونقل عنهم النعمة .

- ولكنهم مازالوا في نعمة الملك ومسراته .

- هي إلى زوال لا محالة، حتى إنك - وأنت خادمهم - تقتل خليفتين .

- ههههههههه، ماذا تقولين؟ أقتل خليفتين؟

- نظرت الفتاة إليه نظرة غريبة لم يرها منها من قبل .. وصمتت هنيهة ثم

قالت :

- أنا قلت ذلك ؟

- نعم، ألم تنبهي لما قلت؟

نظرت الفتاة إلى الأرض وصمتت برهة ثم قالت : إنني لا أذكره .. ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

- الزم الحذر أيها الأمير؛ فإني إن كنت قتلته فسيحدث .

- أتعلمين الغيب؟

- لا، ولكنی ..

- ولكن ماذا .. أجیبی .

- أحيانا .. يكشف لي .

- ويكشف لك أن أقتل خليفتين ؟

صمتت الفتاة وأرادت تغيير الموضوع، ولكن مؤنس عاود السؤال بلهفة:

- أنا أقتل خليفتين ؟ ... أجيبني .

- لا أعلم شيئاً فوق ما قلت .

- فلم قلت ذلك ؟

- لا أعلم .

- أمر غريب حقاً .. فهل ...

قاطعته في تبرم قائلة:

- دع عنك ذا، وقل لي أنتظن العرب قادرين على استعادة زمام الأمور ؟

لم يرد أن يحاصرها بأسئلته أكثر من ذلك وأحب أن يتجاوز أمر عبارتها

العجيبة .. فأجاب :

- هيهات، لقد فارق السهم قوسه، فما انفك العرب يملئون أفواههم

بعروبتهم، وهي لا شيء، وأظنهم سيظلون هكذا إلى يوم الدين .

- وكيف سيظلون ؟

- ليسوا إلا أفواها تزهو وألسنة تهجو، ركنوا إلى الدعة وإلف الراحة ومن

سلك هذا المسلك فلن يكون في الناس له أثر يبقى أو صنيع يذكر .

- صدقت فأنتم العصاميون وهم العظاميون، والعظام لا تقيم دولة

والأحداث لا تصنع حضارة .

هاتف المحامي لا يجيب .. قوة الإشارة في الهاتف منعدمة .. ربما صحيح ما يشاع من أن الحكومة قطعت خدمة الاتصالات والنت لتشوش على الشوار وتمنع تواصلهم .. هل هذا بشير خير أم نذير شؤم ؟ إنه لا يستطيع أن يحدد معنى ذلك الآن .

جلس إلى المائدة العامرة بالبط السوداني والأرز المعمر والحساء الساخن، ومد يده إلى الطعام دون أن تمتد شهيته؛ فقد كان مشغولا بها كان .. متوجسا مما سيكون .

وفي أثناء الغداء عاودت الأم والجددة حديثا لا يملان من تكراره عليه، فهما لا تنفكان تعرضان عليه الزواج من إحدى بنات العائلات المرموقة في القرية أو ما جاورها .. في هذه المرة حاصراه .. ولم يجر لها جوابا مقنعا .. وصل الأمر هذه المرة إلى الاستجداء .. فهذا هي أمه ترجو وها هي جدته الغالية تتمنى عليه أن يسعد قلبها قبل أن تلقى ربا كريما .. لم يجد فرصة للهرب من هذا الرجاء أو دبلوماسية للرد على أمنية حبيبته .. فبدا له أن عليه أن يطيعهما في رؤية الفتاة التي يلحون عليه في رؤيتها ثم يتعلل بعد ذلك بأي شيء ليفسد إتمام الأمر .. فأبدى موافقته على رؤية الفتاة التي يرشحانها له على أن يكون ذلك في الأسبوع القادم .

وقبل العصر بنحو ساعة وصل الضيوف .. الشيخ محمود وزوجته وثلاثة أبناء أكبرهم جابر .. رحب بهم مؤنس وأدخلهم في المربعة الكبيرة التي

طلبت جدرانها بالزيت بألوان غريبة متنافرة حيث جلسوا على تلك الوسائد الإسفنجية المزركشة واتكئوا على مثلها .. وبعد اطمئنانهم في المجلس نادى مؤنس على همام ليشرع في وضع الطعام، فأقسم الشيخ الوقور ذو اللحية البيضاء على أنهم قد تغدوا، وبعد إلحاح من مؤنس قابله إصرار من الشيخ محمود طلب مؤنس الشاي .. ثم تبادلوا حديثا قصيرا عن الجو والأسعار والثورة وحال البلد بحكم العادة، وبعدها دخل الشيخ محمود في الموضوع وطلب شيئا لابنه، فأجابه مؤنس بأحسن جواب .. وقرئت الفاتحة فزغردت النساء وملأت الفرحة بيت العمدة وفقى وكان ساكنوه قد ساءت علاقتهم بالسرور زمنا طويلا .. صلوا عصرهم في البيت يؤمهم الشيخ محمود واستكملوا حديثا فاترا تخلله الشاي وأطيب الفاكهة ثم خرجوا وقد رضي كل من في البيت عما صار في تلك الجمعة .

بعد انصراف الضيوف قضى سائر يومه في حجرته مدعيا أنه يقرأ وبين الفينة والفينة يخرج لشرب الشاي ومحادثة جدته ومداعبة إخوته إلى أن أوى إلى فراشه مبكرا بعد صلاة العشاء؛ ليخلو بخيالات اللقاء القادم مع حبيبته .. يرسم مئات السيناريوهات التي تمكنه من الفوز بها وهو يعلم أنه كناطق صخرة أو متطلب في الماء جذوة نار .. لكنه استمر في مطاردة الأحلام .

بدا له لما رأى هاتفه يلتقط إشارة قوية أن يعاود الاتصال بذلك المحامي

صاحب البطاقة ... رن هاتف المحامي ..

- الأستاذ محمد أبو شوشة المحامي ؟

- نعم .. من ؟
- مؤنس همام العبايدي .
- أهلا أهلا بالمحترم ابن سيد الناس .
- أهلا بك يا أستاذ محمد .. أخبروني بسؤالك عني لأمر ما .. عساه يكون خيرا؟
- خير إن شاء الله .. الموضوع مهم ولذلك فإن الحديث في الهاتف غير مناسب .
- أنا الآن في البيت لو أحببت أن تشرفني .
- للأسف، لقد عدت إلى الإسكندرية لأمر عاجل، فلنلتقي في الإسكندرية غدا إن كان ذلك مناسبا؟
- متى ؟ وأين ؟
- ٧ مساء في كافيتريا الخان في سان ستيفانو .
- تمام، إن شاء الله .

إنها مكالمة لم تقض وطره وزادت من عجبه .

في صباح السبت (٢٩ يناير) بينما هو يستعد للعودة إلى الإسكندرية فاجأه اتصال من الدكتور هادي البربري .. وبعد السلامة المعتادة سأله الرفقة في السفر إن كان ذاهبا إلى الإسكندرية اليوم، فوافق مؤنس شاكر للدكتور ذلك، واتفقا على موعد في الظهر، التقيا في مدينة حوش عيسى حيث عاشا وقتا ثقيلا بسبب صعوبة إيجاد سيارات متجهة إلى الإسكندرية، يبدو أن

أحداث الأمس ألقت بظلالها على حركة النقل، حيث أثر معظم السائقين والركاب تجنب الخروج من بيوتهم إلى أي مكان وخاصة الإسكندرية بسبب ما سمعوه من أحداث ساخنة تعيشها الإسكندرية، استمر الأمر ساعتين حتى نجحنا أخيرا في إقناع أحد السائقين بخوض المغامرة مقابل ضعف الأجرة .

حين التقيا بدا له أنه لم يتفرس في ملامح الدكتور هادي في المرة السابقة جيدا، وبدا له أنه رجل ذو رزانة ووقار ومن العسير أن يرى ضاحكا وأقصى ما يمكن أن تدرك من ملامح سروره ابتسامة يكتمها ما استطاع تحت نظارته وشاربه السميكين، وبدا له أيضا أن الدكتور يحاول أن يكون لطيفا معه بشكل يثير الريبة، وأنه يحاول توطيد علاقته به لسبب يجهله، لم يرفض مؤنس ذلك إذ لا ضرر منه وبادل الرجل اللطف والاهتمام، وفي الإسكندرية افترقا على موعد .. وسيكون ذلك الموعد يوم الخميس القادم بعد أن يعود الدكتور هادي من رحلة سريعة إلى فرنسا .

ولما وصل إلى شقته وارتاح ساعة من تعب السفر أخذ يستعد للقاء السابعة في سان ستيفانو حيث مواعده مع المحامي محمد أبو شوشة، وقبل اللقاء بساعة هاتفه المحامي ليؤكد الموعد .. ولكنه حين هم بالنزول هاتفه المحامي مرة أخرى ليؤجل لقاءه ليوم الخميس المقبل سأل مؤنس عن فحوى الموضوع ولكنه أجاب بنفس الإجابة أن ذلك لا ينفع في الهاتف ..

جلس أمام التلفاز يتابع آثار أحداث أمس المدوية .. يرى ويسمع برامج " التوك شو " ويرصد عقله اضطرابا شديدا في التعاطي مع الأحداث .. كان

سهلا على أي ذي عقل أن يكتشف توجهات أي إعلامي وقناعاته بعد دقيقتين من حديثه، ومن السهل رؤية أي سم يدسونه في غسل حديثهم ... لكنه يشعر أن التعامل مع الأحداث يبدو ارتجاليا بعض الشيء .. محاولات مستميتة من إعلاميي الدولة المنتشرين في القنوات الخاصة لتشويه الثورة مع عدم قطع علاقتهم بها .. إنه تعامل يشي بأن هؤلاء لا يدركون تحديدا إلى أين تتجه الأمور وهو في نظره مؤشر جيد يعني أن الثورة الآن صار لها احترامها .. أما في القنوات الإخبارية الخارجية فالحديث أكثر وضوحا والمعلومات والصور والفيديوهات أغزر مادة، لكنه لا يطمئن كثيرا إلى نزاهتهم في الطرح شأنهم في ذلك شأن الإعلام المحلي .. كانت الأخبار تتوالى كالسيل المنهمر .. تجمعات بالآلاف في كل محافظات مصر .. اعتداء على أقسام الشرطة ومقار الحزب الوطني ومجالس المدن واستراحات المحافظين .. أخبار من التلفاز وأخبار من صديقه علي الذي بات يقضي نهاره وليله في الميادين ..

كلما ترك التلفاز واتجه إلى الحاسوب يجد خدمة النت مازالت معطلة، إنها ليلة كئيبة أخرى يحرم فيها من استطلاع الفيس بوك .. ذلك الموقع الذي أدمته منذ فترة وافتقده في أثناء الأيام الماضية .. نام ليلته وهو يحلم بها وبمصر جديدة تولد من رحم ذلك الحراك .

استيقظ من نومه صباح يوم الأحد، فمكث في بيته ولم يذهب إلى الكلية؛ فقد كان مأخوذا بأحداث الميادين وأخبار الثوار التي ظل يتابعها طوال النهار

وفي المساء عادت خدمة النت بشكل جزئي متقطع، ومع أول إطلالة على موقع الفيسبوك كان في انتظاره أجمل هدايا الفيس على الإطلاق ..
إنه طلب صداقة .. ؟ فرك عينيه مرتين ليتأكد من الاسم .. لم يصدق عينيه وهو يرى اسمها .. waad taher .. أهى هي ؟؟ .. كاد قلبه يتوقف من الفرح الطاغية .. وبالطبع قبل الطلب؛ فليس بوسع الأرض أن ترفض مطر السماء .. وبعد ذلك ذهب إلى المطبخ ليعد لنفسه فنجانا من القهوة .. يريد أن يكون حاضر الذهن حينما يحادثها .. فليس بعد طلب الصداقة إلا بدء حوارات الأصدقاء .

أرسل رسالة على صندوق الحوار الخاص، كتب فيها : السلام عليكم .. لم تكن حينها متصلة ... فظل ساهرا على أمل أن ترى رسالته .. خمس ساعات قضاها يتردد بين المواقع ويعود إلى الفيس مع انقطاع متكرر للخدمة، يعود ليضع بصره على ذلك الاسم المحبب في انتظار أن تضاء أمامه نقطة خضراء تعني أنه متصل .

وأخيرا في الواحدة صباحا .. أضاءت تلك النقطة الخضراء أمام اسمها فارتبك .. وانتظر .. وانتظر .. ثم انتظر .. يبدو أنها لم تر الرسالة .. فكتب أخرى .

- مساء شريف يا دكتورة .

جاءه الرد بعد ثوان معدودة ..

- مساء أشرف يا دكتور ..

- أنا مثلك في التأيد القلبي؛ فحولي محاذير تمنعني من الإصرار بموقفي ..
وإلا خسرت كثيرا .
- تقصد العمل ؟
- والعائلة، فكلهم يرفضون ما يحدث .. إذ نشئوا على الانتماء إلى الحزب الوطني .. وللأسف الشديد كنت معهم .
- كذلك عائلتي .. و مع أي لا أسعى إلى تغيير قناعاتهم فإني أواجه صعوبة بالغة في شرح قناعاتي .
- أن تعرفي هو المتعة والعذاب معا، وربما كان الوعي أشد خطرا على الإنسان من الجهل ...
- فعلا، لذا يبدو أننا سنظل نشجع من أمام شاشات التليفزيون .. فهو أكثر أمانا في نظري .
- ولكنه أكثر لؤما في نظري .
- أو من أنه لا يمكننا تغيير العالم بالكلبات .. ولكن تغييره بالدم ليس بمقدورنا .
- أنكتفي بالمشاهدة والدعاء ؟
- لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .
- لكننا نحدد وسع نفوسنا بحسب مصالحنا ..
- لسنا أبطلا .. ولا نسعى أن نكون .

منافسة غير عادلة ..مباراة من طرف واحد ... كيف سيتغلب على رجل يتمتع بكل صفات الرجل الكامل من وجهة نظر النساء، المال والمنصب والنسب الرفيع .. كل شيء .. إنه لا يملك إلا حبه، وليس الحب بشيء في ذلك الزمان القبيح .

ولأنها كانت مناقشة بطعم العسل وحوارا بنكهة التفاح .. فقد ظل مستيقظا .. لم يستطع النوم أو بالأحرى لم يرده، فمتعة النوم ستفقدته متعة أخرى، طفق يستعيد الحوار كلمة كلمة حتى استظهره .. ويتأمل الحروف حرفا حرفا حتى أحب تلك الحروف وهام بها عشقا ..

وكذلك فعلت .. إذ أخذت تفكر جديا في موقعها بين الرجلين .. وكلما تبدت لها مزايا المؤمنس ظهرت فيها يقابلها عيوب لعمر الذي لم يتحرك قلبها له، كانت تنقم من عمر كبره وغروره ..لقد شب في مهد الدلال ولم تطرق أذنه يوما كلمات التوبيخ أو الوعيد، بل إن كل ما يستمع إليه هو كلمات المديح والإطراء، وكانت لا تحب فيه حديثه الاستعلائي ونظراته الفوقية للناس ... وهكذا بدأ قلبها يجد الحشيات لقبول مؤنس عبر إيجاد العيوب لعمر .

لقد وازنت بين رجلين أحدهما هو حلم كل فتاة والآخر بات حلم قلبها وفارس خيالها، أحدهما هو الأمان الكامل لأسرتها ومستقبلها .. والثاني هو الحلم الكامن في الروح .. لم قابلتك أيها الغريب ؟ لقاءك لم يجلب لي إلا القلق ولن يجلب لي إلا الشقاء .. ظلت تفكر حتى غلبتها الرقة وهزمها وجيب

القلب، فما راعها إلا دموع تتساقط لا تدري ما تسميها وهي ليست دموع حزن وليست دموع فرح .. أدركت وهي تمسح تلك الدموع أنها دموع الحب، وأنه لا حياة تستحق أن تسمى كذلك إن خلت من مؤنسها ..

الآن حصحص الحق وانبليج صباح الإعلان الرسمي عن وقوع وعد طاهر في قيد الحب الذي لا فكاك منه، ولكن أهو الحب الذي ينتهي نهاية طبيعية بالزواج حسب الأفلام أم الذي ينتهي بالفراق حسب الواقع ؟ .. إنها لا تعلم.

ساعات من السهر كانت كفيلة بأن تؤثر في وجهيهما عندما يلتقيان في الصباح، وكان طبيعيا أن يبدو للسهر محلا وللتعب موقعا في العيون .. إلا أن السعادة الغامرة كانت أقوى من السهر، والحب كان أمضى من التعب ..

فكانت عيونها تألق بريق فيروزي ووجهيهما ينيران بهالة من الحب يراها العاشقون فيفهمونها ويبصرها أهل الحب فلا ينكرونها .

اللقاء في رواق الكلية يوم (الاثنين) كان سريعا تضمن التحية والابتسام دون أي شيء آخر، وقد أراداه كذلك .. عجيب أن كليهما اعتمد الطريقة نفسها في الإيقاع بالآخر والاستحواذ عليه .. طريقة التجاهل واللاهتمام، فالحب في رأيه صيد والصيد الماهر يمرر الطعم أمام السمكة ثم يبعده من أمامها ليزيد رغبته في ابتلاعه ثم أنه لا يأخذ الطعم بعيدا كي لا تيأس منه، هو التوازن بين أن تكون موجودا بلا ملل، وغائبا بلا نسيان .

وهي تعلم أن الحب هو فن تربية الأطفال، فالرجل طفل كبير إن أكثرت من الطعام أمامه يعافه وإن رفعت الطعام اشتهاه .

كانت طريقة علما أنها ناجحة وهي كذلك، فقد دفعت كليهما عن الآخر في الظاهر ودفعت كليهما إلى الآخر في السريرة، فأبديا التجاهل والقلب يشتعل بحب أسر يوشك أن ينفجرا به صائحين لولا أن منهجهما لا يرتضي لهما ذلك النكوص؛ فقد ظنا معا أن أية لفطة تدل على اهتمام أو إعجاب ستكون بداية الهزيمة وستنهار الخطة بشكل كامل .

بعد لقائه السريع ذهبت إلى مكتب خالها وهي تقول: التزمي بالخطة يا فتاة؛ فما أكثر أن نفقد الأشياء لكثرة وجودها .. كانت تعلم من صديقاتها أنه ذو تاريخ حافل بالغزوات النسائية ولا تريد لنفسها أن تكون إحدى هؤلاء .. عقلها يقول احذري من زير النساء وقلبها يقول اطمئني فهو يحبك أيضا .. ولكن كيف تدفعه إلى الإفصاح عن شعوره؟ هذا ما لم تقرر به بعد .

ومضى إلى مكتبه وهو يقول لنفسه : لا تتعجل الأمور يا فتى؛ فالحب الألد يشبه الشاي الذي كان يصنعه جدك على مهل في الحقل ويقلَّب فيه السكر بعضا صغيرة من حطب القطن، لم تكن المتعة في الشاي نفسه بل في جمع الحطب وانتظار إنضاج الشاي، إنه كرحلة طفولية تستمتع فيها بالطريق أكثر من استمتاعك بالوصول، كقصيدة بأسرك مطلعها فلا تنتبه إلى بقية أبياتها .. انتظر إذن إلى أن ينضج الشاي وفي أثناء ذلك استمتع بالطريق ومطلع القصيدة ..

- كنت أتابع نقاشا حول أمر ديني ..
- وهل راقك ؟
- بل أزعجني .
- وماذا أزعجك ؟
- أزعجني فهم سقيم أنجب تطرفا شديدا وتبعية عمياء ..
- وماذا كنت تنتظرين؟ هذا طبيعي وخاصة في الأذنان والذبول الذين يتبعون من يسبقهم في المشيخة دون تفكير .
- ولكنني وجدت بينهم اختلافات تافهة في أمور لا مبرر للاختلافات فيها .
- وهذا طبيعي أيضا؛ فما بين منتهى التطرف ومنتهى التفريط تجدان آلاف الدرجات .
- كيف ذلك ؟
- إن أفكارنا عن الأشياء ولاسيما الدين كبصمات الصوت والأصابع، ومن المحال أن تجدي تطابقا بين شخصين في كل الأمور .
- حتى وإن كانا أتباع نفس المذهب ؟
- حتى أتباع نفس المذهب، بل إن الشخص نفسه ربما يغير قناعاته فيكون هو اليوم مختلفا عن هو الأمس .
- المصيبة أن أكثرنا متشددون حمقى، نضيع بين حمى الجدل وهذيان الانتصار الزائف للنفس والرغبة المحمومة في التحدث باسم الإسلام .

- هؤلاء المتزمتون أسرى لشهوة التحليل والتحرير والتسلط على الناس بدعوى الإفتاء في حين نجد الدين يسع الجميع في رحابة ويسر .

- عشت في أوروبا كما تعلم، وعلمت أن الفرق بيننا وبين أمم التقدم أن اختلافاتنا السطحية تجعلنا أعداء وخلافاتهم العميقة لا يلقون لها بالا ليظلوا متحدين، مشتركننا العريض يتضاءل أمام ضيق عقولنا، ومختلفهم الواسع يظهر كنقطة سوداء في سعة عقولهم .

- لأنهم في زمن الأمة ونحن ما زلنا في زمن القبيلة .

- الأخطر أنهم يقتاتون على معاركنا؛ فبقاؤهم رهن باستمرار عداواتنا .

- وهم - للأسف - ناجحون في مهمتهم .. يديرون معاركنا بذكاء واحترافية .. يذكون العداوات ويؤججون الفتن ونحن ننصاع دون أدنى مقاومة .

- العجب في أننا نعي ذلك .. نفهم جيدا ما يحيكه العدو لنا، ولكننا نقف بلا حراك، لا نرفع يدا لنحمي أنفسنا ولا نتخذ وسيلة لندحض مساعيه .

- لم نعد نملك من الأمر شيئا .. ولعل الأمل الوحيد في صحوة الشعوب التي نعيشها اليوم إن لم تمت خداجا أو سقطا .

- أحيانا أنخيل أننا كمن يواجه كابوسا مرعبا نرى فيه وحشا شديد القبح يطاردنا ونحاول رفع أصواتنا لطلب النجدة ولكن أصواتنا تنحبس في حلوقنا ولا تجد مجالا للخروج فنحاول العدو لكن أرجلنا ثقيلة ومقيدة .. والوحش يقترب .

كامل وبات يطارده في الصحو والمنام ملاحها وعطرها وصوتها وكل
تفاصيلها .. في حين بادلتها الأميرة نفس الشوق وتملكها ذات الترقب .

مضت السنة ومؤنس حاله من علو إلى علو، يثبت كل يوم أنه على قدر المسؤولية وأنه حقيق بذلك بالمنصب، وقد عرف ذلك له العامة والخاصة، لكن بعض الجنود من رجال الشرطة كانوا يخضعون لمؤنس في العلن ويباطنون ابن عمرويه في الخفاء، ولأن مؤنسا كان على علم بهم وبدخائل نفوسهم فقد جعل يعالج نفوسهم بالشدة حيناً وباللين حيناً يريد أن يستل من قلوبهم الضغن ويغرس الوداد، ولما أعيته الحيل في إصلاح قلوبهم اختار أن يظل على حذر منهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ثم أخذ يحتال في التخلص من بعضهم بإرساله في مهام بعيدة ويكلف بعضهم بأعمال يعلم أنهم لا يحسنونها ليتخذ من ذلك ذريعة لإبعادهم .. وقد نجح إلى حد كبير في أن يحيط نفسه بالمخلصين له بعد أن ظل زمناً يعاني من افتضاح خطواته ونقل أسرار العمل إلى خصومه .

كانت معاركه مع هؤلاء لا تنتهي، فلما قص منهم الريش وشذب الاظافر زادت نقمة ابن عمرويه عليه، ومن ثم ابن المعتز، واتفق أن دعاه الوزير العباس ابن الحسن مرة إلى داره؛ ليشهد ما يدور فيها من حديث حول الشعر والأدب والأخبار والمغازي، ويتطرقون إلى ما يحدث في بلدان العالم وما يأتي من أخبارها، وربما استخفهم الطرب فيباشرون بشرب الخمر، وكان مؤنس يحب تلك المجالس التي شهد مثلها في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إبان خدمته للطاهريين .

كان سنام المجلس وصدر القوم هو ابن المعتز؛ ولم لا؟ وهو الأديب الشاعر الناقد الذي نشأ في الرواية والسماعة وبضاعته أنشدنا وحدثنا، كان ذا زينة ووقار، أسمر الوجه صغير العينين خفيف اللحية ويخضب شعره بالسواد .

ولما دخل مؤنس والقوم مجتمعون ألقى السلام فردوا إلا ابن المعتز، فطاف بالقوم يصفاحهم فسلموا عليه وقفا تقديرا لصاحب الشرطة، بينما مد ابن المعتز طرفا واهنا وهو قاعد ..

لم يغضب مؤنس من ذلك الأمر، فهو يظن إلى أن لابن المعتز منزلة لا ينبغي التعامي عنها، إنه وإن لم يكن الخليفة إلا إنه ابن المتوكل وحفيد المأمون وسليل الرشيد وابن أخي المعتضد وابن عم المكتفي؛ فله أن يصفاح الناس قاعدا وليس في ذلك من بأس ..

جلس حيث أجلسه الوزير على الذي استقبله في حفاوة تليق بأمر ينضم لمجلسه لأول مرة، فلما رأى ابن المعتز تلك الحفاوة امتعض وجهه، لكنه كتم ذلك في نفسه .

إنها قاعة فسيحة زينت بأجمل النقوش وأضيئت بأجمل المصابيح وحفت بكل الطيبات، فتلك وسائد لينة ونمارق مصفوفة، وثم فاكهة وشراب، وثم جوار حسان لسن بقاصرات الطرف، يغنين على أنغام الموسيقى وبمصاحبة الدفوف .. يطلب أحد الحاضرين أن ينشدن صوتا لقيس .

بليلي العامرية أو يراح

كأن القلب ليلة قيل يغدى

تجاذبه وقد علق الجناح

قطاة غرها شرك فبات

لها فرخان قد علقا بوكر
 فعشهما تصفقه الرياح
 فلا بالليل نالت ما ترجي
 ولا بالصبح كان لها براح
 ثم يطلب آخر صوتا لذي الرمة .
 لم أنسه إذ قام يكشف عامدا
 عن ساقه كاللؤلؤ البراق
 لا تعجبوا إن قام فيه قيامتي
 إن القيامة يوم كشف الساق
 ومع غنائهن قد يتمايلن مع أثر الطرب فيظهرن جمالا يرفع من قدر المتعة في
 ذلك المجلس البهي .

وبصحة الغناء دارت كئوس الخمر على الجالسين فشربوا إلا مؤنسا؛ إذ
 يستحرمها ويجب أن يحتفظ بعقله واعيا لمهام عمله التي لا تنتهي، والقاضي
 أحمد بن يعقوب الذي ليس له أن يفعل وهو يقضي بين الناس ويؤمهم في
 الصلوات .

وبعد وقت قصوه في الحديث وسماع الغناء والطرب طلب الوزير من ابن
 المعتز أن ينشدهم شيئا من شعره، فأنشد :

وَحُلُو الدَّلَالِ مَلِيحِ الْغَضَبِ
 يَشُوبُ مَوَاعِيدُهُ بِالْكَذِبِ
 قَصِيرِ الْوَفَاءِ لِأَصْحَابِهِ
 فَهُمْ مِنْ تَلَوُّنِهِ فِي تَعَبِ
 سَقَانِي وَقَدْ سَلَّ سَيْفُ الصَّبَا
 حِ وَاللَّيْلِ مِنْ خَوْفِهِ قَدْ ذَهَبَ
 وَأَصْلَحَ بَيْنِي وَبَيْنَ الزَّمَانِ
 نِ وَأَبْدَلَنِي بِالْهُمُومِ الطَّرَبِ

فلما سمع مؤنس الإنشاد أظهر التطرب وقد استملح الإنشاد، فما راعه إلا
 ابن المعتز يقول له :

- أنفهم هذا يا تركي ؟
 - فأجاب من فوره :
 - ولم لا ؟
 - لم أحسب أن الخدم يفهمون الشعر .
- قال ابن المعتز عبارته ثم ضحك فتضحك أشياعه ممن ضمهم المجلس، يريد بذلك أن ينتقص مؤنسا ويظهر ضعفه، كي ينهزم مؤنس نفسيا أمام سطوته ومن ثم لا يبقى أمامه إلا الانصياع إليه، وفطن مؤنس إلى ذلك، وعلم أنه أوان الجلد وليس له إلا أن يرد كي لا يفقد هيئته؛ فهو ممن يرون أن حفظ ماء الوجه أولى من حفظ الدم .. فقال :
- لست خادما .
 - أليس اسمك الخادم ؟
 - بلى، ولكن ليست المسألة بالاسم .
 - بل إن اسمك هو عنوانك .
 - عنواني الفعال، ومن اسمه الخادم أضحي أميرا يقوم على الشرطة ويبسط الأمن في بغداد .
 - المهم أنه يبقى خادما .
 - المهم أنه ليس خادما إنما يخدم الخليفة .
 - ولو، يظل الأمير أميرا والخادم خادما .

- هو شرف أن أخدم الملوك من خلفاء المسلمين، وفي مذهبي كل ما خلا
الخلفاء سوقة .

فوجئ ابن المعتز ببديهة حاضرة وصوت قوي لا يبدو فيه التردد، فلم يرد أن
يختبر مؤنسا أكثر من ذلك خوفا على نفسه من ردود قد تذهب بمكانه من
القوم، فأحكم الإمساك بزمام غضبه.. ثم استأنف قائلا وهو يتصنع الابتسام:
- وهل فهمت الشعر حقا ؟

- إنه قريب المأخذ سهل المذهب، فكيف لا أفهمه ؟

- إن أثبت أنك فهمته فلك ما تطلب ؟

مال مؤنس إلى الخلف في حركة استعراضية مستنفزة ثم قال :

- مليحة متلونة مخلاف للوعد أصبحتك بخمر فأبدلك بالهم طربا .

كان العيون مصوبة على الرجلين اللذين أصبحا كديكين في حلبة، قد أحب
بعضهم ممن ينافسون مؤنس أو ينافسون عليه أن يكسب الأمير الجولة، وأحب
بعضهم ممن يقدررون عمله ويشجعون نجاحه أو ممن يكرهون ابن المعتز أن
يروا الخادم يتتصف لنفسه .

كان الوزير جالسا في ترقب وقد أحس بقرب عاصفة شديدة وقد أعجبه أن
يراه؛ ليلو الرجلين ويعرف قدرتهما؛ لأنه وإن كان يظهر الود لابن المعتز إلا
أنه كان يبغضه ويخشى على نفسه منه .. كان يوادعه في العلن خوفا من أن
تدور دائرة الزمان ويصير خليفة، فلا يستوزره، وعندما أنهى مؤنس جملة

الأخيرة صاح الوزير وقد طاب نفسا بإجابات مؤنس : لقد أوضح الرجل أنه يفهم كل كلمة أيها الأمير، وقد شرح أبياتك الأربعة بأقل عبارة .

فقال مؤنس في زهو، وليس في تلك الأبيات إلا ذلك .

فقال القاضي ضاحكا : هو صحيح على ما أرى، ووجب على ابن المعتز أن يفني بما وعد .

فابتلع ابن المعتز ريقه وقال وهو يحاول أن يخفي غضبه: إذن، سل ما تريد أيها التركي .

فقال مؤنس : هب لي تلك المليحة التي وصفت .

فقال ابن المعتز وقلبه يضطرم بنار الحقد: إنها صنعة شيطان الشعر وليست من الحقيقة في شيء، ألم تسمع بشيطان الشعر يا رجل؟

فقال مؤنس : بلى سمعت به، إنه كذبة أطلقها الشعراء ثم صدقوها، وإن كانت الجارية من صنع خيالك الشاعر الذي تسميه شيطانا فهب لي من جواريك أخرى .

فقال القاضي : فإن وهب لك جارية شوهاء ؟

فقال مؤنس : أضمن أن تكون مليحة حقا، فلن يرضى الأمير بأن يتهم بفساد الذوق وكلال البصر .

وجدها ابن المعتز فرصة ليدخل أفعى من أتباعه إلى بيت مؤنس .. فنادى ابن المعتز غلاما له وطلب إليه أن يأتي بجارية اسمها صبح، لقد كان داهية حقا يعرف كيف يقلب هزيمته انتصارا وكيف يجد النفع مما يُظن أنه مضر .

ثم قال: قد وهبتك أفضل جارية لدي، اسمها صبح، تجيد كل شيء وتقرض الشعر ولها علم بالأنساب والآداب .. ولكن اسمع مني يا تركي هذا الإنشاد وعه ..

فقال مؤنس : هات، فقال ابن المعتز :

نَصَحْتُ بَنِي رَحْمِي كُلَّهُمْ	نَصِيحَةً بَرَّ بِأَنْسَابِهَا
دَعُوا الْأُسْدَ تَفْرِسْ ثُمَّ اشْبَعُوا	بِمَا تَرَكَ الْأُسْدُ فِي غَابِهَا
وَمَا يُنْتَقَضُ مِنْ شَبَابِ الرَّجَا	لِإِزْدٍ فِي نَهَاها وَالْبَابِهَا
وَكَمْ دُهَى الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ	فَلَا يُؤْكَلَنَّ بِأَنْيَابِهَا
أَيَا رَبِّ أَلْسِنَةٍ كَالسُّيُ	فِ تَقَطَّعَ أَغْنَاقُ أَصْحَابِهَا

وعلا صوته واحتدت نبرته في البيتین الأخيرین كأنهما يحملان رسالة لمؤنس،

فلما انتهى من إنشاده قال لمؤنس : هل وعيت ؟

فقال مؤنس وقد فطن إلى مرماته التهديدي : قد وعيت أيها الأمير، ولكنني رجل لا يخاف .

فقال ابن المعتز متضحكا وهو يلتفت إلى جلسائه : أراك فهمت حقا، ولكنني أنصحك صادقا أن تخاف أيها الخادم .

فرفع مؤنس رأسه وقال متحديا: ما أرى وعيدك إلا كنفة واهية على صخرة راسية، فلك أن تبول كما شئت حيث تناطح البحران، ومن قبل ما قال شاعر أجود منك :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري
أطنين أجنحة الذباب يضير ؟
واشهدوا يا قوم أنني قد رددت عليه جاريته، فما لي بها حاجة .

خلال تلك الأيام كانت لقاءاتها بمصادفات مرتبة، فقد كانت تعلم مواعيده في الكلية، وكان هو يمر على العميد بسبب وبدون سبب لعله يراها عنده .. رآها في صباحات الاثنين والثلاثاء والأربعاء وحادثها حديثا عاما لا يتضمن المشاعر ..

كان في حاجة دائمة إلى جرعة إضافية من صوتها الملائكي ولكن الخطة تقتضي اقتضاب الحديث، وكانت تنوق إلى التزود بنظرة طويلة إلى عينيه إلا أن الخطة تحتاج غض الطرف .. هكذا مضى الأمر بينهما؛ فلا يتبادلان نظرة تبوح بوجيب الفؤاد، ولا يستطيل بينهما حديث يفضي إلى فهم ما وراء اللفظ. يعلمان أن المسيطر في علاقة الحب دائما هو من يبدي اهتماما أقل، فاجتهدا كلاهما في إخفاء إشارات الاهتمام وآيات الإعجاب، امتنع هو عن تمام التألق واكتفى بملابس شبابية بسيطة تعكس نشاطا وثقة بالنفس، واعتنى جيدا بشعره الأسود الفاحم ولم يخلق لحيته الخفيفة؛ ليحمل رسالة لها فحواها أن يوم لقاءها هو يوم كسائر الأيام، وامتنعت هي عن المبالغة في التبرج وهيأت نفسها لتنفيذ المخطط، فلن تبدأ بالتحية وستحاشى أية حركة يبدو منها انها تحاول إثارة إعجابه .

ولعل الباعث الأهم عندهما معا - سوى الحاجة إلى تحقيق النصر - أن حدسا ماكرا ينبئهما معا بأن قصتهما ستكون ملحمة عشق ورواية غرامية

طويلة، ولحن لا يعزف بألة منفردة بل يحتاج إلى أوركسترا كامل من الآلات؛ فليحرصا إذن على أن تعلو قصتهما لتستحق أن تصل إلى حدود الأساطير .

يعلمان أن أجمل ما في قصص الحب دائما هو البدايات، وهما يريدان الاستمتاع بكل لحظة في قصتهما معا؛ فقد علم أنه لا ينبغي أن يحتسبها دفعة واحدة وأدركت أنه لا يصح أن تغنيّه في نفس واحد، يرتب كل واحد منهما للحظة التي يسمع فيها حقيقة شعور الآخر، هي لحظة لا ينبغي لهما أن يسرعا إليها فالأمتع أن ينتظراها على مهل وتؤدة وأن يستمتعا بليلالي الأرق المضني، وأن يتجرعا ألم الانتظار اللذيذ، أو لذة الانتظار المؤلمة .

كان اللقاء الصباحي في الكلية جميلا لكنه لقاء رسمي، واللقاء المسائي على الفيس أكثر حرية لكنه أقل جمالا؛ إذ يخلو من سماع الصوت والتقاء الأعين واستكناه العطر ... كانا ينتظران المساء بلهفة ليتبادلا حديث المتعة من وراء الجدر .. إنها أكثر طلاقة وحرية وأكثر قربا على صفحات الفضاء الأزرق ..

إنه لأمر عجيب أن يكون القرب في البعد والبعد في القرب ..

إن الحديث من وراء المسافات ليس عفويا .. ولكنه يعطيك فرصة للتنفس وإخفاء المشاعر وترتيب الكلام واختبار أثر الكلمات قبل كتابتها .. ومن ثم تزيد المتعة مع كل عبارة تصوغها ثم تمحوها؛ لأنك وجدت الطرف الآخر يكتب الآن فتؤثر الانتظار أو لأنك رأيت عبارتك قد تقرأ على نحو خاطئ ..

الحديث المكتوب أكثر راحة لأن الحديث المنطوق تصحبه مؤثرات أخرى

تساعد على تحديد المقصود بدقة وربما نحتاج أحيانا أن نخفي أكثر مما نكاشف.

لم يفتن الحبيبان في غمرة سعادتهما إلى أن هناك رقيا يحصي عليهما الحركات والأنفاس وأن كل مقابلاتهما حتى أحاديثهما على الفيس كانت تحت سمع وبصر الغريم الذي كانت الأخبار المقلقة تأتيه عن تقارب أحس به لأول وهلة وقدر بذكائه أنه وشيك الوقوع .. كان عمر خصما لا يستهان به .. ورجلا لم يعتد الهزيمة أو يعرف الانسحاب .. إنه في سباق للفوز بملكة جمال الكون وسيدة كل العصور .. وهو يعلم أنه لن يهزم منافسه بطريقة نزيهة .. وليس ذا زمن الفرسان، فكان قراره في هذا الشأن طبيعيا .. إن لم يكن يستطيع أن يسبقه إلى خط النهاية، فليعمل إذن على تعطيله بشكل احترافي، وكل شيء مباح في الحب والحرب، وهو كأى صاحب جاه ومال يشعر باقتراب الخسارة فلا يلزمه أن يزدان بشرف القتال وتكافؤ الأقران وغير ذلك من العبارات الخالية من أي معنى ولا ينفك يرددها الفاشلون الضعفاء .

خلال ذلك الأسبوع كانت الأحداث تزداد سخونة، فالمحتشدون لا يغادرون الميادين .. وتضخمت كرة الثلج وبدأ الهتاف : الشعب يريد إسقاط الرئيس، وانضم إلى اللعبة لاعبون جدد، لم يكن غريبا أن يكون (عليّ) عنصرا فاعلا في الاشتراك في المظاهرات وتنظيمها بل قيادتها بحكم انتمائه لحركة من حركات التظاهر هي حركة ٦ أبريل، وظهر السلفيون على مسرح الأحداث حين تغير موقفهم الفقهي من تحريم الخوض في السياسة إلى إباحة ذلك؛

فأصبح عبد الله لا يكاد يرى من كثرة لقاءاته بإخوانه وتتبعه لدروس المشايخ واشترাকে في كل تظاهرة يسمع بوجودها، أما هشام فكانت مفاجأة كبيرة للأصدقاء حين اكتشفوا أنه عضو بجماعة الإخوان المسلمين .. لكن المفاجأة لم تغير شيئاً من نظرهم له، فكان ثلاثتهم يلتقون أحياناً في مظاهرة تضم الأطياف الثلاثة وتيارات أخرى، فيشعرون بسعادة غامرة .

أما مؤنس فقد ظل يشارك من مقاعد الجمهور، ولم ينزل في أية مظاهرة لأنه كان لراحته مؤثراً وبجهد ضئيل، ويخشى أيضاً من سوء العاقبة وانقلاب الأمور، لا يريد أن يتحمس لشيء إلا بعد أن يرى قدرته على الفوز، يفضل اللعب الآمن ولا يختار المجازفة، لكنه كان سعيداً بما يكسبه الثوار من أرض جديدة كل يوم وسعيداً بهذا الحراك الذي سيغير من شكل هذه البلاد التي تبيست مفاصلها ونخر السوس عظامها .

ظل بعيداً يرى الأحداث تليفزيونياً حتى مساء (الأربعاء ٢ فبراير)، ليلتها كان يستعد كعادته ليأخذ حظه من متعة الحديث معها في حين كان القدر يحجز له ما هو أعظم من ذلك .. إنها مكافأة الصبر وثواب الانتظار جاءت المكافأة في ثوب مكاملة منها .. يا الله .. إنها هي من تقول :
(ألو) ..

ساعة تأكد أن الصوت صوتها لم يعد عنده عقل يندهش به من طريقة حصولها على رقم تليفونه الذي لم يعطها إياه ؟ كان صوتها مختنقاً بالبكاء .

- د . مؤنس ، أنا وعد طاهر ، سأمحي لو أزعجتك .

- أهلا أهلا .. خيرا يا دكتورة ..

- لا أجد طماطم، وأخذت في البكاء ..

- ماذا ؟

كاد يضحك من عبارتها الغريبة، لكنه سمع بكاء حقيقيا فهم منه أن طماطم شخص وليست ثمارا، فأخذ هو في ضحك مكتوم، إذ ألحت عليه (إفيهاات) أثارها الاسم .. ولكنه تصنَّع الجد والاهتمام، ثم قال :

- اهدأي .. مَن طماطم ؟

- صديقتي .. فاطمة .. غائبة منذ الصباح ولا نعرف لها مكانا وتليفونها مغلق .

- ولم الفرع ؟ قد تكون في أي مكان .

- لأنها كانت في مظاهرة، ولم أعرف أحدا قد يساعدي إلا أنت .. قالتها واستأنفت النسيج .

- اهدأي واطمئني، سأبحث عنها ولن أعود دون أن أجدها، لكن لو تعلمين مكان المظاهرة فقد يضيق نطاق البحث .

- قالت لي عند مسجد القائد إبراهيم .

- اطمئني أذن، سأنزّل الآن .

- سأنزّل معك .

- لكن هذا خطر عليك .. قالها بلسانه بينما قلبه يهتف : الله الله .. ليتها تصر على النزول .

- لن أصبر على الجلوس منتظرة .

- فقال بلا تردد: فأين نلتقي ؟

- لا أعلم .

- شارع أبو قير أمام محطة سيدي جابر، لأنه مكان قريب من سموحة و ...
بعد أن نطق الجملة ندم؛ لأنه علم أنها ستفهم منها أنه قام ببحثه وعلم
مكان مسكنها بسموحة .. وكان يحاذر أن يقع فيما يفهم منه أنه اهتمام .. لكن
الفرحة بلقائها ولجوئها إليه جعلته يغتفر لنفسه تلك الزلة ويتجاوز ندمه
سريعا .

- نصف ساعة وأكون هناك .

انطلق بعد أن اطمأن إلى أن مظهره لا تشوبه شائبة و قفز في أول تاكسي
قابله .. وكان في المكان بعد ٢٠ دقيقة على الأكثر، .. هاتفها ليجدها في انتظاره
كما اتفقا أمام المحطة في سيارتها التي أهداها لها عمر .. ركب بجانبها وهو
يشعر أنه على البراق أو بساط الريح .. يكاد قلبه يقفز من ضلوعه، لكنه
تكلف التجهم احتراماً لدموعها ..

كان قد هاتف أصدقاءه من محترفي المظاهرات هشام وعبد الله قبل أن
يلقاها ليعرف خبر المظاهرة، فأخبراه بأن التجمهر مستمر، وأن رجال الشرطة
أطلقوا على المتظاهرين رصاصا مطاطيا وقنابل مسيلة للدموع، وأن هناك
مصابين جراء الرصاص والتدافع قد نقلوا إلى مستشفى الجامعة، وأنها عادا
إلى بيتيهما وبقي علي .. فأخبرها بكل ما عرفه منهما، ومن ثم توجهها إلى

المستشفى لبدأ البحث من هناك .. ولما لم يجدها بين أعداد من المصابين
تفرقت المشاعر بين الخوف والارتياح .. ثم ارتدا على آثارهما ليذهبا إلى موقع
المظاهرة التي لم تنفص بعد، فهناك يأملان أن يجدا طماطم ..
لكم تمنى في الطريق أن يطول البحث وأن يمتد لأيام أو أسابيع، أليس ثم
اختراع بوسعه أن يمسك الوقت ويحول دون تسرب الدقائق؟ ألا يوجد
سحر يمكنه أن يوقف الزمن حتى يقضي أربه بالنظر إلى عينيها ويطفئ غلته
بسماع صوتها الشهي؟

استطاع بحلو حديثه أن ينتشلها رويدا رويدا من حالة الحزن والقلق
ويشغلها بأحاديث أخرى .. حتى مرت عليها لحظات نسيت فيها طماطم
وانشغلت بالتفكير فيه وفي قصتها معا، تساءلت حتام تظل حابسة
لأشواقها؟ ومتى يتاح للقلوب أن تتهامس بما سكن فيها حين؟ .. كان
هاتفها يرن باتصالات كثيرة من أمها .. ولكنها كانت تسكته وتأنف كأنها لا
تريد مكالمتها .

وصلا إلى ما قبل المظاهرة حيث رأيا دخانا أبيض كثيفا في الأفق من خلف
البنائات قد عكسته الأضواء، وسمعا ضجيج الهتاف يحمله الهواء البارد إلى
آذانهم فتقع الرهبة في قلوبهما في الوقت نفسه .. أوقفها في مكان يبدو آمنا،
وترجل مسرعا إلى حيث المظاهرة وهو يطلب عليا على هاتفه ليجدا مكانا
مناسبا للقاء .. خرج إليه علي ليعطيه ملخصا عن الأحداث .. فبدا له أن يسأله
عن فاطمة لعله يعرفها .

- أتعرف فتاة اسمها فاطمة ؟

- فاطمة ماذا ؟

- حقيقة، لا أعرف .. انتظر قليلا ..

سألها عبر الهاتف عن اسمها كاملا، فقالت : فاطمة عادل عبد الغني .. فأخبر عليا، فقال له أنه يعرفها و أنها بخير بصحة آخرين من الحركة عند مكتبة الإسكندرية .. ولا خطر عليها هناك .. واستنتج أن يكون هاتفها قد نفدت طاقته .. تنفس مؤنس الصعداء .

- أليديك رقم أحد ممن معها ؟

- نعم، لدي كل هواتفهم، أطلب أحدهم ؟

- لا لا، تعال معنا أفضل .

- إلى أين ؟

- إلى المكتبة .

انطلق به إلى حيث وعد، فتح باب السيارة الخلفي وأركبه، ثم ركب بجانبها .. وطلب منها الانطلاق .

نظرت في عجب إلى ذلك الشاب الذي جلس ساكنا في المقعد الخلفي، ثم قالت :

- إلى أين ؟

- اطمئني، فاطمة بخير، وهي الآن عند مكتبة الاسكندرية .

- كيف عرفت ؟

أجابها وهو يشير إلى علي :

- صديقي علي وزميلي في السكن، طالب في الفرقة الرابعة بكلية الفنون الجميلة .. سيأخذنا إليها ..

- تشرفنا يا أستاذ علي .. أنا جد شاكرة لك .

- الدكتورة وعد يا علي .. تدرس تاريخ الفن .

- علي : أهلا وسهلا يا دكتورة، شرف لنا معرفتك .

انطلقت سريعا وبعد دقائق التقت فاطمة .. احتضنتها في لهفة تدل على مدي الارتباط بين الصديقتين، وحينما لمحت فاطمة مؤنسا تقدمت إليه مصافحة في حرارة، فبدا وجهها مألوفا له ..

- ألا تذكرني يا دكتور ؟

- صمت مؤنس لحظة يسيرة ثم قال :

- طبعاً أذكرك .. أتعتينا من البحث عنك يا طماطم ..

لقد تذكر الآن تلك الفتاة السمراء السمينة خفيفة الروح ذات الضحكة الرنانة أبدا والوجه الباش أبدا .. حين رآها أول مرة في المحاضرة بدت له وكأنها لم تشعر بحزن من قبل ولا تنهاب حزنا من بعد .. تذكر أيضا أنه كان يغبطها على تعاقدها الأبدى مع الابتسام والضحك، وأخيرا تذكر أنها واحدة من طالباته اللاتي تحمسن له، وكم بدا له من قبل أنها تحمل له التقدير والإعجاب، وذلك يظهر بطرائق شتى من السير على مثل مؤنس أن يفتن إليها؛ فزاد سروره لتلك المصادفة السعيدة؛ لأنه قدر أنه من المؤكد أنها تبادلا

حديثا إيجابيا بشأنه، وربما من الخير أن يطمئن الآن لمكانه لديها مادامت طماطم هي أثيرتها .

حكّت لها وعد ملخصا لما حدث منذ اتصلت بمؤنس، وبثتها بعض ما كان بها من قلق وخوف ثم ما أفسى بها من فرح، ثم انتحت جانبا وسارت إلى جواره بضع خطوات .

- لا أعرف كيف أشكرك ..

- أنا من ينبغي أن يشكرك ..

كانت تلك أول عبارة تحمل مضمون الغزل .. كانت أول رسالة غرامية يستنطق بها روحها .. رمى الحجر في الماء الساكن وانتظر الرد .. وجاء الرد فوق ما يشتهي ... جاء في صورة ابتسامة تتحدّى ابتسامة الموناليزا وتنافس ترانيم النسيم وتسخر من قوس قزح ... ثم تساءلت الجميلة في دلال وقد طاب لديها الحديث واستبانّت لديها سبيلُ الهوى:

- علام ؟

- على .. ثقّتك ... وأشياء أخرى ..

كانت أيام التجاهل السابقة بينهما قد أمضت الحبيين معا ونالت من فؤاديهما، فكأنهما كانا ينتظران تلك الانعطافة في مسار الأحاديث بينهما لييث كلاهما للآخر ما في قلبه .. فقالت وعد :

- وما الأشياء الأخرى ؟

بدا التردد على وجه مؤنس، فرغم نظرات وعد التي تقول له تشجع وكن جريئاً وهات ما في قلبك، إلا أنه أراد أن يطرق الموضوع طرقاً خفيفاً على أمل أن تعاونه على بلوغ المراد .. فالمسافة بينهما يجب أن يختزلاها معاً؛ إذ يخشى إن هو قطع كل الخطوات إليها وحده أن يعود خائب الظن مكسور الفؤاد وحده أيضاً .. فقال :

- من الأشياء الأخرى متعة رفقتك .. التي ستجعلني أتوسل إلى طهاطم أن تضيع غداً لنعاود البحث .

ضحكت ضحكة بدت له كلحن راقص ونعمة جيتار سعيد .. ثم قالت:

- لو كنت متفرعاً غداً لبحثنا عن شيء آخر .

- وما هو ؟

- غداً أقول لك .

- بالله عليك ..

- غداً يا دكتور .

- سيقتلني الفضول .

- غداً يا مؤنس .. سأكون في مكتبة البلدية في الواحدة ظهراً (باي باي).

كاد يتحول لطائر أو فراشة حينما سمعها تنطق اسمه مجرداً من الألقاب .. قالت جملتها الأخيرة وتحركت في اتجاه فاطمة التي كانت منخرطة في حديث عن الثورة مع علي .. أخذتها من يدها وانطلقتا إلى السيارة، وعند باب السيارة

استدارت لتلقي إليه بنظرة حملت كل ما أرادت أن تقوله ووصل إليه منها كل ما أراد سماعه .. لم تكن نظرة إلى العين بقدر ما كانت نظرة إلى القلب .
بقي مؤنس واقفا ليس بينه وبين الرقص فرحا إلا أنه يخشى أن يبدو مخبولا .. رقص قلبه بعنف .. وسكنت على وجهه ابتسامة غير قابلة للمحو .. وتاه عقله في توقع ما سيحدثان عنه غدا .. لم يشعر بالبرد الشديد ولا قطرات المطر التي بدأت في التساقط ولا بصديقه الذي وقف بجانبه وعلى وجهه ابتسامة مأكرة .. ظل كذلك حتى ناداه :

- دكتور

- ماذا يا علي ؟

- هل تعلم يا صديقي أن الجو شديد البرودة وأن ما يسقط علينا الآن يسمى مطرا ؟

- آه .. فعلا الجو بارد جدا ..

قالها ولم يتحرك من مكانه، وبصره مازال معلقا بمكان السيارة التي انطلقت، فقال علي :

- يبدو أن المخرج قد تأخر قليلا بإسقاط المطر بعد انتهاء المشهد

- ماذا تقصد أيها الماكرك ؟

- أقصد أن ننطلق الآن .. وحدثني عن حالتك في البيت إن أردت .

كانت تلك الليلة أسعد لياليه .. لم يحظ من قبل بليلة مماثلة إنها ليلة لا يجب أن ينسى منها أي شيء وبات يحار كيف يمكنه أن يسجل تلك اللحظات

لكيلا يفقدها، كيف يمكنه أن يحفر الأخاديد في رأسه ليضع فيها تلك
الأوقات وتلك الكلمات وتلك النظرات ويغلق عليها جيدا كي يستدعي بعد
ذلك كل لفتة وكل نظرة وكل بسملة وكل عبارة .. ما أسعده بتلك الليلة وقد
كسب فيها جولة جديدة و أرضا واسعة لقد نادته الجميلة بلا ألقاب
ووعده بغد يحمل كل السعادة .. وهل بعد ذلك من فوز ؟

كان الرد مفاجئاً وجريئاً وضرورياً أيضاً؛ ورغم أن مؤنسا كان رجلاً تقعه الرزّانة، ويسكته الحلم، إلا أنه قدر أن كرامته على المحك وأنه إن ابتلع التهديد دون رد ضاعت منزلته وذهبت أدراج الرياح مهابته، فلما أجاب بما أجاب، بلغ الغضب غايته مع ابن المعتز الذي أهين من خادم تركي وهو العباسي كريم المحتد، فهمّ بالوقوف فلم يكد يستوي واقفاً حتى وجد رأسه ثقيلًا وقد أقعدته الخمر، فقال في غضب وهو قاعد : لأعلمنك أيها الخادم الحقيق غدا من الصقر ومن الذبابة .

عند ذلك نهض مؤنس والتفت إلى الوزير وقال بمتهى الهدوء دون أن تفارقه ابتسامته : أيها الوزير، سأنصرف لأمرى، ولن أجيئه إكراماً لمنزلك ومنزلتك، دمت بخير، وأهنتوا بليلتكم وشرابكم أيها السادة .

مشى خطوات متأنية واثقة في طريقه إلى خارج القاعة وهو يسمع لغط القوم وتصايحهم، وأشار إلى أحد رجاله أن يبقى ليسمع له ثم ينقل له خبر القوم في الصباح .. مضى إلى بيته وهو يشعر بالخطر من جراء ما فعل؛ لأن ابن المعتز خصم لا يستهان به، وها هو قد أحفظه ولا يعرف كيف تطفأ تلك النار .. ولكنه كان راضياً عن ردوده ويحمد الله على توفيقه في رد صاع الإهانة بصاعين إفحام، وليكن بعد ذلك ما يكون .

ولكن الجميع بمن فيهم الفريق الذي أحب له أن يفوز أظهر التساخط عليه إرضاء لابن المعتز، فكانت قلوبهم معه ولسانهم عليه خوفا من تعرضهم لتقمة ابن المعتز .

بات ليلته وجلا متردد القلب بين لوم نفسه والثناء عليها .. لم يستطع أن ينام تلك الليلة وهو يعلم أن ابن المعتز لن يسكت على ما لقيه منه، وأن انتقامه ربما يكلفه الكثير، ثم جاءه خبر القوم في الصباح من الرجل الذي تركه بالأمس ليتجسس عليهم، جاءه الرجل من أقصى المدينة يسعى ليخبره بصدق توقعه .. إن الملاء يأترون به ليجعلوا الخليفة يعزله .

سقط في يد مؤنس وخاف العاقبة، وأحس ببعض الندم؛ لأنه جعل كيله في إهانة ابن المعتز وافيا، فما كان أحرأه أن يتسع صدره ويتحمل بضع كلمات لن يموت إن تحملها أو يرد بما يحفظ لنفسه بعض المكانة دون أن يشعل تلك العاصفة، لكنه حاول أن يطرد تلك الأفكار من رأسه ويقر نفسه على ما فعل وأخذ يتأهب بثبات لتحمل العواقب .

وبرغم كل شيء من الممكن حدوثه، فقد كسب مؤنس بتلك المنازلة اللسانية مهابة ألقيت في نفوس جمع من علية القوم وأصحاب النفوذ في الخلافة العباسية، وحكى من شهد لمن لم يشهد، فأصبح من ساعتها رجلا لا يستهان به في البلاط؛ إذ لا يتحدث كذلك مع ابن عم الخليفة إلا شجاع أو مجنون، وذلك يعني أنه سيكون مهيبا في الحاليتين .

لكنه أيضا - بدافع من الحذر وربما الخوف - فكر في طريقة يدفع بها الخطب المنتظر ؛ فسعى إلى صافي الحرمي ليخبره ما كان؛ فلعله يحتال له في طريقة تفسد انتقام ابن المعتز وزبانيته أو حتى تعطله ما استطاع إلى ذلك سبيلا، لكن حظه العثر لم يوفقه في العثور على صافي الحرمي في ذلك اليوم؛ إذ كان الحرمي في مهمة للخليفة، حيث يشرف على بناء قصر للخليفة في بقعة اختارها على نهر دجلة مما يلي الرصافة، وعندما سأل عنه أخبروه أن الحرمي في سوق الرقيق يتنازع للخليفة ما يستحسنه من الجواري والعبيد ليكونوا في خدمة الخليفة في القصر الجديد، فعاد إلى داره قلقا منتظرا ما تتمخض عنه الأحداث .

لم يكن ابن المعتز رجلا يترك تأره ويستنيم للأحداث، رسم خطة الانتقام ونفذها من فوره، ففي صباح اليوم التالي كان إفطار الخليفة أكاذيب محكمة وافتراءات خبيثة، أوغرت صدر الخليفة على مؤنس، كان البيدق الذي حركه ابن المعتز ليقوم بذلك هو القاضي أحمد بن يعقوب، لقد استطاع الرجل أن يسمم تفكير الخليفة ويغيره على مؤنس، وبعد ذلك غدا ابن المعتز على الخليفة ليحكم المؤامرة؛ فحكى للخليفة ما لحقه من إهانة على يد الخادم وزاد في ذلك أشياء لم تحدث، ثم ناشده بالله والرحم أن ينتصف له منه وإلا ضاعت هبة كل العباسيين، ومازال به حتى غضب له الخليفة واستجاب لمراده وأصدر أمرا بعزل مؤنس من ديوان الشرطة وإعادة ابن عمرويه .

نفذ الأمر وسرعان ما تناقل الجميع ذلك الخبر وأذيع بين الجنود أن ابن عمرويه قد عاد إلى منصبه فاغتم الجنود وغلبهم الحزن على أيام ولت، واستبد بهم الخوف على أيامهم المقبلة، ولكن كان قلقهم أكبر على ما سيقع لقائدهم مؤنس .

فوجئ مؤنس وهو يجلس على حجر مستو تحت شجرة في حديقة داره منتظرا ما تسفر عنه الأمور بابن عمرويه قد أتى في بعض رجاله إلى تلك الدار، تجاوزوا بخيولهم باب الحديقة وداسوا بحوافر خيلهم على عشبها الطري .. لما رأهم علم من إقبالهم أن أنياب ابن المعتز مغروسة فيه لا محالة وأن شمسهِ إلى أفول .. أنكر مؤنس ذلك التجرؤ وتمعر وجهه، ووقف ليلقاها حتى إذا ما وصلوا إليه وصاروا على بعد خطوات منه ترجلوا .. فلما وقف عليه ابن عمرويه لم يلق السلام، لكنه قال متشفيا :

- أمرني ابن المعتز بأن أقرئك سورة الوداع ويقول لك، كيف وجدت أجنحة الذباب ؟

تمالك مؤنس نفسه وقال في رباطة جأش وهو يعرض بابن عمرويه - ما أجدها إلا كنباح الكلاب .

قهقه ابن عمرويه وهو ينظر إلى رجاله فتضاحكوا معه وهو يقول :

- مسكين، لما يعلم النبأ .

فقال مؤنس :

- ماذا تعني ؟

- أعني أن الخليفة قد عزلك، وأنت لم تعد قائدا للشرطة منذ اليوم، فهيا
أخل تلك الدار .

أطرق مؤنس قليلا يعالج ما به من وخزات القلب وضيق الصدر ثم رفع
رأسه وقال في جلد :

- فاذكر إذ تركتك شهرا حتى تدبر أمرك، ولم أتعرض لك إكراما لسابق
مكانك .

- ذاك عهد قد مضى وولى .

- بل مضت المروءة وولى الشرف .

التفت ابن عمرويه إلى رجاله وقال :

- أرايتم يا رجال، صار الخدم يتحدثون عن المروءة والشرف .

فرد مؤنس سريرا :

- الخدم أفضل من اللقيط الذي رباه سقاء أزقة المنصورية .

قالها ثم تحرك وأخذ بضع خطوات تجاهه حتى لا يفصله عن ابن عمرويه
إلا ذراع، فاضطرب ابن عمرويه وخشي بطش مؤنس وتأهب رجاله للدفاع
عنه، ولكن ابن عمرويه اتخذل، وقال في ارتباك : لك مني أسبوع، ولا زيادة
فوق ذلك ... هيا يا رجال .. ثم اعتلى جواده وسحب نفسه ومضى خلفه
رجالاه .. وبقي مؤنس يتبعهم ببصره وقد نزل به هم كبير، حتى ابتعدوا عن
ناظريه فدار على عقبه وعاد ليجلس مكانه تحت الشجرة والغضب يملأ كيانه

لما عاد صافي الحرمي بلغه الخبر فذهب من فوره إلى الخليفة واجتهد في إثناؤه عن قراره، لكن الخليفة كان قد أصدر قراره، ولم ينصت إلى شفاعته الحرمي، وكان أقصى ما فعله الحرمي أن استصدر من الخليفة قرارا يقضي بأن يتولى مؤنس قيادة قافلة الحجيج الأولى إلى مكة ذلك العام، وأن يبقى هناك ليتولى أمر الشرطة في البلد الحرام، كان الحرمي يريد إبعاده عن خصومه خيفة أن يتسلطوا عليه بالأذى بعد أن جردوه من سلطته .

جاءه رسول من قبل الحرمي يطلبه، فذهب إلى دار الحرمي، فأخذ يطيب خاطره ويخفف من وطأة خبر العزل ثم أخبره بما لقيه من الخليفة من إصرار على قراره، و بشره بأنه سيكون قائدا لرحلة الحجيج إلى مكة التي ستتحرك بعد ثلاث وأنه سيمكث هناك ليتولى أمر شرطتها ريثما يدبر الأمر لعودته .. شكره مؤنس ثم ذهب إلى داره ليبدأ في التجهز للسفر .

في حزن وألم جهز راحلتين قويتين له ولابنه عمار، واشترى بغلة قوية ليحمل عليها ما ينفعه في الطريق إلى مكة وما يحتاجه عندما يقيم هناك إقامة لا يعلم كم تطول حتى يمهد له صافي الحرمي طريق العودة إلى بغداد كما وعد، في أثناء تجهزه أقبل صديقان له، أحدهما هو أبو واصل المري والآخر هو محمد بن الغنوي، كانا رجلين عربيين يعملان في ديوان الشرطة أحبهما مؤنس واختصهما بصداقته؛ لما وجد فيهما صدق النصيحة وإخلاص المحبة دون غرض، وكان يحب أن يمضي معها وقته حتى صار ثلاثتهم كأنهم إخوة رغم ما بينهم من تفاوت في المكانة .. كانا في حالة من الحزن والهمل واضحة حتى

إنهما كانا متمسكين بالرحيل معه لولا أن مؤنس لم يقبل منهما هذه التضحية بالحياة الناعمة في بغداد وترك الأهل والولد ليذهبا معه .

جاء إلى بيته رجال كثر من الجند والعامّة ليوذعوا الرجل وينقلوا له حزنهم على خسارته، كان من البدهي أن يكون كثيبا لا يطيق الحديث مع أحد ممن جاء ليواسيه وإن أظهر كثيرا من مظاهر التجلد؛ فبالنظر إلى ما فقده مؤنس بفقد المنصب كانت الخسارة كبيرة والهزيمة مؤلمة، ولم يكن سهلا عليه أن يتحمل ما قاله ابن عمرويه، وأن ينفذ فيه تهديد ابن المعتز .

بعد قليل من الوقت تحمل فيه صابرا كلمات المواساة التي تنزل عليه كسياط مؤلمة استأذن مجالسيه لقضاء أمر ضروري .. ثم ركب جواده وانطلق إلى ظاهر المدينة حيث كوخ ابن أبي زرعة .. كان الظلام قد حل والبرد قارس في هذه الليلة المظلمة من ليالي الشتاء .. المطر يهطل والفرس يسير بصعوبة بالغة في الأرض الموحلة .. ولكنه استمر في السير، لا يعلم إن كانت زيارة الكوخ ستريحه وتذهب همه أم تجلب له هما أكبر .. لكنه في كل الأحوال مضى حتى وقف على باب الكوخ ينادي على الشيخ : يا شيخ طاهر، فجاء الجواب منها حين ميزت صوته، ادخل أيها الأمير، فدخل فوجدها قائمة عند رأس الشيخ تسقيه ألوانا من الدواء وهو بين أنين لا ينقطع وبكاء يختلط بدعاء واستغفار وحمد، دخل مؤنس وهو لا يدري ما يفعل، فجعل يدعو للشيخ بالشفاء، ثم سألها:

- منذ متى وهو هكذا ؟

- منذ يومين، واليوم ساءت حاله فأصبح يفقد الوعي أكثر مما يعي .
- فهلا أعلمتمونا لنجلب الطبيب ..
- الله هو المداوي وذكره هو الدواء، وما كان أبي ليرضى بطبيب حتى لو استطعنا أن نبلغكم .

وإذا بالشيخ يغيب عن الوعي .. ينهض مؤنس من موضعه سريعا ليتحسس نبضه فيخاله قد انقطع من شدة ضعفه .. يسحب يده سريعا دون كلام .. وعندها تنهار الابنة باكية وقد ظنت أنها النهاية .. زاد ارتباكها وهو لا يملك لها نفعا .. ساد بينهما صمت مؤلم ثقيل لا يسمع فيه إلا نشيج الابنة ولا يرى إلا ارتعادها خوفا على أبيها .

وبعد قليل حدث ما يحسبه معجزة باهرة، لقد أفاق الشيخ وما به من بأس ... رأوه يجلس، والفتاة غير مصدقة أن أباهما يعتدل في جلسته .. بعد برهة قصيرة بدا كأنه في أتم صحة وكأنه كان نائما، فتهللت الفتاة وألقت نفسها على أبيها تحتضنه، فعجب مؤنس مما يراه وهم بالحديث لكنه سمع الشيخ يقول بصوت ضعيف: رحلة رابحة يا ولدي، لا تنسنا من دعائك، تعجب مؤنس من معرفة الشيخ بأمر الرحلة ولكنه قال لنفسه لعل أحدا أخبره ما جرى فقد عرف الناس كلهم بعزله، ولكن إن كان عرف خبر العزل فهل عرف خبر رحلة الحج أيضا ؟ .. فكيف ؟

لم يقف طويلا أمام تلك العبارة ليتأملها؛ فلم يكن مؤنس من المؤمنين بما يروى عن كشوف الصوفية وأحوالهم رغم ما حدث له من قبل مع ورد، فإذا

بالشيخ يستأنف قائلاً: رفعوك من حيث أرادوا خفضك يا بني، فلا تأس على ما فاتك واغتنم فرصتك، وحين يحين الوقت تذكر إنشاد عدوك .
كان مؤنس ينظر إلى الشيخ في عجب، كأن الرجل كان معه في كل ما مر به ..
فقال مؤنس:

- وما أنشد عدوي يا سيدي الشيخ ؟
- لا أعلم يا ولدي، فأنت من يجب أن يعلم إن كان لك عدو قد أنشدك شعراً أو ربما ينشدك يوماً .
- صمت مؤنس قليلاً يحاول أن يتذكر ما أنشد ابن المعتز تلك الليلة، فاستعصى عليه ذلك، ثم وجد الشيخ يقول :
- أبشر بأخري يا ولدي .
- وما هي ؟
- إن لعدوك عليك جوله وقد مضت جولته، فامض لما أَرَادَهُ اللهُ لك
- ولكن يا شيخ ..
- نظر الشيخ إلى الأرض ثم مد رجله وهو يقول :
- امض الآن يا ولدي ودعني أستريح .
- ولكنني أردت أن أسألك شيئاً ..
- لم يحن الوقت بعد يا بني .
- ومتى يحين ؟
- حين يأذن ربك، فلا تكن عجولاً، ألا تثق بموعد ربك ؟

- بلى، ولكني أريد أن يطمئن قلبي .
- تريث يا ولدي ولا تبع نصيب غد بربح اليوم .
- دمعت عينا مؤنس وهو يقول :
- هو الوداع إذن يا عماء .
- نظر الرجل إليه وقال بصوت يقطعه الحزن.
- إلى الملتقى يا ولدي .
- عندها علا نسيج الفتاة، وارتمت في أحضان أبيها، والشيخ يقول : لا بأس يا
- ورد .. لا بأس يا بنية .

- لما عادت وعد لقيتها أمها بإعصار من الغضب ..
- أين كنت يا وعد ؟
- كنت أبحث عن فاطمة .. وقد أخبرتك .
- وتعودين الآن وقد قارب الليل أن يتتصف ..
- وماذا في ذلك ؟
- لسنا في أوروبا .
- غريب أن تحدثيني عن التقاليد التي لم تقدسيها يوما
- أحدثك عن الأخطار لا عن التقاليد ..
- أية أخطار ؟
- كل الناس يتحدثون عن الانفلات الأمني وخطف الفتيات، وأنت لا تأبهين لقلقي وتجوّين شوارع الإسكندرية ليلا .
- أكنت قلقة فعلا يا أمي ؟
- ألسنتِ ابنتي ؟ ألسنتُ أما ؟
- بلى ولكن الأمر جديد علي فقط .. وعلى كلٍّ، أنا آسفة يا ست الحبايب ..
- قبلتها على خدها ومضت إلى حجرتها، لقد كانت سعيدة ولم ترد لنقاش
- معاد أن يعكر صفو ليلتها المفرحة .. ولكن الأم لم تتوقف .. ذهبت خلفها
- وهل وجدت مؤنسا في رحلة البحث عن فاطمة ؟

- ظنت أن أمها تعني بكلمة (مؤنس) رفيق طريق أو ما شابه ذلك ..

فقالت:

- لا تقلقي يا غالية وجدت من يساعدني على إيجادها .

- ومن مؤنس هذا .. أليس هذا اسمه ؟

صعقت وعد من هول المفاجأة . كيف علمت أمها بأمر مؤنس ؟ قالت بحدة :

- وما أدراك به ؟

- أليس هو الفلاح الذي ترأسلينه على الفيس بوك ؟

صاحت بها :

- أتجسسين على رسائي ؟

- تأدي يا بنت ... إنما أنا قلقة عليك ..

صاحت بحدة :

- أفتحت رسائي ؟

- يا ليتني فعلت ولكن للأسف ..

- ماذا ؟

- عمر هو من فتحها، هو من رآها وأبلغني وهو في غاية الاستياء .

علا صوتها مستنكرة :

- عمر ؟ أيتلصص على حاسوبي ؟

أشاحت الأم بوجهها وقالت :

- بدلا من هراء الخصوصية الذي ستتحدثين عنه .. عليك أن تحجلي من نفسك وتعتذري وتبحثي عن عذر للأمر كي يسامحك .

اقتربت من أمها ونظرت في عينيها نظرة غاضبة ثم قالت :

- أسألك .. أفتح حاسوبي ؟

- لا أعلم كيف ولكنه جاء اليوم ليراك، وقد طلبتك عشرات المرات ولم

تردي ...

- وطبعا فتح حاسوبي وعبث بخصوصياتي .

- المهم هو ما عرفه وليس كيف .

زادت نبرتها حدة وهي تقول :

- ليس عندي ما يدعو للخجل أو يستدعي الإخفاء، والمهم هو كيف عرفه،

وكيف سمح لنفسه أن يرى رسائلتي، والأكثر أهمية أنه خاطبك أنت في ذلك

.. أيشكوني لولي أمري ؟ .. أأنا تلميذة صغيرة في نظره ؟ قولي له إن عاود

محدثتك في هذا الموضوع إنني لن أكمل حياتي مع رجل يراقب تصرفاتي

كمجرمة .

- ماذا تقولين ؟ أجننت ؟

- لا بل تعقلت .. واعلمي أن هذا هو القول الفصل يا أمي .. لقد حسمت

أمري واتخذت قراري ولن أكمل مع عمر .

كانت كلماتها المنبعثة دون تفكير مفاجأة لنفسها، ما بال كلماتها تخرج منها

بثقة وتأكيد، وكأنها قد أعدت ردودها ؟ .. إن حديثها منطلق بلا تردد كجواد

نشط من عقال، ومع كل جملة كانت تحس ارتياحا وطمأنينة إلى أنها اتخذت القرار السليم، كان سلطان مؤنس على قلبها قد أحكم سيطرته، في حين كان نفورها من عمر قد بلغ غايته .. فعمر كان كشريك عمل أو رفيق سفر أجبرت على الجلوس بجانبه ولم تشعر من قبل بأنه شريك حياة، رشحت له فقبلها بمقاييس عديدة ليس من بينها مقياس المشاعر، وكذلك فعلت أو فعل لها، لقد أصدرت الآن حكما واجب النفاذ باستبعاد عقلها من التصدي للحكم في هذه القضية .. ولكن العقل قبل أن ينصرف قال لها: اطمئني فما كنت لأخالفك فأنا والقلب متفقان هذه المرة، امضي لما أريت من مشورة القلب وأنا على التأييد باق .

لم تستسلم الأم وحاولت أن تقدم النصائح وتسوق المبررات .. هددت وصرخت .. ثم احتضنت وتزلفت .. ثم هددت وصرخت، ولكن الآذان كانت قد أغلقت أمام كل كلمة من أم ما كانت لها يوما أما حقيقية أو صديقة مقربة .

فشمة علاقة متوترة بين فتاة نشأت على عدم الرضا عن سلوك أمها وأم لم تبال برضا الفتاة أو سخطها، ومنذ زمن والفتاة تساورها شكوك مزعجة، شكوك قامت على قرائن تعاضدت لتقول أن أمها امرأة مستهترة على أقل تقدير .. وشواهد تضافرت لتقول يا رحمة الله على أب مات وهو عنها غير راض .. كانت الأم على صلة قديمة بمعتز مرعي .. لم تفكر الفتاة في البنش في تلك الصلة؛ لأنها لا تبغي أن تشم روائح منكرة .. اعتادت في كل مرة أن

توقف البحث في هذه العلاقة مخافة أن نجد ما يفزعها .. ولما تقدم إليها عمر بحكم تلك الصلة ترددت كثيرا ولكنها استجابت أخيرا بضغط من الأم والخال وبحسابات المال والجاء .. وها هو قد آن الأوان لتصحيح ذلك الخطأ .. حين أتى من يخرجها أو من تخرج لأجله من ذلك المستنقع ..

أغلقت الباب خلف أمها الغاضبة المتحسرة على الرفاهية والنفوذ اللذين ستفقداهما منذ الليلة .. وكل هذ بسبب فتاة حمقاء لوث عقلها صعلوك وضع .. ولكن وعد لم تلق بالا لصراخها المستمر ولم تضعف لسماح بكائها المتصل . نامت الفتاة في طمأنينة بعد أن تخلصت من قيود أثقلتها .. ولكنها قبل أن تنام توجهت إلى حاسوبها بخطوات راقصة وهي تحتضن دمية ذات فرو ناعم .. جلست أمام الحاسوب .. فتحت نافذتي حوار وكتب رسالتين، أولاهما إلى عمر مرعي : عزيزي عمر: ليس سهلا علي ما أقول، ولكنني حاولت كثيرا أن أتقبل علاقتنا فلم أستطع .. إليك اعتذاري عن عدم استكمال ذلك وأرجو أن نظل صديقين .

والثانية إلى مؤنس همام : أحبك ..

أخذت تتأمل الرسالتين جيدا .. عاودت النظر فيهما مرات ومرات ثم مسحتهما .. قبلت دميتهما .. وأغلقت نافذتيهما .. ولكنها فتحت ذراعيها لأمل ستحتضنه الليلة وتنام قريبة العين .

نام الحبيبان هائنين في أسعد ليااليهما، أما الأوغاد فما ناموا ولا نام شيطانهم إلا بعد أن قرروا إفساد قصتهما؛ فساء صباح عاشقين ..

لقد كانت معلومة لقاء الحبيين على مكتب عمر مرعي في نفس الليلة .. حين جاءه النبأ استشاط غضبا واستحال كعاصفة شر وإيذاء في وجه كل من اقترب منه في تلك اللحظة .. صرخ دونما أسباب في كل مساعديه وموظفي أبيه؛ حتى تحاشوا غضبته واختفوا من أمامه، بينما قرر هو الإسراع بما كان ينوي فعله .

انطلق عمر إلى مكتب أبيه فوجده منشغلا مع رجلين يعرف عمر أنهما من أخص رجاله وأخلصهم .

- تعال يا عمر .
- أريدك في أمر مهم يا أبي .
- خيرا يا بني .. تكلم .
- مشكلة في الجامعة .
- ما هي ؟
- أحد موظفي الجامعة تجاوز حدوده ويجب أن يطرد .
- من هو ؟
- ولد اسمه مؤنس العبايدي .
- وماذا فعل ؟
- أساء أدبه معي وتناول علي .. و ..
- لا عليك، لقد أصدرت قرار فصله قبل أن تأتي .
- ماذا ؟ ... أعلمت بشيء ؟

- كلا، ولكنني اتخذت ذلك القرار لسبب يخصني سأخبرك به لاحقاً؛ لأن هناك ما هو أهم .

- ما هو ؟

- لا بد أن تغادر مصر بأسرع وقت .

- لم ؟

- تعلم ما يجري الآن من أمور في البلد .. وأخشى أن تسوء الحال فيضيع كل شيء .

- ومم الخوف ؟ ستنتشع تلك الغمة ويعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي .

- في ضوء ما أراه أشك في هذا، إن أمر الاحتجاجات يستفحل ولا أظن أنه سينتهي كما نريد .

- ومم نخاف ؟ تعاملاتنا سليمة وقانونية .

- لو أفلح العوام فلا حكم للمنطق ولا احتكام إلى قانون .. إنهم يا عمر جاهلون حققة، ينظرون إلى ما بأيدينا كأنه حقهم، وإذا أفلحوا في الإطاحة بالنظام فإنهم في تلك الأحوال لن يهتموا بتحقيق الشراء بقدر ما سيهتمون بتحطيم الأثرياء .. إن بغضهم لنا سيجعلهم يصنعون كل ما يلزم لمحونا من الوجود، كما أن بعض الاحتياطات لا يضر .

- وماذا قررت ؟

- خلال الأيام الماضية صفيت أكثر أعمالى وسحبت أموالى من البنوك .

- ولماذا لم تحولها إلى الخارج إلى أحد بنوك سويسرة أو الكاريبي كما يفعل الجميع الآن ؟

- سنشير الربية بتحويل أكثر من نصف مليار جنيه، وأخشى لو سقط النظام وتسلم الثوار زمام الأمور فسيطاردون كل الأموال التي خرجت .

- وماذا قررت بذلك الشأن ؟

- كان أمامي صفقة أخيرة مربحة جدا .. ماس ملون، وردي وأزرق له قيمة تاريخية عالية كان مملوكا لأسرة روسية ويعود إلى عصر القياصرة، وكمية أحجار كريمة أخرى، ياقوت ووزفير وتافيت وأحجار سبينل حمراء وأوبال، هذه الأحجار مع الماس قيمتها في السوق الأوروبية ما يقرب من ٩٠٠ مليون جنيه، اشتريتها بـ ٥٠٠ مليون فقط، أظن أن هذه الصفقة بها مكسب كبير، وقد دفعت فيه كل ما لدينا ولم أبق بمصر أي شيء تقريبا .

- وماذا ستفعل ؟

- سنقوم بتهريبها .. وإن لم تتمكن من ذلك فسنخفيها حتى يزول الخطر .

- فكرة جيدة .. وتهريبها سهل ...

- أيمكنك تدبر ذلك ؟

- بالطبع هناك أكثر من طريقة .

- إذن سأعتمد عليك .. ولكن تيقظ جيدا واختر أكثر الطرق أمانا ..

- لا تخش شيئا ..

- إنها جل أموالنا يا عمر، وغير مقبول وقوع أي خطأ .

- اطمئن تماما فهذه لعبتي، وليست تلك أول مرة .

- لكنها أهم مرة .. فاحذر .

خرج مؤنس الخادم من عند الشيخ وقد تغير كدره وأشرق في وجهه .. عاد من الطريق نفسها دونما برد يزعجه أو وحل يعوق انطلاق جواده، لقد ترك قلبه لدى الشيخ وهو في غاية البشر، فقد غلب عليه اليقين بأن الشيخ فهم مقصده وأدرك نواياه في طلب الزواج من ورد، وعدّ كلمات الشيخ وعدا له بالموافقة حين يرجع من رحلة مكة، كما علم أن بكاء الفتاة بتلك الحرقه علامة على الأسى لفراقه، فما أسعده وقد طابت نفسه بكلمات هذا الشيخ المبارك وبشره، وارتاح قلبه لما ظهر له من أمارات الحب وآيات التعلق عند محبوبته .

وبعد يومين كانت الرحلة الميمونة قد تحركت بعد وداع بالأهازيج والمدائح النبوية ودعاء ببلوغ الوجهة والفوز بالقبول وأمن الطريق، وكانوا فعلا بحاجة للدعاء بأمن الطريق؛ فقد كانت الطريق غير مأمونة لما يترصد لهم من خطر القرامطة الذين كانوا يريدون الانتقام لمقتل قائدتهم ذكرويه بن مهرويه منذ سنوات، إنه لا يزال يذكر ما حدث حين جاء الخبر إلى المكتفي بما فعله ذكرويه بقوافل الحجيج، كانت فاجعة أدمت القلوب لسماعها .

ذلك أن ذكرويه كان قد ارتحل من موضعه في بادية الأهواز بعد أن أعلن نفسه واستجابت له قبائل من عرب الشام يحركهم في ذلك كره قديم لكل بني العباس .. خرج من موضعه يريد الحاج، ينبغي أن يقطع الطريق على قوافل الحجيج في بلد يسمى واقصة، وكانت قوافل الخليفة ثلاث قوافل متتابعة تمر

من الموضع ذاته، فعلم أهل البلد بخروجه، فأرسلوا النذر إلى القافلة الأولى التي كانت قد فارقت البلدة منذ وقت قليل وعسكرت على بعد يوم منها .. أبلغوهم أنّ بينهم وبين القوم أميالا قليلة فأوجسوا خيفة ولم يقيموا وارتحلوا من فورهم .. أمنت القافلة في السير تريد النجاة، وحينما اقترب القرمطي من واقصة أرسل يسأل أهلها عن القافلة، فلما أخبروه أنّها رحلت من فورها، علم أنهم أنذروها؛ فالقافلة التي تبغي الراحة عند عيون الماء بالقرب من واقصة والتزود بما يلزمها ما كانت لترتحل عنها بتلك السرعة إلا لنذير، فأظهر غضبه على أهل البلدة وقتل بها جماعة كانوا خارج حصنهم فخاف أهلها ولزموا الحصن، فلم يقدروا ذكره عليهم ورحل هو ورجاله عن واقصة بعد أن عوّروا مياهها وملأوا بركها وآبارها بجيف الإبل والدواب، فما كان من أهل واقصة إلا أن أرسلوا أحد رجالهم بالخبر إلى القافلة الثانية لينذروهم وأرسلوا آخر إلى بغداد ليطلبوا من الخليفة أن يقتص لهم من القرامطة .

وسار ذكره حثيثا خلف القافلة الأولى فأدركهم، وانكب أصحابه على الحجيح يقتلونهم كيف شاءوا، فقتلوا الرجال وسبوا من النساء من أرادوا واحتوا على ما في القافلة .

ولما وصلت كتب أهل واقصة إلى القافلة الثانية لم يسمعوا ولم يتلبثوا، وتقدّموا في استهانة واضحة بذلك الخطر وهم لا يدرون أنهم سائرون إلى نكبة ما سمع المسلمون من قبل بمثلها، كانوا يظنون أنهم قادرون على صد هجوم ذكره .. فوافوا القرامطة في منزل العقبة، وكان يقود الحامية رجل

يدعى أبا العشائر وهو فارس مشهور لكنه كان به بعض التهور والاندفاع والثقة التي ليست في محلها .. أقام مع أصحابه في أوّل القافلة وأمر رجلا يدعى مباركا القمي فيمن معه في ساقتها، فجرت بينهم وبين أصحاب ذكرويه حرب شديدة حتّى كشفوا القرامطة وأشرفوا على الظفر بهم، لكن القرامطة وجدوا من ساقتهم غرة فركبوهم من جهتها ووضعوا رماحهم في جنوب إبلهم وبطونها فطحنت الإبل راكبيها فتمكّن أصحاب ذكرويه منهم فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم إلّا من استعبدوه، وقتلوا مباركا القمي وابنه وأسروا أبا العشائر، وجمع القتلى فوضع بعضهم على بعض حتّى صاروا كالتلّ العظيم ثمّ قطعت يدا أبا العشائر ورجلاه وضربت عنقه، وكانت القرامطة يصحبون معهم نساءهم وأطفالهم فكان نساء القرامطة مع صبيانهم يطفن في القتلى يعرضون عليهم الماء، فمن كلمهم من الجرّحي أجهزوا عليه .

وكان في القافلة زهاء عشرين ألف رجل قتلوا جميعهم غير نفر يسير قوى على العدوّ بغير زاد فأقلت يعدو أو من استعبدوه لخدمتهم .

لم يترك ذكرويه الفارين ينجون هربا لكنه أنفذ إلى ما دون العقبة فوارس لحقوا من أقلت من السيف، فأعطوهم الأمان وحلفوا لهم بذلك، فرجعوا يحدوهم الأمل في استئناف الرحلة أو العودة بسلام، لكن الفجرة غدروا بهم وقتلوهم عن آخرهم وسبوا من اختاروا من النساء، وأطلقوا منهن من لم يرغبوا فيه وحملوا الأموال والأمتعة .

وكان هناك بعض الجرحى قد أفلت منهم قوم وقعوا بين القتلى، فتحاملوا في الليل ومضوا، فمنهم من مات في الطريق ومنهم من نجا وهم قليل .

كانت مأساة آلت كل إنسان وفجع بها كل ذي قلب، فلما وصل الخبر إلى المكتفي عظم الخطب عليه وعلى الناس جميعا، وخاف على ثلاثة القوافل فأنهض وصيف بن صوراتكين ومعه من القواد جماعة فيهم مؤنس يقود فرقة من الجيش للقاء ذكرويه، فلقي ذكرويه قريبا من بلد يسمى فِيد، فاقتتلوا يومهم ثم حجز بينهم الليل، فباتوا ليلتهم يتحارسون، ثم عاودهم القتال فظفر بهم جيش المكتفي بفضل خطة بارعة أشار بها مؤنس على وصيف ونفذوها بمهارة، فقتل منهم مقتلة عظيمة وخلصوا إلى ذكرويه فضر به بعض الجند بالسيف وهو موّل على قفاه ضربة اتصلت بدماغه، فسقط على الأرض فأخذ أسيرا هو وخليفته وجماعة من أقربائه وخاصته فيهم ابنه وكتبه وزوجته، وعاش ذكرويه بعدها خمسة أيام ثم مات، وحين بلغ الخبر الخليفة نسبوا الفضل كله لوصيف بن صوراتكين فخلع عليه وأقطع إعطاعا في دار السلام ونسي مؤنس ولم يذكر بخير أو بشر .. فألمه ذلك الأمر أشد الألم .

كان مؤنس هذه المرة على القافلة الأولى، وهي تعد كالطليعة لثلاث قوافل أخرى أعظمهن خطرا هي الثالثة التي يكون فيها القواد والكتاب وجلة القوم وفيها الأموال التي تحمل من قبل الخليفة إلى البلد الحرام ليفرقها أميرها في فقراء مكة .

كان المشهور بين الناس أن الخروج إلى طريق الحج مخوف بالمهالك، إن لم يكن من القرامطة فمن السيل أو العواصف أو البرد القارس أو من شح المياه أو المرض أو لدغ الثعابين والعقارب، لذلك فقد اعتاد الحجيج حمل الزاد والسلاح والأكفان وتوديع ذويهم بأعين دامعة وقلب حزين، ولا يخرج إلى الحج أحد إلا وأمل العودة عنده أمل بعيد، ولكنهم في القافلة العباسية التي يجري التحضير لها قبلها بأشهر يكونون أكثر شعورا بالأمن؛ لأنهم في حماية جنود الخليفة .

حينها لم يكن خطر القرامطة قد انتهى بعد فلزم مؤنس الحذر منذ سار بالقافلة، ولأن عدد المقاتلة معه كان قليلا فقد اعتمد أسلوبيين للوصول سالما، أولهما أنه بث الطلائع والسعاة السراع أمامه وخلفه كي يأمن من هجوم مفاجئ، والثاني أنه تنكب طريق الجادة وأخذ يسلك سبلا ما اعتاد الناس السير فيها، فبدلا من أن يتخذ طريق البصرة ويعبر وادي الباطن وصحراء الدهناء والقصيم أخذ الدرب المسمى بدرب زبيدة المنسوب إلى زوجة هارون الرشيد، وهو درب كان الراحلون إلى مكة لا يفضلون السير فيه بسبب تضاريسه الوعرة، وكان اعتماده في ذلك على أدلاء من العرب امتحن أمانتهم ومعرفتهم قبل أن يستعملهم، وكان يسير ليلا إن علا ضوء القمر في أيام البدر ويريح القافلة نهارا في مكان مناسب ويحرسها جيدا وبعد مسيرة خمسين يوما أشرفوا على دخول الميقات في ذات عرق .

طيلة أيامه الخمسين ظل منعزلاً عن رفاق السفر كأنه مسافر وحده، لا أنيس له إلا ذكريات الحقد أو ذكريات الحب، محتلياً بأوجاعه وأشواقه فلا يشاركهم في حديث أو طعام أو سمر .. حتى أسئلة ابنه عمار التي انهالت عليه طول الطريق كان يجب عنها بشكل مقتضب وأحياناً ينظر إلى الأفق ولا يجيب .

كان صامتاً معظم الطريق، ولم يكن يفعل أكثر من تدبير أمر القافلة بمهارة وحنكة وتدبير حاجات ولده الصغير من طعام أو شراب أو موضع مبيت، كان مشغولاً بما حدث وبما سيحدث .. استحوذ على قلبه ذكر ورد، واستحوذ على عقله حديث الشيخ طاهر ابن أبي زرعة .. ما يزال يرن في أذنه يستعيد كلماته ويقلب فيها وجوه النظر، اجتهد زماناً في تذكر إنشاد ابن المعتز ليصل إلى معنى يفهمه من حديث الشيخ فما أفلح وكأن ذاكرته قد محيت تماماً، لا يذكر إلا البيتين الأخيرين اللذين أثاراً حفيظته وجعلاه يجيب بالجواب الذي جر عليه ما يرى ..

وَكَمْ دُهِيَ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ	فَلَا يُؤْكَلَنَّ بِأَنْيَابِهَا
أَيُّ رَبِّ أَلْسِنَةٍ كَالسُّيُو	فِ تَقَطَّعَ أَعْنَاقُ أَصْحَابِهَا

وكان له رفاق يحلو لهم السمر وتذاكر الشعر، فسألهم مرة عن بائية لابن المعتز فيها هذين البيتين، فذكرها بعضهم وأنشدوها له، فظل يفكر فيها أياماً ويتساءل، أي بيت فيها يقصد الشيخ ؟

لم يكن يصرفه عن التفكير في تلك الأبيات إلا التفكير في ورد، كان يفتقد حديثها ويفتقد النظر إليها .

وجد مشاعره مفرقة بين سرور لأنه سيصيب الحج وما كان من قبل قد حج أو شهد المشاعر وبين أسى لصغار مكانته وضعة قدره وضياح مكاسبه في بلاط السياسة .. كان قد بذل جهدا كبيرا ليصل إلى مكانة استحقها قبل أن يبعده المكتفي إلى مكة .. أخذ يعلل نفسه بأنه أبعد على أثر وشاية قلما يخلو منها قصر أو تغلق أمامها أذن حاكم ويقول لنفسه : هو خير بإذن الله فمن يحزن لفراق أرض النفاق والدسائس وهو يدخل أرض الإيمان والهدى؟ .. لكنه في كل حال كان حانقا على ابن المعتز وابن عمرويه أشد الحنق، يتمنى أن يرى فيها يوما يشفي ألم قلبه .

خمسون يوما لم ير فيهن إلا الوهاد والنجاد والخصى والرمال والشمس اللاهبة ومنازل القمر، ولم يسمع إلا أصوات الإبل والخيول والبغال .. تلال تسلمه إلى أوديه وصحراء خلفها صحراء كأنها لا نهاية لها .. لا يخلو نهار من شمس حارقة وريح ساخنة تلفح الأوجه وتملأ الجو بالغبار حتى إن مرور غمامة دون الشمس ل يبدو في نظر المسافرين نعمة عظيمة، وإن مروا بواد تنتشر فيه بعض أشجار السيال فهو عندهم النعيم نفسه، ولا تخلو أكثر الليالي من برد مؤلم قاس يبلغ العظم فلا تدفعه نار ولا تحمي منه ثياب .

فلما بلغ ذات عرق أوقف مؤنس الركب؛ ليستريحوا ويغتسلوا ويُجرموا ومن ثم يستأنفوا السير من الغد .

وفي الغد شعر باطمئنان بعد زوال الخطر ظهر في بشاشته وتلطفه مع المسافرين، فأخذ يطوف بهم ويسأل عن أحوالهم ويمد الحديث معهم طوال المسير حتى مكة، وكأن الركب كله أحس ريح مكة فسار حثيثا يدفعه الشوق ويحركه السرور .

وأخيرا وصل إلى البلد الحرام ..

كان صبح وعد مختلفا حق الاختلاف مع أمسها، ففي صباح (الخميس ٣ فبراير ٢٠١١) استيقظت على صوت أنين وتوجع فقامت فزعة من نومها، وأسرعت إلى حجرة أمها حيث مصدر الصوت .. فإذا بأمها قد ارتمت بجانب سريرها وهي تتأوه وتبدو غير قادرة على التنفس ... صرخت في لهفة وارتياح على أمها ... لم تدر ما تصنع .. مرت لحظات عصيبة كلها دعر وارتباك حتى استعادت ثباتها وتصرفت على نحو معقول .. اتصلت على الفور بخالها وأوصته بإحضار الطبيب ثم حاولت حملها كي تضعها على السرير، فما استطاعت ذلك فأسرعت إلى جارة لها في الشقة المقابلة وطلبت مساعدتها، فأتت وعاونتها في حمل الأم التي فقدت وعيها، وظلت بجانبها، والفتاة يكاد القلق والبكاء يقتلنها وهي في انتظار الطبيب .

وبعد زمن قصير أتى الخال ثم أتى الطبيب، لم يكن هو طبيب والدتها الذي تعرفه جيدا .. قدم نفسه باسم الدكتور : مازن الصاوي، وذكر أنه جاء بطلب من الأستاذ عمر مرعي صاحب المستشفى الذي يعمل به .. تضايقت وعد من ذلك ولكنها تركته يقوم بعمله .. قام بفحص سريع .. ثم أخبرها بأنها لا بد أن تجري فحوصا أخرى في المستشفى وأنه سيطلب لها سيارة إسعاف لتحملها إلى المستشفى .. وبعد ساعة كانت في المستشفى .. لتجد أمامها عمر مرعي .

تجاهلته وادعت انشغالها بالأم في حين كانت تفكر كيف ستبلغه بقرارها ..
أما هو فقد أظهر جزعا لمرض الأم وقلقا على حياتها .. وبعد ساعة من
الفحص خرج الطبيب الذي فحصها بخبر مزعج ..
قال الطبيب : لابد أن تجري عملية دقيقة في قلبها على الفور .
وعد : أية عملية ؟

الطبيب : في الحقيقة قلب أمك ليس بخير .. تحتاج إلى العملية بأسرع وقت .
عمر : قم بالتجهيزات يا دكتور .

الطبيب : لكن العملية لن تجرى في مصر، فهي عملية دقيقة وخطرة .
انهارت وعد باكية حين سمعت تلك العبارة وهي تخفي وجهها بين يديها .
الدكتور عصام : وأين ستجرى ؟

الطبيب : هذا النوع من العمليات يجري في بريطانيا .
عمر : أجر الترتيبات يا دكتور ولا تشغل بأمر التكاليف مهما كانت .
وعد : لا .

عمر : ماذا تقصدين ؟
وعد : أقصد أننا سنتكفل بالأم، ونشكرك .
الدكتور عصام : ماذا تقولين يا ابنتي .. لا عليك يا عمر هي لا تقصد شيئا،
إنها فقط حزينة وقلقة .

عمر : أنفهم هذا، ولكنني لست غريبا يا وعد، إنني أعتبرها أمي بصدق .

لم يشأ الخال أن يتحمل شيئاً من عبء السفر والعملية وأمامه عرض سخّي لا يتاح للعقلاء رفضه من عمر الذي لن يوجعه إنفاق مئآت من الآلاف أو حتى الملايين لذلك سكت حتى عن محاولة القول بوجود تحميله تلك الكلفة وقبل مرتاحاً ما عرضه عمر، أما وعد فإنها لم تحر جواباً ربما لحاجتها لأموال العملية التي تعلم يقيناً أنها مرتفعة الكلفة وأنهم لا يستطيعون الوفاء بها، وربما لأنها تعرف أن مسألة السفر وترتيبات التأشيرات والحجز السريع يتقنها عمر بحكم عمله وبحكم علاقاته .. لكن دموعاً لا علاقة لها بالجزع على أمها قد تدفقت بغزارة ولم تدر ما تقول ..

وخلال ساعات أخرى من النهار كان الأنباء تتوالى بأن عمر قد تدبر كل أمور السفر وكل ترتيبات العملية في لندن .. ارتاحت وعد لذلك كثيراً حين أبلغت بانتهاء كل الترتيبات؛ إنها تعلم تماماً أنها ما كانت قادرة على القيام بذلك وحدها، كما لا يغيب عنها أن نفوذه في الخارجية قد سهل مهمة الحصول على تأشيرات السفر، والحصول على تذاكر طيران إلى لندن في اليوم التالي .. إنه أمر خارق عجيب .. وكأن كل شيء كان معداً سلفاً .

رقدت الأم على سرير المستشفى وقد اتصلت بها أجهزة الإعاشة فيما يبدو حالة خطيرة ونالت قسطاً وافراً من رعاية الأطباء وفريق التمريض وبجانبتها ابتنتها لا تدري ما تفعل لأمرها، فأخذت تقرأ في مصحفها آيات قرآنية لعلها تجلب الرحمة والتخفيف لأمرها المريضة .

في ذلك الصباح ذهب مؤنس إلى الكلية على وجهه أمارات السعادة وعلائم البشر فالיום هو يوم اللقاء المنتظر .. دخل مكتبه فدخل خلفه عم رفاعي ليخبره بأن الدكتور عصام يطلبه، ذهب إليه مسرعا وعلى وجهه ابتسامة نامت على خده من الأمس و تتأبى على الانصراف .. ولكن سرعان ما غام الوجه وانصرفت الابتسامة بعد أن أسلمت الوجه للانقباض والعبوس إثر تلقيه الخبر ...

لقد قرروا الاستغناء عنه في الكلية وها هو العميد يبلغه بالأمر .. كل مساحيق التجميل التي حاول العميد أن يضعها في كلامه لم تحف قبج الخبر .. لقد تلطف الدكتور عصام في إبلاغه وأخذ ينتحل المعاذير لذلك، إلا أن أثر الصدمة كان شديدا، لقد تلقى نبأ يعتبره بمثابة نهاية لمستقبل واعد .. تملكته حالة من الذهول .. أحس كأن على صدره حجرا ثقيلا يحول دون يسر التنفس، لكنه تماسك وحاول أن يفهم الأسباب .

- لقد انتهيت عن الحديث في السياسة تماما بعد تحذيرك يا دكتور عصام .. فلماذا ؟

ولم يكن العميد يعرف فعلا ماذا حدث، وما الأسباب التي تجعل مالك الجامعة يأخذ ذلك القرار، خاصة أن وجود مؤنس في الكلية - بعدما أثبت كفاءة في دورات التنمية البشرية - كان مكسبا حقيقيا للجامعة .

- لقد سمعت أن معزز مرعي يصفى أعماله هنا في مصر بسبب الثورة .. قد يكون هذا هو السبب .

- ولكن، هل استغنى عن آخرين غيري ؟

- في الحقيقة، لا .

- إذن، لماذا أنا وحدي ؟ ماذا فعلت ؟

- فعلا شيء عجيب ولا تفسير له عندي، عموما يا بني سأحاول أن أفهم

السبب، أنت تعرف أنك مثل أولادي .. وأنا فعلا متعجب وحزين ...

وفي هذه اللحظة يرن هاتف العميد .. يخرج الهاتف .. يسمعه مؤنس وهو

يقول :

- ألو .. أنا في الجامعة .ماذا ؟ متى ؟ .. لا تقلقي ... أنا في طريقي إليك ...

يخرج مسرعا دون أن ينطق بكلمة أخرى، ويترك مؤنسا في مكتبه غير

مصدق ما سمعه للتو .

خرج مؤنس من المكتب بحزن يعتصر فؤاده ومرارة بغص بها حلقه؛ لقد

فقد عملا يعشقه ومستقبلا كان يراه واعداء .. إن خططه وأحلامه كلها تتعلق

بهذا المكان .. أحلام الشهرة والمجد في حقل تخصصه وأمنيات الارتباط بفتاة

الأحلام كلها مرتبطة به .. جر قدميه بصعوبة إلى مكتبه وهو يشعر بما يشبه

الدوار .. فإذا به يلمح عمر مرعي يسير برفقة حارسين ضخمين .. إنه هو ..

ماذا يفعل هنا ؟ لم يره من قبل في الكلية .. لعل القدر ساقه ليساعده في أزمته

.. لعل عنده تفسير للخبر .. قرر دون تفكير أن يقطع عليه الطريق ليسأله عن

حقيقة وضعه؛ فبينهما سابق معرفة تسمح له بذلك ..

- أستاذ عمر ..

يناديه فيتوقف عمر مرعي فيحث مؤنس الخطى إليه ويمد كفا بالسلام،
فينظر إليه عمر نظرة المنكر ولا يمد يده .. يقبض عمر كفه وقد ملأ الغضب
قلبه .. ظن مؤنس أول الأمر أن عمر لا يذكره فتجاهل إهانة عدم المصافحة و
قال :

- ألا تذكرني ؟ أنا الدكتور مؤنس همام .. تعارفت بك يوم توقيع الديوان
و..

قاطع عمر الذي أبدى انزعاجه من تلك المحادثة قائلاً في استعلاء:
- وماذا تريد ؟

قالها وهو يتحرك باتجاه المصعد، كانت لهجته عدائية استعلائية بغیضة كأنه
يحادث خادماً .. امتلاً صدر مؤنس بغضب عارم .. ولكنه ابتلع الإهانة للمرة
الثانية أيضاً؛ لعله بعد ذلك يصل إلى إجابة عن سؤاله فقال وهو يسير خلف
عمر المتجه إلى المصعد:

- أخبروني اليوم بأنه تم الاستغناء عني .. ولا أعلم السبب ففكرت أن أسأل
حضرتك .

- فعلاً .. قرر مجلس الإدارة طرد بعض الموظفين لعدم ملاءمتهم طبيعة
المكان .

إن عمر الدبلوماسي الذي يختار ألفاظه بعناية قد اختار تحديداً كلمة طرد ..
وأعقبها بعبارة عدم الملاءمة .. فطن مؤنس في تلك اللحظة إلى أنه يعتمد
الإهانة وأن ما سبق منه لم يكن عفويا .. ويبدو أنه يستمتع بذلك .. كان

المصعد قد وصل وأمسك أحد الحارسين ببابه في انتظار أن ينهي عمر تلك المحادثة .. فقال مؤنس :

- ولماذا لا أكون ملائماً للمكان ؟

- ممكن طريقتك .. كفاءتك ... ، ولا تنس أيضا أنك فلاح .. والكلية تستهدف في الفترة القادمة طلابا من طبقات عالية .. ليس ملائماً أن يقوم مثلك بالتدريس لهم .. وأظنك تتفهم أننا لا نريد أن نخسر بسبب وجودك .
قال عباراته تلك في سرعة وترتيب، قالها ولم يترك لمؤنس أية فرصة للرد فقد أغلق عليه باب المصعد وتحرك به نزولا وعلى وجهه ما يشبه ابتسامة شياقة.

صعق مؤنس من قسوة ما سمع وعلى الدم في رأسه، وكأن السخط قد ألجم لسانه وشل الغضب عقله فلم يجد ردا مناسباً في تلك الثواني التي فصلت بين عبارته وبين إغلاق باب المصعد .. وما كانت الكلمات تصلح للرد، فقد أصبح الأمر أكبر من المشاقمة .. ظل لبرهة محققاً إلى المصعد والدم يغلي في عروقه .. شعر بأنه سيسقط على الأرض .. فتمالك نفسه إلى أن ذهب إلى مكتبه وارتمى عليه .. كان قرار الطرد على قسوته أهون كثيراً من لقاء عمر وعباراته المذلة .. لم يشعر بمثل ذلك الإذلال من قبل وهو الذي رباه أهله على الإباء وصور الكرامة .. غضبه من نفسه كان أكبر؛ لأن عقله لم يسعفه ليجد ردا يريح قلبه ويشفي صدره من ذلك المغرور المتعالي أين ذهبت بديته؟ وكيف فر منه حضوره؟

قبع خلف مكتبه كئيبا محزوننا يفكر فيما حدث له منذ قليل، كان طرده من عمله بمثابة طعنة غادرة أو ذبح غير رحيم، وكانت كلمات عمر تحمل من الإهانة وإصغار الشأن ما لا يمكن لمؤنس أن يحتمله .. وبعد مدة من التفكير المتمزج بالتحسر والمرارة والتهائف للبكاء سلم مؤنس بالأمر الواقع واستسلم للنهاية المحزنة، وبدا له أنه من الخير أن يغادر هذا المكان بأسرع وقت ممكن..

أخذ يللم مكتبه ومتعلقاته، وفي تلك الأثناء دخل عليه عم رفاعي وبعض العاملين الذين تسامعوا بالخبر، حدثوه بلطف وإشفاق وهو صامت لا يجد جوابا لكلماتهم .. كلمات العزاء البسيطة ونظرات الحزن في أعينهم كانت كافية لنقل شعورهم الطيب .. أحس أنه بين أعمامه وإخوته .. وقف أمامهم متجلدا يكظم دمه ما استطاع .. ثم ودعهم بأحضان صادقة ومضى إلى بيته . حين أعاد تشغيل عقله المعطل أحس بأن تصرف عمر العدائي وقراره المفاجئ ربما يكون له علاقة بوعده، يبدو أن تقاربهما قد أحاط به خبرا وأن ذلك هو ما أغضبته وجعله يتخذ قرار طرده، أشعره ذلك بقليل من الرضا؛ ربما لأنه أحس بأنه تسبب في إغاظه ذلك المغرور المتعالي، وأشعره في الوقت نفسه بكثير من الحزن؛ فقد قدر أن فرصته باتت مستحيلة بعدما علم عمر بها إن كان تخمينه صحيحا .. من المؤكد أن ذلك الوغد لن يسمح له بأن يستحوذ على حبيبته .. عليه إذن أن يودع حلمه بالنجاح في عمله وأن يودع حلمه بالفوز بوعده .

إنه صباح حزين ابن أمس سعيد، عاد إلى شقته وهو يحمل حزنا كالجبال ينوء بحمله، ساخطا على تلك الحياة التي تعطي وتسلب في الوقت نفسه .. تضحك وتبكي في آن واحد، سار في الشارع المؤدي إلى شقته، لم تسمع أذناه نداءات الباعة وضجيج المتزاحمين في سوق باكوس ولم تلتقط عيونه إشارات الجيران بالتحية .. لقد تعطلت كل حواسه وأحس بصداق شديد مؤلم .

لما عاد فكر في مهافتها ربما يكون لديها تفسير لطرده .. أو ليرى موقفها من طرده، ولكن كبرياءه منعه، إنه يحتاج وظيفته لكنه لن يتسولها .. لن يظهر أمامها ضعيفا عاجزا يلتمس العون من فتاة مهما كانت، ثم ما العون الذي يمكنها تقديمه إن كانت هي في حاجة إليه إن كان صحيحا أن عمر على علم بأن شيئا بينهما ؟

حين دخل الشقة كان يتمنى ألا يجد زميله في السكن موجودا؛ إنه يجب أن يخلو لنفسه في مواقف الفشل ولحظات الهزيمة؛ فالحزن أخف وطأة إن تحملته وحدك .. وكلمات المواساة بالنسبة له أمر مؤلم يصعب عليه احتماله .. من شدة الحزن نام .. كان النوم بالنسبة له وسيلة للهروب والنسيان ..

استيقظ بعد ساعات من ذلك النوم المرضي الذي تقطعه باستمرار أحلام مزعجة وهلاوس مقلقة .. حاول أن يفكر بروية في بدائله المتاحة فبدأ مستقبلا باهتا ورؤيته ضبابية، خرج من شقته وهو لا يدري إلى أين يذهب، كلمات عمر ترن في أذنيه : فلاح .. كفاءتك .. طرد .. ظل يسير حتى محطة الترام .. ركب ترام المنشية وظل في تفكيره الساخط، والكلمات ترن ثانية وثالثة ورابعة

كسياط مؤلمة .. فلاح .. كفاءتك .. طرد، وفي محطة الشبان المسلمين ترجل
ليسير في اتجاه البحر ..

يظن الكثيرون أن للبحر دورا في تفريغ الهموم وحمل الأسرار والشهادة على
وثائق العشق .. فأمامه نلهو فيطيب لنا اللهو ونبكي فيريحنا البكاء، وله
نحكي المخازي وننتيه بالمفاخر .. نشركه في مرارة الهزيمة ونحتفل معه
بلحظات النصر .. وأمامه نزر بالأم ونشهق بالفرحة .. أيها البحر يا لك من
حول أمين .

ظل يسير على الكورنيش في تلك الأجواء الباردة دون أن يشعر .. ساقته
قدماه دون إرادة حقيقية باتجاه مسجد القائد إبراهيم حيث وجد جمعا غفيرا
من المتظاهرين .. ودون أن يعي وجد نفسه وسط جموع الغاضبين ولا غضب
أكبر مما يحمل .. هتف معهم بملء حنجرتهم .. عيش حرية عدالة اجتماعية ..
وصاح بمرارة : الشعب يريد إسقاط الرئيس .. حملوه على الأعناق .. قاد
التهتافات بحماس شديد .. وحين أنزلوه .. كان هناك ثلاثة رجال يشقون
الجموع ليصلوا إليه .. إنهم أصدقاؤه هشام وعبد الله وعلي هرعوا إليه بعدما
رأوه محمولا على أكتاف زملائهم الثائرين .. احتضنهم واحدا واحدا .. بكى
وأبكاهم جميعا .. ولم يسأل أحد فيم البكاء؟

لما متع بصره برؤية الكعبة المشرفة اطمأن قلبه بالمقام في مدينة الله ورضي تمام الرضا عن حاله .. اعتمر مع ولده وأهل القافلة، ثم بدأ يدبر أمر السكن والعمل مع أمير مكة، ولما استقر مقامه في دار جيدة أنزله فيها الأمير تمتعوا من العمرة إلى الحج، وحين حل الموعد قضى مناسك الحج وفي قلبه أنوار من السكينة والخشوع أنسته كل شيء، حتى إنه ليشعر بأن الله قد أراد به الخير والنفع؛ إذ هداه ووفقه إلى محاجة أسلمته إلى الخير الذي صار فيه .

بعد انقضاء موسم الحج وعودة القافلة مكث في مكة يدير عملا روتينيا سهلا لا يجد فيه مشقة، ففرغ قلبه للعبادة وألزم نفسه بأوراد وأذكار وقيام ليل .. شعر بمسرة العبادة ولم يشعر بمشقتها .. كانت تمتعه الطواف والصلاة وقراءة القرآن وصحبة الصالحين .

غابت عنه بغداد وتناولت به الأيام فمكث في مكة أربع سنوات كادت تنسيه آماله في السيادة والقيادة والأموال والسعي من أجل ابنه، نسي كل ذلك إلا ما كان من أمر حبيبته؛ فقد كان مشغولا بورد أيا شغل ..

وكان أن أنفذ إليها رجلا من خاصته برسالة ليطمئن عليها وعلى الشيخ بعد أشهر من مقامه في مكة .. حينما ذهب الجندي إلى المكان الذي وصفه له مؤنس وجد الأمر خلاف ما ذكره له في وصفه .. لقد تحول ذلك المكان الهادئ إلى موضع صاخب يمتلئ بالناس .. كان ابن أبي زرعة قد اتخذ كوخه بعيدا عن بغداد ليجد السكينة والراحة والخلوة، لكن الناس تسامعوا بمكانه الجديد

فبدءوا يتوافدون عليه لمقاصد شتى .. فبعضهم يريد الصحة والملازمة، وبعضهم يريد التزود بما عنده من علم، وبعضهم من فقراء القوم وأهل البؤس ممن سمع عن الشيخ وكراماته فأراد أن يقبس من خيرات قيسا يعود بعده بنفع دنيوي يصلح به حاله في المال أو الولد .

وكان الشيخ يجيب كل سائل ويقبل صحة كل مريد؛ فما له برد الناس من طاقة إلا ما كان من رفضه لمبعوثي أهل السلطة طرا، فكان لا يأذن بالدخول عليه لأي رجل تزيا بزي أهل السلطة واتخذ شارتهم؛ لما كان يعتقد من أنهم أهل تسلط وجور وأن الدنيا قد أعطتهم فما قنعوا بل أرادوا المزيد سريعا وبأي طريق ..

استأذن الجندي للدخول عليه فردته حجة الباب من مريدي الشيخ لعلمهم بحاله الراض لمثله، فأخبرهم الجندي أنه قادم من البلد الحرام رسولا من عند قائد شرطتها فأصروا على عدم إدخاله .. فوقف أمام الباب لا يتزحزح فطلبوا منه الانصراف والعودة غدا بعد أن يخبروا الشيخ بخبره .. وافق الرجل ومضى إلى بغداد ليبيت فيها ثم يعود باكرا.

في اليوم الثاني دخل الرجل على الشيخ وابنته بجواره لا تعلم من أمر رسول مؤنس شيئا كانت منصرفة إلى صوف تعالجه بمغزل .. تحدث الجندي وابتسامة تزين وجهه :

- السلام عليكم يا سيدي الشيخ .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. ما حاجتك يا ولدي؟

- جئتكم رسولا من لدن أمير الشرطة في مكة الأمير مؤنس .

ما أن سمعت الفتاة باسم مؤنس حتى خفق قلبها بقوة يكاد يسمعها أهل بغداد .. شعرت بحرارة تلفح وجهها ودقات متسارعة في صدرها، وها هما دمعتان تحتالان للسقوط على خديها ونفس تحتال لكظمهما ما استطاعت .. ألفت غزلها وأقبلت على سماع الرجل بكل جوارحها ..
قال الشيخ :

- أهلا بك يا ولدي .. كيف حال ابنتنا مؤنس ؟

- هو بخير حال يا سيدي، وقد كلفني أن أنقل لك أشواقه للقائك واستيحاشه للبعد عنكم .

- وفقه الله وأرشدته إلى طريق النجاة .

- وقد أرسلني إليكم بسؤالين يا سيدي .

- هاتهما .

- أما الأول، فهو يسألك: إن كان لك حاجة يمكنه أن يقضيها لك من البلد

الحرام ؟

- والثاني ؟

- يسألكم : متى الموعد ؟

سكت الشيخ قليلا، ثم انصرف عن حديث الرجل وفتح كتابا .. طال وقوف الرجل وهو لم يسمع إجابة الشيخ بعد .. والفتاة زائغ بصرها بين أبيها الذي

تأخر جوابه والرجل الذي بدأ يتململ .. يكاد قلبها ينخلع في تلك اللحظة التي تنتظر فيها مصيرها .

بعد برهة رفع الشيخ رأسه وخاطب الجندي قائلاً :

- قل له : إن الله يعلم أهل الحاجات فيقضي لمن أراد حاجته، وإن كان لنا من طلب فهو الدعاء عند الملتزم بالإخلاص وقدرة النفس على النفس .. أما جوابنا عن السؤال الثاني، فقل له : إن لك موعداً من الله لن تخلفه .. ولكن ليس بعد .

ساعتئذ لم تتمالك الفتاة نفسها، ورغماً عنها سقطت الدمعتان، وبعدها أجهشت ببكاء سمعه الشيخ ورآه الجندي .

استأذن الجندي للخروج، فأذن له الشيخ .. ولما خرج الجندي عادت الفتاة إلى غزلها وغصة في حلقها تكاد تقتلها والدمع يملأ مآقيها .. أخذت تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثا وهي لا تعي ما تفعل .. وفجأة رمت المغزل وخرجت من الكوخ بسرعة ... تلفتت ذات اليمين وذات اليسار بحثاً عن الرجل .. فما وجدت له أثراً .. سألت أحد الحجة عن الجندي فأشار لها بالجهة التي سار منها .. أخذت تعدو في ذلك الاتجاه وبكاؤها لا يتوقف .. وبعد مسافة من العدو ومدة من اللهاث فقدت الأمل في إدراكه فانحنّت تلتقط أنفاسها .. وحين رفعت رأسها رأت الجندي على مسافة منها يستقي جواده من بركة على اليمين من الطريق .. تحركت في اتجاهه خطوات ثم نادى :

- أيها الرسول ..

التفت الرسول .. فلما رآها صاح متهللا :

- لبيك .

فقلت :

- اغد علي في الصباح، فمعي رسالة أريدك أن تبلغها الأمير مؤنس .

ابتسم الجندي ثم قال : إن شاء الله .

عادت الفتاة إلى كوخ أبيها .. ارتمت في حضنه وعلا صوت بكائها والرجل يقول : لا بأس يا ورد، لكل شيء أجل وكتاب يا بني، فلا تعجلي .

نامت ورد في تلك الليلة وما نامت، إنها لا تدري ما تكتب في رسالتها إلى مؤنس .. استبدت بها الحيرة وأرهقها التفكير .. لكنها قالت لنفسها في نهاية المطاف: إن الذي أوقف الجندي ليستقي حصانه في تلك الساعة التي كاد يقتلني فيها اليأس قادر على أن يلهمني الصواب فيما أكتب .

وفي الصباح جاء الجندي فالتقت به خارج الكوخ وسلمت له تلك الرسالة التي كتبتها إلى مؤنس .

مضى الجندي يحمل الرسالة سعيدا وهو يعلم ما فيها بحدس من جربوا الحب وأمضهم ألم الفراق .

حين التقى الجندي مؤنسا أخبره عما لحق المكان من تغير وطمأنه على الشيخ وابنته، وأن الشيخ قد استعاد بعض صحته، .. أخبره بأنهما يدعوان له بالتوفيق والصلاح فهش وانفرجت أساريره .. وأبلغه جواب الشيخ عن

سؤاله فطأ رأسه حزينا .. ثم أخرج له الرسالة فهب واقفا واندفع إلى الجندي محتضنه ويشكره ثم يأمر له بمكافأة سخية ..

فض الرسالة في شوق ولهفة فإذا فيها :

" من ابنة طاهر إلى الأمير مؤنس .. السلام على أهل الحق، والرحمة والبركات على البلد الحرام وساكنيه .. أما بعد،

فقد التقينا رسولك وأسعدنا أنكم في حفظ الله وكنفه، وإن أبي يتوق إلى يوم يجتمع فيه المحبون ويتعاضد فيه أهل الله على الترقى إليه يشد بعضهم بعضا فيكشف الله لمن يشاء نوره ويهدي من يشاء إلى سواء السبيل .. وإن للسالكين في مدارج الوصول عقبات تتواتر ومصاعب تتعاقب، فإن انسدت عليك طرق الوصول، وأعيتك الخيل في تحصيلها، فإن الصبر يسهل مدارجها، ويوسع مواجها، ويفتح ما انغلق منها أبوابها، ويفتح ما ارتق من أسبابها، فلا يتسلطن عليك من اليأس بما يفتر عزمك، أو يقصر سعيك، وإن دامت مطالبتك، واتصلت مواظبتك .. واعتقد أيها الأمير دائما أن الفرج سوف يتلقاك، والنجح بأقرب المنازل يسعي إليك؛ فإنك إذا فعلت ذلك فزت بكل ما ترومه، وتعجل لك كل ما تهواه .. ولعلك تذكر قول القائل :

إن الأمور إذا انسدت مسالكها	فالصبر يفتح منها كل ما ارتبجا
لا تيأس وإن طالت المطالبة	إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يظفر بحاجته	ودائم الطرق للأبواب أن يلجا
والسلام على أهل السلام".	

أعاد القراءة ألف مرة وفكر في معاني الكلمات ألف مرة .. تأمل بديع القول
وبديع الخط ألف مرة لكنه لم يهتد يقينا إلى كل مراد ورد، فهل أرادت منه
الصبر على طلب العبادة والارتقاء في مدارج السالكين؟ أم أنها تطلب الصبر
على تسويف أبيها وعدم اليأس من بلوغ وطره بها؟ .. إن الأمرين حبيبان إلى
قلبه وإن كان الثاني هو الأقرب .. وفي الحالين عليه أن يلتزم نصحتها وأن
يستمسك بمجامع الصبر وألا يترك نفسه ليأس أو تعب .

إنها رسالة ملهمة وفيها الدواء لكثير من متاعبه، كان شعورا طاغيا
بالفرحة يصحبه مع كل حرف يقرأه وإحساس بروائح للحب تملأ نفسه من
كل أقطارها، لكم كانت نفسه دائما ما تتوق إلى بغداد فكم أحبها وهو فيها
والآن صار يحبها أكثر .

لم يعد لديه من متع الحياة متعة تفوق اجترار الذكريات والسفر على بسط
الخيال للقاء ورد .. ذكرها كانت تؤنسه حق الإيناس .. إنها تخلق تحريضا لا
يقاوم على سماع الشعر ورؤية الجمال في كل بقاع مكة .. في الجبال والدواب
ووجوه الناس، إنه لأمر مدهش أن ترى كل الأشياء جميلة .. لا شيء يتصف
بالسواد أو الشر، إنه الحسن وفقط يحكم سلطانه على الواقع والخيال معا .

سنوات طاعة وقرب من الله وذكريات وآمال ووجع فراق .. نفذ وصيتها
ولزم الصبر وأدمن قرع الأبواب فأرسل الجندي نفسه لأبيها مرة أخرى
فجاءه منه الرد نفسه .. وفي العام الثالث أرسله فلم يجد الشيخ في كوخه
وحين سأل من يقيمون في هذه البقعة التي امتلأت بالمريدين عن الشيخ طاهر

أخبروه أن الرجل في سفرة إلى دمشق للقاء أحد علمائها وأنه سيعود عما قريب .. فعاد الرجل بذلك إلى مؤنس دون لقاء ورد، وفي رابع الأعوام أرسله مرة أخرى فأجيب بأن الشيخ في سفرة أخرى إلى خراسان وسيعود عما قريب .. فعاد إلى مؤنس ثانية ولما يظفر من رحلته بطائل .

وفي تلك السنوات كبر ابنه عمار وصار أقرب شبها بوالده، إنه يحمل كثيرا من ملامح أبيه .. طول مفرط وحاجبان كثيفان وشعر غزير وجبين واسع وابتسامة مريحة، هو نسخة من مؤنس لولا هاتين العينين البنيتين التي ورثها عن أمه الراحلة .. اعتاد الوالد أن يطيل النظر في تينك العينين اللتين تذكرا أنه بأم عمار ويستعيد معها ذكريات لا تنسى في بدء شبابه .

سلك عمار طريق الفقه وطلب الحديث، كان فتى تعلق قلبه بالمساجد ولم ينشغل بما يشغل الفتيان في تلك السن من توقي إلى اللهو وانكباب على المتع، بل انشغل بحلقات العلم في مكة وما يجاورها، لم يسمع عن عالم في مكة إلا أنه لم يسمع بعابد إلا جالسه .. حفظ القرآن ووعى تفسيره وطلب الفقه حتى تفقه .. عندما كان مؤنس يجلس معه كان يجد الفتى قد ملئ علما وفقها فيفيض الفتى عليه بما لم يبلغه من علم بالدين فيفرح بتلك النبتة الطاهرة التي لم تتدنس بالأعيب السياسة وأكاذيبها

حين عاد إلى شقته أراد أن يفتح الفيس بوك لعله يجد فيه محادثة يهرب إليها من جحيم الواقع أو رسالة منها تخفف ما به من ألم .. وقبل أن يفعل خطر في باله الدكتور هادي البربري وما قاله عن فرص العمل بجامعات الخليج .. فقام على الفور بطلبه على الهاتف فلم يجد هاتفه متاحا .. استمر في طلبه ولكن لا مجيب، ولما يئس من حصول الإجابة اتجه إلى المطبخ ليعد فنجانا من القهوة .. وفي أثناء ذلك رن هاتفه .. أسرع إليه .. إنه رقم الدكتور هادي .. فقال في حفاوة :

- دكتور كيف حالك ؟

- حبيبي : أنا بخير .. وأنت ؟

- الحمد لله، لقد اتصلت بك مرارا منذ لحظات .

- خيرا .. أخشى أن تكون مشغولا اليوم وتريد إلغاء موعدا ؟ أرجو ألا تفعل .

تذكر في تلك اللحظة أنها متفقان على ذلك الموعد من أسبوع مضى ولكنه ذهل عن ذلك لما مر به من أفراح وأحزان، ... فبدا له أن يؤجل حديثه عن العمل حتى يلقاه، فقال :

- لا طبعاً، إنما أتصل بك لتأكيد الموعد .

- يناسبك الساعة ٨ مساء .

- يناسبني جدا، أين ؟
- لو تشرفني في البيت يكون أفضل .. اكتب العنوان .
- أنهى مكالمته مع الدكتور هادي، وعاد إلى قهوته التي تركها على النار ليجد أنها فارت وأطفأت شعلة الموقد .. أدار مقبض الموقد الذي يتسرب منه الغاز وعاد إلى حجرته دون قهوة .
- بدأ يحلم بفرصة السفر التي حدثه عنها .. ربما هي فرصته الوحيدة لاستكمال خططه في العلو وآماله في الشهرة في عالم مدربي التنمية البشرية .. وأخذ يسط على نفسه الأمور ويقنع نفسه بأن ذلك قد يكون خيرا ... إلا أن داخله كان يعتصر من الألم .
- ازدحمت الفكر في رأسه، وكاد يذهل عن كل ما حوله لولا أن رن هاتفه :
- السلام عليكم، من ؟
- هل مسحت رقمي ؟
- من معي ؟
- أحزنتني والله، أنا محمد أبو شوشة المحامي .
- أستاذ محمد .. آسف، أنت السبب، لأنك كل مرة تكلمني من رقم جديد .
- المهم يا بطل، لم تأخرت ؟
- تذكر لحظتها أنه على موعد مع المحامي الآن في سان ستيفانو .. إنه أمر مهم
- آخر نسيه بسبب ما مر به، فقال له على الفور :
- أنا أرتدي الآن ملابسي وسأنزل فوراً .

- في انتظارك .

بعد حوالي نصف ساعة وصل إلى المحامي حيث كان في انتظاره مفاجآت أولها هو محمد أبو شوشة نفسه .. فقد كان شخصا مضحكا؛ وأول ما يضحك بشأنه أنك لن تجد لتلك الشوشة المزعومة أثرا، فليس في رأسه إلا شعيرات قليلة قرب قفاه .. وهو يحمل وجهها كاريكاتيريا .. به أذن صغيرة عموديه على وجه صغير وشارب رفيع جدا تحت أنف كبير، والرجل يتمتع بخفة دم الحشاشين وضحكتهم أيضا، بذيء بالفطرة وطويل اللسان دون تكلف ينطلق لسانه ليسخر من كل ما يراه بلا تحفظ .

بدأ اللقاء بنسكافيه ساخن ومجاملات باردة وبعده فنجان من القهوة .. تحدث المحامي في كل شيء إلا مراده ورغم أن أبا شوشة كان رجلا مسليا ومضحكا إلا أن مؤنس أصيب بالضجر من امتداد الجلسة دون أن يعرف الموضوع الذي لا يصلح الحديث فيه هاتفيا، وفجأة ازدادت حرارة اللقاء عندما قام أبو شوشة بحركة سينمائية بوضع ورقة أمام مؤنس، سرعان ما قرأ ما فيها، إنه شيك بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه .

- ما هذا ؟

- شيك بالمبلغ الذي تراه .

- ولن هو ؟

- هو لك .

- لي أنا ؟ لم ؟

- نريد منك شيئاً بسيطاً .
- مني أنا ؟ وما هو ؟
- نريد بيت العمدة وفقى .
- ماذا تقول ؟
- أقول ما سمعت، نريد شراء البيت .
- كانت مفاجأة مذهلة بالفعل .. ذلك أن المبلغ ضخّم جداً، والطلب غريب جداً .. ورغم غرابة الطلب فقد سأل :
- ومن أنتم ؟
- ليس مهما أن تعرف، المهم أن تنهي الصفقة .
- أعاد مؤنس الشيك إلى الرجل وهو يقول :
- صحيح هذا مبلغ كبير .. لكن البيت ليس ملكي .
- هذا المبلغ ليس ثمن البيت .
- ولم هو ؟
- عمولتك لو أنهيت الاتفاق .
- وما ثمن البيت ؟
- ثلاثة ملايين أخرى ..
- يصمت مؤنس وكأن المفاجأة ألجمته وبدا مبهوراً من هول المفاجأة فلا يتحدث بشيء، فيقول المحامي :
- متى ترد علي ؟

- لا أعرف .

- ماذا تعني ؟

- أعني لا أعرف .

نهض الرجل وأخذ يللملم مفاتيحه وسجائره وهاتفه وهو يقول :

- معك رقمي، ومعك الشيك، ومعك أسبوع، أنا متأكد أنك ذكي ولن

ترفض النعمة .

انصرف أبو شوشة وبقي مؤنس جالسا في وجوم يحدق في الشيك ببلاهة ..

لا يجد إجابة عن عشرات الأسئلة التي تدور في رأسه .. إنه عرض كبير جدا،

ترى من الشاري ؟ من المؤكد أن المحامي مجرد واجهة لشخص آخر، ولماذا

يدفع ستة ملايين في بيت لا يزيد ثمنه بأي حال عن نصف مليون جنيه مهما

بولغ في سعره ؟ ولماذا تكون العملة مساوية لثمن البيت ؟

انطلق عائدا إلى شقته وهو غير مصدق ما سمعه، تلح عليه أسئلة وشكوك

لكنه لم يلق لها بالا، إنه فقط يفكر في المال .. تطارده أحلام الثراء، وتخيفه فكرة

البيع، تنازعه عاطفتان : سعادة بالمال الذي سيجنيه وعدم ارتياح للطريقة ولا

الشخص الذي يتعامل معه .

لم يستغرق وقتا طويلا في إقناع نفسه بأن فكرة البيع هي فرصته وهدية

السماء ليكون الشخص الذي يريده، لعلها فرصة أرسلها الله ليعوضه وظيفته

التي فقدوها، لعلها فرصة ليكون كفئا لوعده إن لعب القدر لعبته واستطاع أن

يكمل طريقه إلى قلبها .. إنها مخطوبة وليست متزوجة .. ظل يخرج الشيك من

جيبه لينظر فيه و يفكر في الحلول ... يظن أنه من السهل عليه إقناع إخوته وأمه .. ولكن الجدة صالحة ماذا يفعل معها ؟ واستغرقه التفكير وهو جالس في الترام حتى إنه تجاوز محطته بمحطتين، وعندما انتبه لذلك ركب الترام العكسي وكاد يذهل مرة أخرى عن محطته .

فور نزوله إلى محطة باكوس، تذكر أمرا آخر .. إنه الدكتور هادي البربري .. اقترب موعده، وليس من المناسب ألا يذهب إليه .. قرر أن يذهب على الأقل كي يفاتحه في أمر السفر .

في الموعد كان في الشارع المراد في منطقة سبورتينج .. على بعد خطوات من البرج الذي يسكن فيه الدكتور هادي لمح سيارة حمراء اللون بدت مألوفة له .. إنها تشبه سيارة صبري العبايدي ابن عمه .. خطوة أخرى ثم تسمرت قدماه .. إنه صبري العبايدي .. صبري العبايدي ؟؟؟؟ إنه هو ينزل من برج الصفا الذي يقيم فيه الدكتور هادي ويتجه إلى سيارته، أهذه مصادفة ؟ هم بأن ينادي عليه، لكنه توقف عندما جال في خاطره أن ثمة علاقة غريبة تجمعهم بذلك الدكتور المريب .. لقد تذكر الآن أمر السيارة السوداء التي كانت تتبعه ولقاءه المريب بذلك الرجل .. توأرى قليلا وانتظر حتى انطلق صبري بسيارته ثم صعد إلى الدكتور في شقته وفي رأسه عشرات الأسئلة .

رن الجرس ففتحت له خادمة فليبينية .. أدخلته إلى حجرة المكتب .. كانت الشقة بموقعها وتفصيلها تكشف عن ثراء صاحبها، وفي حجرة المكتب وجد مكتبة ضخمة متنوعة الاتجاهات وإن طغى عليها كثرة كتب التاريخ بحكم

التخصص، دخل الدكتور هادي فصاح مؤنسا بحرارة وتبادلا التحيات بشكل بدت فيه حفاوة غير متوقعة، وبعد دقائق اصططحبه إلى حجرة السفارة ليتناولوا الطعام .. كان الطعام دالا على استعداد خاص وتقدير كبير، زاد عجبه وزادت الأسئلة، قرر بعد انتهائهما من الطعام أن يسأل أسئلته المباشرة دون مواربة؛ ليكشف المستور خلف ذلك الرجل، وقبل أن يبدأ في طرح الأسئلة فاجأه الدكتور هادي في أثناء شرب الشاي بكل الإجابات دفعة واحدة .

- نريد أن نعقد معك صفقة يا دكتور مؤنس .
- صفقة ؟ من أنتم ؟ وما الصفقة ؟
- أنا وسيط، وسأجيب عن السؤال الثاني فقط ..
- ما الصفقة ؟
- سنشتري منكم بيت العمدة وفقى ؟
- المفاجأة أضحكته في خاطره، ما علاقة يوم الخميس بالمفاجآت ؟ وما أكثرها اليوم ... في الصباح كان مفصولا من العمل والآن تتوالى عليه عروض الشراء .. كم أنت مضحكة أيتها الدنيا .. ولكنه ضحك كالبكا كما قال كبيرهم الذي علمهم الشعر .. اتضح له أن إجابات الدكتور هادي لم تكن إجابات بقدر ما كانت أسئلة جديدة أشد إلحاحا .. من الساعون وراء البيت ؟ وما القيمة التي تجعل هؤلاء يسعون لامتلاكه ؟ صبري العبايدي وعلاقته بالموضوع ؟ .. كل

هذه الأسئلة دفعته لاستنتاج واحد لا غير ... ولكنه أثر أن ينتهز الفرصة التي

لن تعوض فسأل مباشرة:

- وكم ستدفعون ؟

- خمسة ملايين .

- وعمولتي ؟

- طلباتك ؟

- لا أخفي عليك، لدي عرض ب خمسة ملايين غير ثمن البيت .

بدا الاندهاش والقلق على وجه الدكتور هادي .. لكنه قال :

- سنعطيك ستة ملايين .

- سأرد عليك قريباً، لكن أريد تفاصيل أكثر عن الشاري .

- ليس من صلاحياتي أن أجيبك .

- ولن سنبيع ؟ ألن نكتب عقدا ؟

- وقت العقد ستعرف كل شيء .

وقف مؤنس إيذاانا بالانصراف .. لكنه نظر إلى الدكتور هادي وقال :

- سؤال أخير أصر على إجابته .

- تفضل .

- لم ؟ .. لم كل هذه الأموال في بيت قديم في قرية نائية ؟

- العميل يعتبره تحفه، هو حر .

- وأين رآه هذا العميل ؟ ومتى ؟

- هذه أمور لا تهملك يا دكتور .. ولكني أيضا لدي سؤال وأريد الصدق أرجوك .

- تفضل .

- من غيرنا طلب البيت ؟

- هذه أمور لا تهملك يا دكتور .

خرج من عنده مذهولا، لا يصدق ما يجري له .. تتقاذف التساؤلات في عقله .. وتتلاطم أدوات الاستفهام .. رافقته ماذا؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ منذ خرج حتى وصل إلى شقته ولم تتركه تلك الأدوات حتى أعد حقييته الصغيرة ليسافر إلى كفر الأكناز ليتبع خيطا قد يؤدي به إلى فهم الأمور .

طلبان للبيت في يوم واحد .. مبالغ ضخمة .. ومن قبلهما محاولة صبري المستميتة للحصول على البيت، كان بديها أن في الأمر سرا وأن أمرا يحاك بليل .. فما هو؟؟؟

على الرغم من ابتعاده عن بغداد إلا أن ذكره كان قد علا فيها حين انتشر بين الناس حديث واقعته مع ابن المعتز، وتذاكر الناس تلك الرواية بطرق مختلفة يزيد بعضها عن بعض أو ينقص، فعظم في أعين الناس وزادت مكانته بين الجند الذين لا تخلو قلوبهم من شعوبية ؛ إذ إنهم رأوا فيه رمزا لشجاعة الموالي وعدم الخنوع أمام غطرسة العباسيين العرب شاربي لبن الإبل وأكلة الضب .

وبينما كان المكتفي على بن أحمد يشكو عله في جوفه، وفسادا في أحشائه، تكون في تلك السنوات حزبان يصطرعان في الأروقة السرية لبلاط الخلافة، حزب يقوده عبد الله بن المعتز وقد جمع إليه كثير من القادة وأصحاب الدواوين، والآخر يقوده الوزير العباس ورأس حريته صافي الحرمي .. والخليفة تزداد علته بعد أن ابتلي بكثرة الفتوق واضطراب الأطراف، فينصاع لهؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى في أمور السياسة .

اشتدت العله بالخليفة في شعبان من هذا العام، وأفرط عليه المرض وأزال عقله، حتى أخذ صافي الحرمي خاتمه من يده، وأنفذه الى وزيره العباس بن الحسن؛ حتى يدبر أمر ولاية العهد ومعه خاتم المكتفي والخليفة لا يعقل شيئا من ذلك، وبلغ ذلك العامة فأخذ الناس يتحدثون في ذلك ويتوقعون الخليفة القادم بين متأسف لحال الخليفة ومستبشر بموته

وكان العباس يكره أن يلي الأمر عبد الله بن المعتز، ويخافه خوفا شديدا، رغم أن الصلة بينهما ظاهرهما الود، فعمل على تصيير الخلافة إلى رجل آخر من بني العباس وهو أبو عبد الله محمد بن المعتمد على الله، فطلب حضوره إلى داره ليلا، وأحضر معه القاضي محمد بن يوسف وحده ليكون شاهدا على ما يدور بينهما من حديث له خطره على البلاد كلها، وبدأ الوزير الحديث قائلا :
- يا أبا عبد الله إن الخليفة على ما بلغك من حال ..ينهشه المرض وتحوطه الآفات .

- شفاه الله وعافاه من كل سوء .
- للأسف لا رجاء في برئه من أمراضه، وما انفك أطباؤه يخبرونني بذلك .
- لا حول ولا قوة إلا بالله، أخلف الله علينا بمن يقوم بحال الأمة كالمكتفي .
وفجأة، اعتدل الوزير في جلسته وواجه الأمير العباسي ثم قال له في جد:
- ما لي عندك إن سقت هذا الأمر إليك ؟
فوجئ الأمير العباسي بهذا السؤال، لكنه أجاب :
- لك عندي ما تستحقه من الإدناء والتقدمة .
- أريد أن تحلف لي ألا تخليني من إحدى حالتين .
- وما هما ؟

- إما أن تريد خدمتي فأنصح لك وأبلغ جهدي في طاعتك وجمع المال لك
كما فعلت لغيرك، وإما أن تؤثر غيري فتوقرنى وتحفظني، ولا تبسط على يدا
في نفسي ومالي وولدي .

فقال ابن المعتمد بهدوء :

- لو لم تسق هذا إلى لما كان لي معدل عنك في كفايتك وحسن أثرك فكيف
إذا كنت السبب له، والسبيل إليه!
- أريد أن تحلف لي على ذلك .

- إن لم أوف لك بغير يمين لم أوف لك بيمين .

فقال القاضي محمد بن يوسف للعباس :

- ارض منه بهذا، فإنه أصلح من اليمين .

عندها مد الوزير يده وهو يقول :

- قد قنعت ورضيت فامدد يدك حتى أبايحك .

قبض ابن المعتمد يده وسأل في اهتمام .

- وما حال المكتفي؟

- هو في آخر أمره، وأظنه قد تلف .

فهب ابن المعتمد واقفا وهو يقول :

- ما كان الله ليراني أمد يدي لبيعه وروح المكتفي في جسده، ولكن إن مات

قبلت بيعتك .

فقال محمد بن يوسف :

- الصواب ما قلت، وانصرفوا على هذه الحال .

ثم أن المكتفي أفاق وعقل أمره، فجاءه صافي الحرمي وقال له: حين كنت

في مرضك أرجف الناس بعبد الله بن المعتز ومحمد بن المعتمد وذكرهما لهذا

الأمر، فلو رأى أمير المؤمنين أن يوجه إلى كل منهما، فيوكل بهما أحدا في دارهما ويحبسهما فيها، لكان أدنى للحكمة، فإنك لا تأمن أن يسعى أحدهما إلى ذلك الأمر وأنت في مرضك فقال له المكتفي: هل بلغك أن أحدهما أحدث بيعه علينا؟ فقال له صافي: لا، فقال الخليفة: فما أرى لهما في إرجاف الناس ذنبا فلا تعرض لهما بسوء .

وظل الأمر على ما كان عليه من اتفاق بين الوزير ومحمد بن المعتمد ينتظران موت المكتفي ليتما الأمر، ولكن الأقدار كانت أسبق منهما، فقد وقع بين ابن عمرويه صاحب الشرطة وبين أبي عبد الله محمد بن المعتمد منازعة تشبه ما جرى بين مؤنس وابن المعتز، حين اجتمعا يوما في مجلس الوزير العباس بن الحسن وجرى بينهما خطاب فأربى عليه ابن عمرويه في الكلام حتى أهانه إهانة بالغة، ولم يكن ابن عمرويه يعلم بما رشح له ابن المعتمد، ولم يتمكن ابن المعتمد من أن ينتصف منه بقول أو فعل يفرج ما نزل به من الهم، فاغتاظ غيظا شديدا كظمه ولم ينفذه فغشى عليه وفلج في المجلس، وفوجئ الجالسون به لا يشعر بشقه الأيمن واعوج فمه وكسرت عينه اليمنى فاستدعى العباس أطباء الخليفة فما استطاعوا له نفعا .. فأمر العباس أن يحمل على بغلة فارهة، إلى منزله في تلك الصورة .

وبعدها انصرفت نفس الوزير الى التفكير في غيره لمنصب الخلافة، فلما لم يجد أمامه إلا ابن المعتز، وفكر في أن أمر الخلافة صائر إليه شاء أم أبى، فقال أدخل في طاعته من الآن كي أضمن مكاني معه ففعل معه مثلما فعل مع ابن

المعتمد وأقسم على أن ينفذ الأمر إليه وأقسم ابن المعتز على أن يقدمه ولا يستوزر غيره ما دام حيا، وذكر عامة الجند والقواد مثل ذلك لابن المعتز فما شك أحد في أن الخلافة قد اختارت ابن المعتز راغمة، ولبت الجميع منتظرين موت المكتفي ليعلم ابن المعتز خليفة المسلمين .

ولكن الوزير كان في حيرة باهظة وخوف شديد من ابن المعتز رغم ما بينهما من اتفاق، فجعل يشاور من صح لديه حسن مشورته يريد بذلك أن يترجح رأيه، وكان يركب من داره إلى دار السلطان ويسايره واحد من الأربعة الذين يتولون أكبر الدواوين، وهم: أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح صاحب ديوان الجند، وأبو الحسن محمد بن عبدون صاحب بيت المال، وأبو الحسن بن الفرات صاحب ديوان الخراج، وأبو الحسن علي بن عيسى صاحب ديوان النفقات، وهم رجال الدولة القادرون على إنفاذ أي شيء إن اتفقوا .

فركب معه محمد بن داود بن الجراح، فشاوره العباس، فأشار بعبد الله بن المعتز بالله، وقرّظه، وظل يصف محامده ويعدد مزاياه، يدفعه في ذلك هواه وميله إلى ابن المعتز .

ثم ركب معه في اليوم الثاني أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات فشاوره فقال له:

- هذا شيء ما جرت به عادتي، فاعفني يا سيدي الوزير من الخوض فيما يعلو قدرتي .

- ولم ذلك يا رجل وأنت من أصحاب الدواوين ؟

- إنما أشاور في العَمال لا الخلفاء .
- فأظهر العباس غضبا وألح عليه وقال له :
- هذا أمر لا يخفى عليك .. وإني محتاج إلى رأيك يا أبا الحسن .
- إن كان رأى الوزير قد تقرر على إنسان بعينه فليستخر الله وليمض ما عزم عليه .
- كان ابن الفرات قد علم أنّ الوزير ليس أمامه إلا ابن المعتزّ وقد اشتهر الخبر وصار الناس لا يعرفون إلا أنّ الخليفة بعد المكتفي هو ابن المعتز .
- لا أريد منك إلا أن تمحضني النصيحة .
- إذا كنت مصرا على ذلك فإنّي أقول: لا تنصب في هذا الأمر من قد عرف للناس كل دار وكل نعمة وكل بستان وكل جارية وكل ضيعة وكل فرس .
- ما قصدك ؟ أفصح .
- إن من حسب حساب ما عند الناس من مال ونعم، سيأخذ ذلك إن استوى على كرسي الخلافة .
- علت الدهشة وجه الوزير فقال :
- أعد علي ما قلت :
- فأعاد ابن الفرات قوله .. فأطرق الوزير مليا ثم قال
- إن لم يكن ابن المعتز فبمن تشير؟
- بجعفر بن المعتضد .
- ويحك، جعفر صبي .

- إلا أنه ابن المعتضد، ولماذا نجيء برجل يأمر وينهى و يباشر التدبير بنفسه ويرى في نفسه استقلالا ؟ ولم لا تسلّم هذا الأمر إلى من يدعك تدبّره أنت ؟
ثم شاور أبا الحسن عليّ بن عيسى وابن عبدون في اليوم الثالث واجتهد بهما أن يسمّيا له أحدا، فامتنعا وقالوا : لا نشير بأحد، ولكن ينبغي أن يتقى الله وينظر للدين .

فمالت نفس العباس بن الحسن إلى رأي أبي الحسن ابن الفرات لكنه انتظر ما تثول إليه الأمور .

ثم اتفق أن أفاق المكتفي يوما أو بعض يوم، وكان كلام صافي الحرمي عن ابن المعتمد وابن المعتز قد وقع في نفسه، وخاف أن يزول الأمر عن ولد أبيه، فأخذ يقلب الرأي فيما يصنع وأخوه جعفر صغير وابنه محمد أصغر وجعل يوازن بين خطتين، أولاها أن يعهد إلى ابن المعتز وهو لها كفء وعليها حريص، والثانية وكانت أقرب إلى قلبه وهي أن يعهد إلى أخيه جعفر، فسأل عن حاله فصح لديه أنه بلغ الحلم، فاستقر رأيه على أن يعهد له بالخلافة من بعده، فشاور صافي الحرمي في ذلك فأشار عليه بأن ذلك نعم الرأي، وقوى عزمه على أن ينفذ رأيه ففعل .

وأعلن للناس أن الخليفة قد عهد إلى جعفر، وجمع الحرمي كل القادة ورجال الدواوين ليحلفوا عند الخليفة لجعفر، فانساق أكثرهم وهم كارهون، فما ولي الخلافة من قبل غلام لا يحسن شيئا، وكثر كلامهم في ذلك، وتذاكروا ما روي من أن أباه المعتضد هم بذلك الصبي ذات يوم حين أبصره وهو ابن

ست سنوات وقد جمع الجواري حواليه وأخذ يطعمهن بيده من عنقود عنب في زمن عز فيه العنب ثم يأخذ هو حبة منه مثلهن، فعد ذلك سفاهة لا تصح ممن قد يقود الدولة، ورأى أن أمر الخلافة لو آل إلى ذلك الفتى لضاعت الخلافة ووهى حالها ..

وكان ابن المعتز قد ذهب إلى المجلس وعلى وجهه سواد وكآبة ما رئي مثلها، وخرج من المجلس هو وأشياعه ثم اتفقوا على أن ذلك لن يكون، وعليهم فقط أن ينتظروا موت الخليفة ثم يغيروا ذلك، واستشاروا الوزير في ذلك فلم يعطهم جوابا قاطعا، فتردد الجميع في أن يظهر رأيا خوفا من أن يكون العباس بن الحسن قد غير سابق كلامه مع ابن المعتز، وعندها بدا للجميع أن موقف الوزير العباس هو الذي سيحدد ما سيكون من أمر الخلافة.

ثم مات المكتفي ليلة الأحد، لاثنتي عشرة من ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ، وكان الوزير قد انعقد رأيه على إنفاذ أمره وتقليد جعفر، وخلع يده مما اتفق عليه مع ابن المعتز وشيعته، فأرسل صافي الحرمي إلى دار عبد الله بن طاهر وكان أبناء بيت الخلافة يقيمون فيها كي يحضر جعفر .. كانت الدار على النهر، كذلك دار الخلافة ودار الوزير، فمضى الحرمي يركب حرّاقة في النهر إلى دار عبد الله بن طاهر، ولما وصل إليها نعى إلى أهل الدار الخليفة المكتفي فضج البيت بالبكاء والنواح .. انتظر الحرمي جعفر حتى اغتسل وتطيب واصطحبه معه .

فلما اجتازت الحراقة التي ركب فيها جعفر وانتهت إلى دار العباس بن الحسن صاح غلمان العباس بالملّاح أن: ادخل، ذلك أن الوزير أمرهم بذلك ينبغي أن يبدل جعفر ملابسه ويتهياً لما سيكون وهو لا يعلم بأن الحرمي قام بذلك، فظن صافي الحرمي حين سمع صيحات الغلمان أنّ العباس إنّما يريد أن يدخله إلى داره لتغيّر رأيه فيه وأشفق أن يعدل عنه إلى غيره، فمنع المّلاح من الدخول وجرد سيفه وقال للمّلاح: إن دخلت رميت برأسك، فانحدر وجها واحدا إلى دار السلطان .

وكان جعفر حينذاك صبيا له ثلاث عشرة سنة معتدل القامة جميلاً، أبيض بحُمْرة، مدوّر الوجه، مليحاً ذا نباهة وفطنة، ربي في بيت الخلافة وحذق سننها، فدخل القصر المعروف بالحَسَنِي وقد ارتسم الجلال وتصنع الرزانة، فلما دخله ورأى سرير الملك منصوباً أمر بحصير صلاه فبسط له، وصلى ركعتين ركعتين وهو يرفع صوته بالاستخارة ثم جلس على السرير، وأقبل الناس يسلمون عليه بأمر المؤمنين .. ثم يقدمون عزاءهم في وفاة أخيه ثم يبايعونه .

ودارت البيعة على يدي صافي الحرمي والأمير فاتك المعتضدي الذي كان غلاماً للمعتضد، وكان من أخلص أصدقاء مؤنس إذ إنهما بدأ الخدمة معا وتقلبا في شقاء الخدمة معا، وحضر العباس بن الحسن الوزير وابنه أحمد حتى تمت البيعة وتلقب جعفر بالمقتدر، ثم غسل المكتفي، ودفن في موضع من دار محمد بن عبد الله بن طاهر .

أتم العباس أمر البيعة للمقتدر وأنفذ عطاء البيعة للجند كما جرت العادة مع جلوس كل خليفة على سرير الملك، كان ذلك على مرأى ومسمع من ابن المعتز فلم ينبس ببنت شفه، ولم يكلم الوزير في إخلاف وعده وعدم البر بقسمه .. دخل فيما دخل فيه الناس كارها، ثم بث رجالا يتحدثون بين الناس بأن ذلك لا يجوز شرعا؛ لأن الخليفة صغير لما يبلغ الحلم وليس ممن تجوز له إمامة المسلمين العظمى، ففشا ذلك في الناس وما زالوا يتكلمون، واتصل ذلك بعلم الخليفة وأمه فخافا العاقبة واستشارا الحرمي، فأشار بأن تستعمل الأموال كي تغلق أفواه العامة وأن يستعمل السيف فيمن يثبت منه كلام كهذا، فأنصت الخليفة إلى الحرمي وسار خلفه وأمر بقطع رأس رجل سمع يردد تلك المقولة فخاف الناس بطشه وسكتوا عن ذكر ذلك، ثم استعمل جوده في إرضاء الناس وفرق فيهم الأموال وأسقط عن كثير من الباعة ما كان مفروضا عليهم منذ أيام المعتضد وأيام المكتفي وأحسن إلى بني هاشم وزاد في أرزاقهم فرضي عنه العامة والخاصة وملك الناس .. واستوزر العباس بن الحسن وأطلق يده في العمل، فصرف الأمور على ما كان أيام المكتفي بالله .

مضى شهران والأمر على ما يحب الخليفة والوزير، إلا أن الحرمي كان رجلا داهية لا يطرح الحذر في أمره كله، وكان يراقب المعسكر الآخر عن كثب، فثبت لديه وجود تحركات مريبة واجتماعات خاصة تعقد بين ابن المعتز وخلصائه؛ فحشي على الخليفة مما قد يفعله ابن المعتز أو يفكر فيه .. ونقل طرفا من ذلك إلى الخليفة الصغير وأمه؛ فدب الخوف في نفسيهما وتحيرا فيما

ينبغي أن يفعلوا، فرأى الخليفة أن الحكمة تقتضي أن يحيط نفسه بالمخلصين من الشجعان وأهل الحزم، فنذكر مؤنسا وذكره للحرمي فقال الحرمي : نعم ما أشرت يا مولاي، فأرسل الخليفة في طلبه يريد أن يلحقه بمعيته .

كانت الكتب قد طارت إلى الأمصار بأخذ البيعة للخليفة الجديد فبلغ النبأ مكة، فأحس مؤنس بأن بشارة الشيخ طاهر ستتحقق، كان منشغلا بتدبير أمور الحجيج الذين بدءوا التوافد إلى مكة، في تلك الأيام من شهر ذي القعدة، فلما دخل شهر ذي الحجة لسنة ٢٩٦ هـ، أتم مناسك الحج، ومكث ينتظر ما سيكون مصيره، ولديه يقين بأن الخليفة سيذكره ويستدعيه ليعيد له سابق مكانه، وإن لم يحدث ذلك فلا بد أن صافي الحرمي سيفعل .

ولما تأخر البشير بما يجب حدثته نفسه أن يكتب للحرمي بحاله ويطلب منه العودة، لكنه لم يفعل وقرر ألا يعرض نفسه عليهم وإن لم يتذكروه .

وفي أخريات شهر صفر من تلك السنة جاء الخطاب الذي ينتظره منذ أربع سنوات إنه خطاب الخليفة إلى مؤنس فطار به فرحا، وجهز راحلته على عجل ثم ودع جماعة من أصحابه، وطاف بالبيت سبعا في وداع مكة وقلبه يكاد يطير فرحا، ولولا أن ابنه عمارا كان قد صحبه في الطواف لأخطأ العدد، وبعدما انتهى من طواف الوداع انطلق يريد بغداد، لقد اشتد شوقه إلى محبوبتيه بغداد وورد .. ها هي الأيام تنقضي ويعود مجددا وقد صفت الأحوال ولا خوف عليه من أحد مادام الخليفة هو جعفر المقتدر صديقه القديم .

لما فكر في الأمر مليا لم يجد أمامه إلا احتمال وحيد، هو أن البيت به مقبرة أثرية، فقد طالما سمع تلك الأقاويل من عائلته ومن أبناء البلدة .. حتى أصدر الجد فرمانا بعدم الحديث عن ذلك الموضوع، وإن كانت المسألة هي الأسرار .. فليذهب لمنبع الأسرار .. جدته لديها التفسير ولا أحد سواها لما عاد بعد مشقة الطريق وندرة المواصلات كانت نائمة وكذلك البيت كله كالعادة، حتى أمه لأنها كانت مرهقة بعد يوم عمل شاق في الحقل وفي حظيرة المواشي .. لم يطق الصبر حتى الغد فطرق باب جدته .

- ابني .. حبيبي .. حمدا لله على سلامتك .

ارتعى في أحضانها في شوق ولهفة .. ثم جلس على طرف سريرها صامتا، بدا غريبا أن يسكت سكوت من يحمل هما ويتردد في الإفصاح عنه، فطنت إلى أن هناك . أمر جلي؛ فقالت له بلهفة .

- ما بك يا ولدي؟ .. أراك مهموما وقلقا .

- نعم، ويبدو أن تكشفني الهم وتزيلي القلق .

- خيرا يا مؤنس، أقلقني يا بني .

سكت قليلا .. كأنه يستجمع أفكاره، ثم قال بصوت واضح:

- حكاية المقبرة الأثرية ..

- ماذا ؟

- الكنز يا أمي ؟

- قالت وقد تملكها انزعاج شديد .
- هذه تخاريف يا بني، أي كنز؟ وما الذي جعلك تذكره اليوم؟
- احك لي يا أمي ما تعرفينه لا تزيدني حيرتي .
- قل لي أولا ما الذي جعلك تسأل اليوم؟ .. ماذا جد يا بني؟
- أتاني شراة للبيت بملايين يا حني .
- أتبيع بيتنا يا مؤنس؟
- لم أقل ذلك .. ولكن ساعدني كي أفهم .. لم يريدون البيت بشدة؟ ولم يدفعون فيه ملايين؟
- ومن هم يا ولدي؟
- ليس مهما من هم، المهم حكاية المقبرة .. فهؤلاء لا يدفعون ملايين في بيت قديم من غير سبب يا حني .
- سكنت لحظة ثم استأنفت :
- (الي قضاء مضاه يا وليدي، ما تنبش في الغاية يكفيك السو)
- ليس لي طريق إلا معرفة السر .
- دع هذا الموضوع واترك الشر يا حبيبي .
- إن تركته فلن يتركني .. فأخبريني .
- لقد أغلقنا هذا الباب منذ زمن فلا تعد فتحه .. أستحلفك بالله .
- لكن ذئابا يطاردونني بشأنه وأريد أن أعرف كيف سأتعامل معهم .

- يا ولدي لا تفتح باب الشر، فما سلمنا من أذاه بعد .

- لا تترك ابنك تائها ويبدك هده .. أرجوك .

فكرت قليلا .. وهو في هفئة في انتظار ما تقول .. وبعد لحظات قالت :

- (طلبك غالي يا ابن الغالي .. الصباح رباح يا ابني) .. اذهب الآن، نم وغدا
تنفذ مشيئة الله .

- أتحكين لي غدا ؟

- إن شاء الله .

لم ينم ليلتها .. بات الأرق رفيقه الدائم .. إن لم يكن بسبب الحب فبسبب
القلق .. بسبب الفضول .. وحده الحزن هو ما كان يدفعه للنوم .. سويغات
ثم صلى الفجر في مسجد القرية .. وعاد ليجد جدته التي لم تنم أيضا .. إنها
على وشك النباش في سر دفنته الأسرة بكل قوة وحزم .. كانت تعلم أنها هذه
اللحظة سوف تأتي، وكانت تؤجلها وتسوف فيها قدر طاقتها .. لما طرق بابها
كانت مستعدة لاستقباله لتبدأ المصارحة :

- البيت فيه مدخل كنز كبير .. جدودك - الله يرحمهم - حاولوا كثيرا أن
يخرجوه .. جاءهم شيوخ كثر .. كلهم قالوا لهم إنهم يعرفون كيف يفك
السحر وتفتح المقبرة لكنهم فشلوا مرارا في الوصول إلى باب المقبرة .. وفي
يوم جاء مجاور البلحي إلى جدك وفقّي، قال له إن ساحرا مغربيا أتاه وقال له
إن البيت فيه كنز وهو قادر على معرفة مدخله الصحيح .. رفض جدك الأمر

لظنه أن المحاولة هذه المرة ستفشل مثل سابقتها، لكن في اليوم التالي جاء رجل من الحزب .. رجل نافذ وكلمته مسموعة ..

- وما اسم ذلك الرجل يا حني ؟

- اسمه معتز مرعي ..

- من ؟ معتز مرعي ؟ .. إنه ..

- أعرفه يا بني .. عملك معه كان بمثابة تعويض .

- تعويض عن أي شيء ؟

- لا تتعجل سأحكى لك كل شيء ... في هذا الوقت كان الصراع محتدماً على عمودية الزمام مع العشائية .. واستطاع العشائية أن يحسموا الأمر لصالحهم بالرشاوى التي قدموها في الداخلية، أخذوا العمودية بالفعل .. كاد جدك يهلك غماً بعد سماع الخبر .. قضى أياماً لا يكلم أحداً، ولا يخرج لمقابلة أحد .. تغير الوضع عندما دخل علينا هذا الرجل المشؤم، فقد طار به جدك، لأنه كان يرجو أن يسانده في أمر العمودية ... يوم دخل هذا الرجل بيتنا يا مؤنس مات جمل جدك الكبير فتشاءمت من وجوده وشعر قلبي بأن شيئاً محزناً تديره الأقدار لذلك البيت .. حاولت أن أنصح جدك بالابتعاد عنه لكنه لم يلتفت إلى تحذيراتي ولا توسلاتي، أصم أذنيه وسار خلف رغبته المحمومة في استعادة العمودية وهزيمة راضي العشيبى، وقد حدث ما أراد .. فقط مكالمة تليفونية من معتز مرعي لمدير الأمن وقضى الأمر، وعادت العمودية ثانية للعبادة .

لم أر جدك سعيدا بهذا القدر قبل ذلك اليوم، والحق أن الفرحة كانت غامرة في كل بيت من بيوت العبايدة .. قضينا أربعة أيام بليالهن في الفرحة، الذبائح والطبل البلدي والمزمار طاف كفر الأكناز وكل القرى، جدك وأعمامك وأبوك ... الله يرحمك يا همام .

قطع حديثها نوبة بكاء على ذكر الراحل ثم استأنفت، كلهم رقصوا بالأحصنة وقاموا بالتحطيب، وقتها كنت أنت بصحبة أمك عند أخوالك، وكانت أمك حاملا بهام الصغير وكان الثمن هو السماح لذلك الرجل بالحفر في البيت على أن يقتسموا ما يجدونه في المقبرة وتواعدوا على أن يبدأ الحفر بعد أن ينتهي الاحتفال بعودة بالعمودية .. حضر معتز تلك الليالي الصاخبة وسط حفاوة أهل القرية بهذا الرجل الكبير، وحرص جدك على التباهي بمدى نفوذه .. والغريب أنني وجدته يتودد إلى أبيك بشكل لافت، ويخلو به لأوقات طويلة يتحادثان .

قال مؤنس : أبي ؟ .. وهل عرفت فيما كانا يتحادثان ؟

فقلت : لما سألته بدأ يراوغني ويكذب في حديثه ويدعي أنه حديث عادي .

فقال مؤنس : وكيف عرفت أنه يكذب ؟

قالت : الأمهات يعرفن يا بني .. المهم أنه بعد انتهاء الفرح أتى معتز بك مرعي، ومجاور والرجل المغربي ومعهم اثنين من الأجانب وأربع رجال يبدو من زيمهم أنهم (صعايدة) ومعهم عدة الحفر .. دخلوا في الغرفة القبليّة ومعهم أبوك وجدك .. بعد حوالي ساعة خرج جدك يطلب شايا للرجال ... صنعت

الشيء وأرسلته مع عمته فائزة الله يرحمها .. توقفت لنوبة بكاء أخرى ..
لأنها تذكرت ابتها فائزة .

- عمتي فائزة ؟ وأعمامي أين كانوا ؟

- كان جدك يتجهز لأسوأ الأمور ويحسب للغدر حسابا؛ فجعل أعمامك
يتجهزون بالسلاح في حجرة البنات .. المهم بعد ساعتين وجدوا مدخل
المقبرة ... الحفر لم يستغرق طويلا فقد سهلت المحاولات السابقة لأجدادك
مهمة الحفر على الرجال .. بعد أن وجدوا باب المقبرة .. خرج الصعابدة ..
لأنهم خافوا أن يحضروا فتح الباب .. فتح الساحر المغربي باب المقبرة بمعاونة
أبيك وخاف أيضا من النزول وخرج لينتظر خارجا مع رجال آخرين تابعين
لمعتز مرعي كانوا في الحديقة .. كان دخول المقبرة أمرا شديدا الخطورة .. فكم
سمعنا عن رجال فقدوا السمع والبصر والكلام لهول ما رأوه في المقابر الأثرية
.. تحير الجميع فيمن ينزل .. ولما تردد الجميع تقدم معتز من جدك وأخذ
يرجوه أن يأمر أباه بالنزول .. وعده بأموال ضخمة نظير ذلك .

- وهل وافق جدي ؟

- لا، لقد رفض بشدة، وفي أثناء انشغاله بمحاورته تقدم أبوك مسرعا إلى
باب المقبرة ونزل إلى أسفل دون تردد ودون أن ينتظر إذن جدك، وأنا لا أشك
مطلقا في أن ذلك الرجل هو الذي أغراه بالنزول وحبب إليه المجازفة، ولا
تفسير عندي لحديثهما السابق إلا هذا .. لقد اعتمد ذلك المخادع على غرام
أبيك بالمجازفة وحببه للزهو بشجاعته .

قال مؤنس في لهفة : وماذا حدث بعدها ؟

قالت الجدة : مع سرعته في التحرك لم يتمكن جدك وفقى من إيقافه ..
أخبرتني بذلك فائزة بعد أن عادت بأكواب الشاي .. مر الوقت ثقيلًا ونحن
نترقب الخبر .. لم نسمع شيئًا .. أردت أن أعرف الأخبار فصنعت قهوة ثم
أرسلتها مع فائزة لتستطلع الأمور .. وفجأة سمعت صرخة انخلع لها فؤادي
.. انطلقت إلى الحجرة وخلفي كان جميع أعمامك قد أتوا بالسلح لما سمعوها
.. تلقاني أبوك ومعه مجاور البلحي على باب الحجرة وأمرونا بالعودة في الحال
.. إنه همام لقد ميزت صرخته .. إنه ابني من كان يصرخ .. يصرخ وأنا
محتجزة في الخارج لا أدري ما به .. عاد أعمامك إلى مكانهم كما أمرهم وفقى ..
وظللت متسمة في الصالة أمام الحجرة وأنا أرتجف وركبتاي تصطكان من
الخوف .. دفعني جدك لأبتعد عن الصالة فما تحركت قيد أنملة .. لا أعلم من
أين أتيت بتلك القوة لأقف أمام وفقى وأنا التي ما خالفته قط .. لم أدخل
ولكني تسمرت في مكاني لا عمل لي إلا البكاء خوفًا من المجهول .. اقتربت
من الباب مرة أخرى .. نهري جدك .. وأمرني بالابتعاد .. تراجعت خطوات
قصار وأنا أرتعد خوفًا .. أدعو الله أن ينقذ ابني ولا أدري من أي شيء ينقذه
.. مضت ساعة أخرى وأنا واقفة بين بكاء ودعاء .. لم أنتبه ساعتها إلى أن
عمتك فائزة قد كانت معهم بالداخل لم تخرج منذ أرسلتها بالقهوة .. وحين
تذكرت ذلك ذهبت مسرعة إلى باب الحجرة .. فوجدت أباك ومجاورا
يخرجون من الحجرة يحملونها بين أيديهم .. صرخت ودخلت الحجرة

لأطمئن على همام .. فما وجدت إلا معتزا والأجنيين .. يتحادثون بلغتهم .. لم أفهم شيئا .. عدوت لأسأل جذك .. كانت إجابته نشيج وأنين .. جلس وقد سقطت عمامته يبكي أمام سرير عمته التي كانت تفتح عينها ولكنها فقدت القدرة على الكلام أو تحريك أطرافها .. جلست بجوار سريرها وأنا أصرخ ابني يا وفقي .. همام يا وفقي .. ظللت أصرخ وأناادي ولا جواب، وبعد مرات من الصراخ جاء الجواب رصاصة في القلب، كان صوت مجاور البلحي يجيب عما لم يستطع أبوك أن ينطق به .. ابنك مات يا صاحبة الله يرحمه .. كلمته لن أنساها ما حييت، وما ذكرتها قط إلا تمنيت أن أقتل هذا الرجل الكريه .. أحسست بالأرض تدور بي لم تحملني قدماي .. حاولت الوقوف فما استطعت .. سقطت على الأرض غائبة عن الوعي .

من شدة البكاء لم تستطع الجلدة إكمال حكايتها .. احتضنها مؤنس وبكيا حتى علا نشيجهما معا .. الآن بات يعرف كيف مات والده وكيف أصيبت عمته بالشلل .. إن الرواية التي سمعها عن موته كانت أنه مرض فجأة ثم انتقل إلى جوار ربه .. لم يكن أحد في البيت يتحدث عن مرضه أو يصف يوم وفاته ويتحدث عن حجم جنازته كما يصنعون مع كل موتاهم الذين يستعيدون قصص موتهم ربما بشيء من التباهي أحيانا .

ذكرياته مع أبيه كانت قليلة حقا .. يذكر أياما غائمة الصورة في أقصى ركن الذكريات .. حتى في المرحلة الابتدائية التي كانت إقامته فيها في القرية شبه كاملة لم يكن يعلم من أمر أبيه شيئا لأنه كان دائم الغياب بداعي العمل

في تجارة الحبوب .. لم ينزعج من ذلك قط؛ حيث وجد جده يمنحه ما يريده
الطفل من أبيه كاملا غير منقوص .. يذكر كم كان أبوه تام الصحة قوي البنية
.. لم يكن موجودا حين قضى أبوه منذ خمس عشرة سنة .. أخبروه أنه مات بعد
صراع مع المرض وحين سأل بداعي الفضول عن ذلك المرض جاءت
الروايات متضاربة .. فخمّن أن ذلك لجهلهم بطبيعة المرض .

تذكر موقفه الصعب حين عاد من سفره فأخبروه بموت أبيه وكان قد مر
وقت طويل على موته، وقتها لم يدر ما المشاعر التي تملكته، كان انقباضا لا
يعلم درجة اقترابه من الحزن، واضطرابا مشوبا بالحرج من الأعين التي تنتظر
ردة فعله بإشفاق شديد وتتأهب لبكاء يثير أشجانهم ويهيج ما خبا من جذوة
ألمهم، كان عليه أن يبكي ويظهر الأسى لتلك الفاجعة .. لكن الدموع لم
تطأوه على ذلك .. اتهم قلبه الذي تحجر وعيناه التي جمدت، وبدا له أن بينهما
تواطؤا على إظهاره بمظهر الجاحد؛ فلم يجد إلا هروبا اضطراريا إلى حجرته،
وارتاح حين اتفق الجميع على أنه بحاجة إلى البقاء وحده ليتقبل الفاجعة ..
لماذا يبكي الآن بأثر رجعي؟ لماذا تتقاطر الدموع الآن بتلك الغزارة ؟ ..
أيبكي على أب لم يعرف عنه إلا اسما وبعض الحكايا عن شجاعته كان يمتلئ
بها زهوا ؟ .. أيبكي تعاطفا مع جدته الحزينة ؟ أهو الألم الذي يسببه العجز
عن الانتقام من رجل غدا الآن قاتلا لأبيه وقاتلا لأحلامه ؟

خرج مؤنس من الحجرة يبغي بذلك أن يترك جدته لتستريح قليلا ثم يعاود
سؤالها عن التفاصيل، لقد زاد حقه على معتر مرعي ووجدت كراهيته له ما

يغذيها، غلب عليه شعور طاغ بالرغبة في الثأر، كان البيت قد استيقظ ودبت فيه الحركة ولم تنته الجدة من كشف كل الأسرار .. كفكف دمه وبادر بالذهاب إلى أمه وإخوته ليسلم عليهم قبل أن يتبها لما يحدث في حجرة الجدة .. لكن أمورا في القصة لم تتضح بعد، كيف مات أبوه ؟ وأين ذهبت جثته ؟ وكيف دفنوه ؟ وماذا رأوا في المقبرة ؟ وماذا أصاب عمته ؟ أين ذهب معتز مرعي ؟

جلس شارد الذهن وأمه تحدته عن تلك الفتاة التي رشحوها له والتي ينبغي أن يزورها اليوم بحسب اتفاقه معهم .. حدثته بحماس عن تعليمها العالي ونسبها الرفيع ومدحت جمالها وأخلاقها .. لم يتبها إلى حرف مما قالتها الأم، فقط أوهمها بأنه يتابع كل كلمة؛ فقد كان يجيد الإصغاء الظاهري ويعرف متى يغير من طبيعة وجهه كي يبدي علامات الإعجاب أو الاندهاش أو الاستمتاع بالحديث، وغير ذلك ليثبت في المتكلم شعورا بأنه خير مصغ .

كان ينتظر وقتا ملائما ليكمل الحديث مع جدته ليسد الثغرات في القصة ويبدد وحشة الغموض .. وأنى له ذلك الانتظار ؟ .. مشاعر الغضب والألم والرغبة في الثأر تطارده .. بدت له فكرة قام على الفور بتنفيذها .. بخطوات مسرعة خرج من المنزل وسار باتجاه المسجد .. وبجوار المسجد كان ذلك البيت القديم .. طرق على الباب برفق ثم تخلّى عن الرفق حين لم يأتها جوابا من الداخل .. أين ذهب ذلك الرجل ؟ لقد رأيته في صلاة الفجر .. أياكون نائما ؟

ليس ذلك وقت الاختفاء يا بلحة .. دار حول البيت ليحرب النداء على صاحب البيت .

- عم مجاور .. يا شيخ مجاور

- من بالباب ؟

- أنا مؤنس العبايدي

- يا مرحبا يا ألف مرحب يا ابن الغالي .. تفضل ...

قالها وهو يفتح الباب ويكمل ارتداء جلبابه، ويقتاد مؤنسا إلى غرفة بها مكتب صغير لكنه فخم .. تعجب مؤنس وهو يدخل ذلك البيت لأول مرة، ذلك البيت الذي يقيم فيه الشيخ مجاور وحيدا بعد أن حرمه القدر من زوجته وابنه على أثر حادث مروع لا تزال البلدة تذكره حين يتذكر أهلها الحرائق، فلم تشهد البلدة حريقا بهذا الحجم ولم تأت قوات الإطفاء من قبل إلى القرية إلا يوم اشتعل بيت الشيخ مجاور بسبب انفجار أنبوبة غاز، حاول الرجل بعد ذلك أن يستمر بحياته فتزوج امرأة أخرى لكنه طلقها بعد قليل ولم يتزوج بعدها .

كان البيت رغم بساطته من الخارج إلا أنه عصري جدا من الداخل به كل كماليات البيت الحديث .. لا يعلم لذلك الرجل الغريب عملا محمدا يدر عليه دخلا .. تذكر كيف صادفه في أماكن كثيرة لا رابط بينها .. من أنت بالتحديد يا بلحة ؟ أراد أن يفتح الحديث مع الرجل فقال:

- كيف حالك يا مولانا ؟

- بخير يا حبيبي .. خطوة عزيزة .. يا أهلا يا أهلا .. وانطلق الرجل في عبارات مجاملة لا تنتهي .. شعر مؤنس بالسأم؛ فهو ليس فارغ ليتحمل كل تلك الجمل المعلقة الجوفاء، فقال بحزم :
- عندي لك بعض الأسئلة يا شيخ مجاور .. وأرجوك الصراحة والحق لأنك ستقسم على ما ستقول على كتاب الله .
- خيرا يا بني ..
- احك لي وبالتفصيل كل ما شهدته ليلة وفاة أبي .

من حديث المقهى ٣

كان عدد من رواد المقهى قد تجمعوا يستمعون إلى الحكايتين، لفت انتباههم صوت التاريخ المرتفع ولباسه العجيب، لم يدعهم أحد إلى الجلوس على طاولة التاريخ ورفيقه، لكن أحدا لم يمانع، و الرفيقان يزداد حماسهما كلما لاحظوا وجود جمهور متلهف لسماع الحكايتين .

ولكنهم فوجئوا بزميلهم الآن يقول في ضجر : إلى أين تمضي بنا تلك القصص يا رفاق ؟ مضى زمن ونحن نجتمع لنسمع منكما .. فمتى تفرغان من الحكى ؟

أجاب التاريخ : يمكنني أن أنتهي اليوم؛ فقستي حدثت منذ زمن بعيد .. لكن الغد مصمم على أن يتبع الأحداث التي تجري في القصة لحظة بلحظة لينقلها لنا .. يبدو أنه يريد أن يضيفي على حكاياته نوعا من المصادقية ..

الغد : وما الذي لا يصدق فيما حكيت ؟

قال التاريخ وقد افترت شفتاه عن ابتسامة مأكرة : لا أقصد أن أشكك في حكايتك أو أسألك ثانية عن مصادرك، ولن أشير إلى أنك تكاد تنقل القصة حرفيا من فيلم تيتانك، لكنني أبرر لصديقنا سبب التأي في السرد

بدا الغضب على وجه الغد وهو يقول مستنكرا : وأين قصتي من الفيلم يا رجل ؟

قال التاريخ بهدوء : الفتاة الجميلة المثقفة، والشاب الفقير، والأم الأرستقراطية التي تعتمد في استكمال نمط حياتها على الخطيب الغني الذي هو بالمصادفة جاء في قصتك شديد الغطرسة والتعالي، ناهيك عن محاولة تهريب الماس ومشابتها لماسة الفيلم، لكنني في كل الأحوال مستمتع جدا بالحكاية فلا بأس بذلك عندي .

وجم الغد من تلك الموازنة التي عقدها التاريخ ولم يستطع أن ينقدها بشيء كأنه انتبه الآن إليها .. فرد بعصبية : ما أحسبك إلا ساعيا وراء تخطئتي فقط . كلا، وأقسم لك على ذلك .. وأصدقك القول إنني قد أستمع حقا .. ولم أقل إنك تدعي العرافة والعلم بخبايا الأمور .. إنني فقط استمعت إلى روايتك ثم جلبت من عندي ما يائنها ..

عاد الغد إلى هدوئه وقال متضحكا ليقول من قيمة تشككه : بقي إذن أن نأمل ألا يموت البطل في النهاية .

قال التاريخ : ليت لا يموت في قصتك لأنني ما زلت حزينا على موت رونالدو دي كابريو في الفيلم .

أراد الغد أن يغير دفة الحديث فالتفت إلى الآن وقال له متعجبا : وفيم العجلة يا رجل ونحن نستمتع بمراقبة الأحداث .. ولا أظنك منشغلا بشيء .

الآن :ظنك خاطئ، فأنا أريد أن أذهب إلى أسرتي لأطمئن عليها، فإنني لست مثلكم، إن لي أولادا وزوجة لعلهما اليوم في قلق علي .

وفجأة سكت الجميع وتبادلوا نظرات قلقة عندما رأوا التاريخ تتساقط دمعاته ويمسحها بأطراف أكمامه في محاولة فاشلة لإخفائها .

وجم الآخرين قبل أن يتحرك الغد خطوات متعللا بأنه ذاهب إلى الحمام ..
ولحق به الآن ليعرف السر ..

- ما خطب الرجل ؟

- ألا تعلم ما حل به ؟

- كلا لقد سألته من قبل عن حكايته فما أفصح عن شيء .

- إنه يعيش ألما شديدا بسبب أسرته، وقد نكأت الجرح الذي لن يندمل
بحديثك عن الزوجة والأولاد .

- لم ؟ ما قصته بالتحديد ؟

- لقد أحب فتاة هام بها عشقا، ولكنه أسرف غاية الإسراف في العناية بها
وتلبية كل رغباتها بعد الزواج .

- ثم ماذا ؟

- كان يعمل مدرسا للتاريخ، ودخله يكاد يكفيه .. ألحت عليه الزوجة حتى
يسافر للعمل بإحدى دول الخليج كي يؤمن مستقبلها ومستقبل المولود الذي
تحمله في بطنها .

- وماذا حدث ؟

- سافر المسكين لإرضائها، وواصل العمل ليلا ونهارا كي يجمع الأموال
التي يرضي بها زوجته .. لكنها كانت شديدة الطمع .. كلما أراد أن يعود

ليستقر معها ومع ابنه كانت تخرع له سببا يجعله يستمر .. خمس عشرة سنة من العمل المضني وهو يصل الليل بالنهار ليعمل ويحول لها الأموال .. وهي توهمه بأنها اشترت بالأموال بيتا أو أرضا أو ذهباً ... وفي لحظة ما جاءه الخبر القاتل .

- وما ذلك الخبر؟

- أنبئ أنها قد نالت حكماً قضائياً بالخلع وسافرت مع رجل آخر بأمواله .

- وابنه ؟

- أخذته معها و لم يره .. أصيب بانهيار عصبي شديد أثر على عقله، والمستشفى تكفلت بالباقي .

- مسكين فعلاً .

- لقد شخص مرضه بأنه فوبيا شديدة الضرر على نفسه وعقله .

- من أي أنواع الفوبيا ؟

- نوع غريب يسمونه الخوف من الأمل، لقد بات يخشى أي أمل لظنه أن بعده تكون خيبة الأمل، لا يجب أن يختبر انهياراً نفسياً آخر لتعلقه برجاء كاذب .

- غريب فعلاً .

- لذا ينبغي أن تكون حريصاً في محادثته بذلك الشأن ولا تفتح ذلك الموضوع بأي شكل؛ فإنك سوف تعود إلى أولادك بطريقة ما، وأنا سأندبر

أمري وأسافر إلى الخارج معك أو من دونك لأبدأ حياة جديدة، أما هو فقد
انتهت حياته ولم يعد له إلا الحياة في سجن الماضي .. فرفقا به .
عاد الرجلان إلى حيث موضعيهما، واتخذا مجلسيهما أمام التاريخ الذي كان
قد مسح دموعه واستعاد بشاشته وبدا أكثر استعدادا لاستكمال السماع
والحكي .

وصل إلى بغداد قبل أسبوع من بدء الأحداث الكبرى، وقبل أن يذهب إلى بيته عرج في سبيله بكوخ ابن أبي زرعة وأرسل ابنه مع خادمين له ليذهبوا إلى الدار القديمة في سكة أبي قرّة ريثما يسلم على ورد وعلى أبيها .

طوال الطريق كان يفكر في لقائه بها ، ماذا سيقول لها ؟ وماذا ستقول له ؟ كيف هي بعد أربعة أعوام ؟ ما حال أبيها وما فعل به الزمان ؟ كان قد اشتد به الشوق إلى ورد وبعدت الفترة منذ سأل عن أحوالهم في آخر مرة .

لما وصل إلى الكوخ راعه أن المكان خال من الناس .. أين المزدحمون على باب الشيخ الذين حكى عنهم الرجل الذي أرسله ؟ نادى، فما سمع جوابا .. نادى ثانية وثالثة واستمر الصمت .. ترجل وطرق الباب، فلم يجب أحد .. ساورته المخاوف واستبد به القلق، فكر في دفع الباب ليرى، لكنه أحجم عن ذلك، فربما كانا نائمين وليس من اللائق أن يدخل عليهما بعد تلك المدة بهذه الطريقة .. أثر أن يصبر بعض الوقت ثم يعاود طرق الباب .. جلس تحت ظل شجرة على مقربة من الكوخ ينتظر وعينه مصوبة على بابه .. بعد مدة لم يستطع الصبر ولم يطق الانتظار .. قام وطرق على الباب بعنف ونادى بأعلى صوته ولا يجب .. فدفع باب الكوخ .. فوجده خاليا .

فكر لأول وهلة في احتمال أن يكونا قد ذهبا لبعض حاجاتهما وأنهما سيعودان، لكن لم يكن في الكوخ ما يدل على أن أحدا يسكنه، كان شكل

الكوخ الفارغ من كل شيء يعني أنهما انتقلا من ذلك المكان، هل طاب لهما
المقام بخراسان ونسيا أمره ؟

لم تكن لديه وسيلة ليعرف، فليس هناك جار يسأله أو أحد يعرفها ليدله،
نزل بقلبه حزن عميق، ولكنه لم يفقد الأمل، فإن أعاد إليه المقتدر منصبه
السابق فسيكون لديه من أساليب البحث ما يمكنه من معرفة مصيرهما .

عاد إلى بيته واغتسل وارندى جبة من الديباج فوق قميص من الخز وعمامة
سوداء وتطيب بأحسن الطيوب ثم انطلق إلى قصر الخليفة بالمحرم وهو لم
يطعم طعاما ولم يأخذ حظه من الراحة؛ فلا بد له من أن يمثل بين يديه أولا
ليرى ما ستكون مهامه المقبلة في دولة الخلافة .

لم ينتظر طويلا أمام إيوانه؛ فقد كان سوسن حاجب الخليفة يعرفه تمام
المعرفة، لما دخل الإيوان ولقي الخليفة وجد السنوات الأربع قد أحدثت فارقا
كبيرا مع الخليفة الذي تركه طفلا وعاد إليه ليجده مشروع رجل، نبتت بعض
شعيرات خفيفة على شارب صغير وزاد طوله كثيرا عما تركه، ولولا ذلك
العرش الذي يجلس عليه الآن وتلك الهالة التي تحيط به لربما أنكره، سلم عليه
بالخلافة، فإذا بالخليفة يقف له ويلقاه بالأحضان، ويقول له :

- مرحبا بالبطل الكبير، اشتقت إليك يا رجل .
- حفظكم الله يا أمير المؤمنين، وأدام عليكم نعمه .
- لم ألقك منذ قتلت كتيبة القرامطة أيها المغوار .
- كانوا أربعة رجال فقط يا مولاي .

- ولكنك رجل يقدر أن يهزم كتيبة .. أليس كذلك ؟

- وجيشا بعون الله إن أحسست على الخليفة بالخطر .

- هذا ظني بك يا قائد جيوشي .

- ماذا تقول يا مولاي ؟

- أقول ما سمعت سأجعلك صاحب ديوان الجند .

طار مؤنس فرحا، وأخذ يعبر عن شكره ويدعو للخليفة .. فإذا بصافي الحرمي يتقدم من الخليفة ويهمس في أذنه بكلمات، فتغير وجه الخليفة وصمت قليلا ثم التفت إلى مؤنس وقال له .. امض مع صافي واستمع له جيدا .. واعلم أنك منذ اليوم من أخص رجالي ومن أهم أركان دولتي، ثم التفت إلى الحرمي وقال له : يا حرمي .. أعطه ألفي دينار ليشتري دارا جديدة وألفين آخرين ليشتري ما يلزمه، فقال مؤنس: حفظ الله أمير المؤمنين وزاد في عزه وجعلنا الله فداءه .

ثم سار مؤنس خلف الحرمي وقلبه بين البشر بوعد الخليفة والقلق مما سيقوله الحرمي .. وإن لم يشك مطلقا في محبة الحرمي له .. سارا حتى خرجا من الإيوان ودخلا معا حجرة لصافي في القصر .. قال الحرمي :

- اعلم يا مؤنس أنك من المقدمين عندي وعند الخليفة .

- لا شك في ذلك أيها الأمير .

- واعلم أننا نقدر شجاعتك وتفانيك في خدمة السلطان والوفاء لدولة

الخلافة .

- هذا واجبي، فهلاً أرحتني وأصرت بما قررتما .
- سأذكرك أولاً بما حدث لك، حين وقعت ضحية تأمر خسيس لما وضعناك
في موضع ابن عمرويه .

- أذكر يا سيدي .. وكيف أنسى ؟

- فهل تود أن تكرر التجربة ؟

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أن الأمر هذه المرة ليس مع ابن عمرويه، ولكنه مع ابن الجراح وهو
أشد مراسا وأقوى ناصرا، ولما يستتب الأمر بعد للخليفة يا ولدي، فهل ترى
أنه من الحكمة أن نشعل نار الفتنة مع رجل يطيعه عامة أمراء الجند ويهابون
صولته ؟

فطن مؤنس إلى مقصد الحرمي فهز رأسه نافيا وكأنه اقتنع بصواب رأيه وإن
كان في قلبه بعض الحزن لضياح الفرصة .. استأنف الحرمي قائلاً :
- فاعلم يا بني أن وضعك في ديوان الجند هو غايتي وغاية الخليفة أيضا،
ولكننا نخشى إن فعلنا أن تهب العاصفة فتقتلع الخليفة نفسه .

- ماذا ؟ ومن يجرؤ ؟

- ابن الجراح يملك الجرأة يا مؤنس .

- أيدعيها لنفسه ؟ لن يقبل أحد بذلك حتى خاصته .

- بل يدعيها لآخر من البيت العباسي .

- ومن يكون ؟

- ابن المعتز، فقد كثر تلاقيهما، وما زالت الأنباء تأتيني بنحو ذلك .
 - أيفعلون بعد أن رضوا وبايعوا ؟
 - أنا أدرى بالأمر والناس منك يا مؤنس، وإني أشتُم رائحة الخطر، وثمة أنباء قد جاءتني بأن أمرا يحاك بليل، فعليك أن تتأهب لأمر عظام .
 - أنا فداء الخليفة ودولته .
 - حسنا، ولهذا فإنك ستقوم بدور آخر .
 - وما هو ؟
 - سأخبرك ولكن مهمتك ستكون خطيرة وتتطلب حرصا وكتما .
 - أنا مستعد لأي مهمة تحفظ للخليفة حياته وسرير ملكه .
 - هذا ظني بك، فاستمع جيدا .
- خرج مؤنس من لقاء الحرمي وقد وعى خطته وذهب إلى بيته ليسترخ من عناء السفر وقبل أن ينام استدعى عبيدين كانا له، وطلب منهما أن يطوفا على كل مساجد بغداد وكل خوانق الصوفية وكل حلقات العلماء ليسألوا عن رجل عابد يدعى طاهر ابن أبي زرعة، ووعدهما بأنهما إن جاءا بخبر الرجل سيعتقهما ويعطيها من الأموال ما يغنيهما، فقالا إن بغداد واسعة وربما استغرق ذلك وقتا طويلا وقد يحتاج الأمير إلى الخدمة ونحن غائبان، فقال لهما :
- لا عليكما أخدم نفسي إن شاء الله، ولكن لا تعودا دون الخبر .
- عندما أصبح الصباح تطيب ولبس أحسن الثياب ثم ركب جواده وسار ويبدأ في شوارع بغداد .. اجتاز قطائع الجانب الشرقي من بغداد ومر بجوار

قصر المهدي بالرصافة واستمر في المسير بجانب نهر المدى حتى شارف على ديوان الجند، نزل عن جواده وتقدم إلى جندي يقف على باب ابن الجراح وطلب لقاءه .. غاب الجندي زما ومؤنس واقف وقد استبد به السأم لغياب الجندي، وبعد مدة عاد إليه يخبره بأن الأمير مشغول، فقال له مؤنس : أتعرفني يا جندي ؟، فقال : ومن منا لا يعرف الأمير مؤنس ؟ إنك يا سيدي من أحب الناس إلينا، ولكن اعدرنى؛ إنني أنفذ أمر الأمير محمد بن داود، فقال مؤنس : فأنفذ إلى سيدك هذا الكتاب

كان كتابا عليه خاتم الخليفة بتولية مؤنس فرقة من فرق الجيش الكبرى، فغاب الجندي طويلا مرة أخرى، ثم عاد : يقول لك الأمير انصرف الآن وسيظهر في أمرك .

كان مؤنس يغلي دمه وقد احمر وجهه من الغضب فما كان ليتخيل أن تبلغ بذلك الرجل الغطرسة والكبر إلى هذا الحد، كان يعلم أن الأمراء استصوبوا جعفر المقتدر وأضحوا لا يحفلون بغضبه ولا يطلبون رضاه، وأن صاحب التصريف والأمر والنهي في دولة الخلافة هو الوزير أبو العباس وأصحاب الدواوين من بعده ويحرك هؤلاء ابن المعتز، ولكنه كظم غيظه وعاد إلى بيته وقد غلبه الهم بما كان والقلق عما يكون .

حين اقترب من منزله لمح عبده حسان واقفا أما المنزل بقامته القصيرة وشعره الأجعد وملامحه الحبشية .. خف إليه ظانا أنه يحمل خبرا عن الشيخ

طاهر، وحين اقترب وجد الغلام في حال مزرية، يرتدي أسمالا بالية وعلى وجهه عبسة تنذر بوقوع أمر ما .. صاح من فوره :

- ما خطبك يا حسان ؟ هل وجدت الشيخ ؟

- كلا يا سيدي .

- فما حدث لك ؟ .. أخبرني .

أخذ حسان في البكاء وقال :

- ضربوني يا سيدي وأخذوا ملابسي .

صاح مؤنس في غضب :

- من فعل ذلك ؟

- رجال الشرطة يا سيدي ..

- لماذا ؟ أحك لي ما حدث .

- ذهبت أمس لأبدأ البحث عن الشيخ طاهر وقد اقتسمت المدينة مع سالم

وتكفلت بالجانب الشرقي .. ذهبت يحدوني الأمل في الحرية حتى إنني لم أنتظر

الصباح .. وفي أثناء سيري عطفت على خان المعمورية لأتزود بطعام ..

وعندها خطر لي أن أسأل أهل الخان عن الشيخ؛ فلعل أحدهم يعرفه ..

جلست بقرب أحد الرجال وسألته بلطف عن الشيخ، فما أن سمع اسم

الشيخ حتى انتفض وأخذ يسب الشيخ ويلعنه، فأردت أن أستوضح سبب

اللعن فما ظفرت منه إلا بعبارات لم أتبين معناها وسط صخب حديثه

الغاضب .. ومع ارتفاع صوته تجمع من في الخان .. ثم أقبل صاحب الخان ولم

أكن قد طعمت شيئاً وطلب مني مالا فوق ما قدرت .. فقلت له إنني لا أحمل ذلك المال، فجعل يسبني ويدفعني بيديه خارج الخان، فامتثلت أمره ولم أنطق بشيء، وعندها أقبل عليّ رجلان من الشرطة كانا في الخان قد قاما يسألاني عن مقصدي وعن عملي وعن سيدي .. فلما قلت لهم إنني خادمك اقتاداني إلى ابن عمرويه صاحب الشرطة، فأعاد علي السؤال عن عملي وسيدي، فقلت له إنني خادم الأمير مؤنس .. فأمرهم بجلدي وحبسي ففعلوا ولم يطلقوني إلا منذ ساعة .

أنهى العبد كلامه والدموع تبلل لحيته الصغيرة .. فقال مؤنس والغضب يملأ نفسه :

- لا بأس يا حسان .. لا تبك .. لقد آذوك لأنك مني .. أراد ابن عمرويه أن يخبرني أنني ما زلت صغير الشأن حين الخطر .. صبرا يا ابن عمرويه فلك يوم يستحيل فيه العزيز ذليلا .

ثم أطرق مؤنس قليلا يحدث نفسه : غريب ما حكيته يا حسان، ما الذي يجعل أحدا يذكر الشيخ بسوء ؟

وبعدها توجه إلى العبد وربت على كتفه وقال في عطف .

- أنت حر يا حسان، على أن تبقى معي حتى ذلك اليوم الموعد الذي سأجعلك فيه تتصف من جلدوك .

تهلل وجه العبد وكشفت ابتسامته عن أسنانه البيضاء وقال بوجه مبسوط .

- أشكرك يا سيدي على كرمك ونبل شيمك، واعلم أنني سأبقى في كل حال حتى تطمئن مني على خبر الشيخ طاهر إن شاء الله .
- لا يا حسان ستكون في البيت وإن عاد سالم فأخبره أن يتكفل بالبحث في المدينة كلها ..

دخل بيته بعد تلك الحادثة وقد استحوذ عليه هم عظيم وتملكه غضب شديد .. إنه يتلقى صفعتين مؤلمتين في ساعة واحدة .. أيسكت على ما كان ؟
أم يرفع الأمر للخليفة ؟

فكر وقدر، ثم فكر وقدر ثم أمعن في تقلب الأمور وتبصر المستقبل، وبعد طول تفكير ومراجعة أخذ قرارا جريئا وقام على الفور بتنفيذه .. ركب دابته وسار إلى بيت القاضي أحمد بن يعقوب، وكان رجلا خبيث الطوية إلا إنه دمث الأخلاق حلو اللسان طيب المعشر، استقبله القاضي بحفاوة وأجلسه، وبعد أن استقر بهما المجلس قال مؤنس :

- إنني أيها القاضي حيث قد علمت من الخليفة المقتدر، يجب أن يدنيني ويرفع قدري، فهو ما يزال على ذكر مما كان مني يوم الغابة
- له الحق؛ فأنت شجاع ثقة .

- أشكرك يا مولانا، ولكن الخليفة صبي لم يسس الأمور ولا عرك الحياة، فما لأمره من نفاذ إن لم يرض القادة والأمراء .
- نظر إليه القاضي في عجب .. ثم قال :
- كيف ذلك ؟

- وجهني الساعة إلى محمد ابن داود ابن الجراح ليولينى أمر قطعة من الجيش فما امثل أمر الخليفة وأمعن في إصغار أمري .
- ولماذا لم تذهب إلى الخليفة لتخبره؟
- لأنى أعلم أننى لن أكسب بهذا شيئاً .
- ففيم جئتني ؟
- لما رأيت أننى قد قاسيت مرارة الاغتراب وضاع قدرى بسبب كلام قلته فى حق ابن المعتز من قبل ، لم أحب أن ألدغ من نفس الحجر مرتين ، فالعاقل من يعتبر ومن لم تعلمه التجربة فلا عقل له .
- كلام صحيح ، ولكنى لم أقف بعد على غايتك ، فأصرح بها يا ولدى .
- جئتك كي تسعى فى الصلح بينى وبين ابن المعتز وابن الجراح فإني لا آمن على نفسى وهما علي غاضبان .
- ابتسم القاضي وقال ، سأفعل ما بوسعي ثم أعلمك بما كان .
- لك شكري يا سيدي القاضي ، واعلم أنهما إن قبلا الصلح لرجوت أن أكون فى خدمتهما فى كل ما يطلبان .
- يدبر الله الأمور يا بني ...
- انصرف مؤنس من عند القاضي أحمد بن يعقوب وقد قدم طلبه ولبث فى البيت ينتظر ما تسفر عنه سفارة القاضي وهو بين القلق والرجاء .. ثم أسلم نفسه لنوم متقطع .

في صباح الجمعة كانت وعد تتجهز للانطلاق إلى المطار برفقة أمها، بدا لها أن حالة أمها باتت مستقرة، مما أتاح لها أن تفكر بعمق في حالها مع عمر ومؤنس .. كان طريقها واضحا واختيارها لا شبهة فيه للحيرة أو التردد .. حتى إنها تعجبت من ذلك القرار الجاهز الذي اتخذته وكأنها فكرت فيه مئات المرات، ذلك القرار الذي وجد من تدخل عمر في خصوصياتها سببا ليعلن نفسه .. إنها تعلم من تجارب سابقة أن القرار الصائب لا يقبل منفردا بل يأتي مصحوبا براحة وطمأنينة واستعداد لتحمل العواقب .. وهكذا تشعر تجاه قرار انفصالها عن عمر .

إلا أن حاجتها إليه في ذلك الظرف جعلها ترجئ كل تصرف حتى تنتهي من عملية أمها .. أنها لم تتأكد بعد من شعور مؤنس .. كانت مطمئنة تماما إلى أن قصتها مع مؤنس ستكون ناجحة لما تراه من رسائل العيون التي تبدي ما في الضمائر، ولكن اللسان هو الترجمان الحقيقي الذي لا بد من الاستماع إليه وأخذ أقواله في قضية الحب .. فليس هناك شهادة للحب بتوقيع العيون، وإنما الشهادة أن ينطق اللسان بكلمة أحبك .

ورغم أنها لم تتسلم تلك الشهادة رسميا إلا أنها قالت لنفسها سوف أترك عمر في كل الأحوال حتى ولو لم تكمل حياتها مع مؤنس وهذا قرار محسوم لا رجعة فيه اتخذته بقلبها وقال عقلها آمين .. ولكن متى سيعلن عن ذلك الانفصال ؟ فضلت أن يكون ذلك بعد أن تسافر إلى بريطانيا مع أمها

كان الشوق قد غلبها .. إنها تريد أن تتخلى الآن عن كل استراتيجيات السيطرة الفاشلة .. تريد أن تستسلم له وتعلن أنها تحبه .. فتحت حاسوبها لتحدثه فوجدته غير متصل، جلست منتظرة أن ترى علامته الخضراء .. ولما أعيها الانتظار وكان لابد لها من البدء في تجهيز نفسها للسفر كتبت إليه رسالة .

"أين أنت ؟ حين تستيقظ كلمني للضرورة". ثم أغلقت حاسوبها ومضت تكمل ما كانت منشغلة به من استعدادات السفر، وقررت أن تتعامل مع الوضع الراهن وبعد ذلك يمكن الانفصال بشكل حضاري محترم ..

جاءت سيارة الإسعاف لتحمل أمها إلى مطار برج العرب حيث ستطير بهم الطائرة إلى مطار القاهرة أولاً؛ لأنه لا توجد رحلات مباشرة إلى بريطانيا من مطار برج العرب، ولهذا حجز عمر على رحلة تقلع من القاهرة، لم تستطع أن تجلس بجوار أمها في سيارة الإسعاف حيث رفض الطاقم الطبي ذلك بإيعاز من عمر .. فاضطرت إلى ركوب سيارته مع خالها الذي جاء معها لكي يودع أخته في المطار .. كانت جالسة بجواره في المقعد الخلفي، لكن الصمت كان هو المسيطر طوال الطريق إلى مطار البرج .. أراد الخال الجالس في المقعد الأمامي أن يفتح بعض الحديث لتسلية الطريق لكنه فوجئ بصمت وتجهم حملاه على السكوت بقية الطريق، وقدّر أن ذلك بسبب الحزن والقلق على حالة أم وعد .

كان عمر يريد فرصة معها ليناقدش مصيرهما معا .. يريد أن يبدو غاضبا لأنها تواصلت مع صعلوك وأطمعته في أن يسرح بخياله ليظن أنه سينالها، ويريد أن يبدو عطوفا متسامحا متقبلا لقراراتها .. ويريد أن يسترضيها إن كانت غاضبة من فتح حاسوبها .. لا يعرف من أين يبدأ .. ولكنه واثق من لباقتة وقدرته على تصريف الحديث كيف يشاء .. عليه فقط أن يشرع في الحوار .

لكن الوقت لا يسمح بذلك لمرض أمها، والمكان لا يسمح بذلك لوجود خالها ووجود السائق الذي يوصلهما إلى المطار ليعود بالسيارة، فأرجأ كل ذلك حتى يجلس بجوارها في طائرة لندن .

في الواحدة ظهرا كانت في المطار مع أمها التي جلست على كرسي متحرك وقد اتصل بها بعض أجهزة الإعاشة وبرفقتها طبيب وعمر مرعي .. دخلوا من صالة كبار الزوار بفضل نفوذ عمر وكأنه كان يريد أن يشعرها بقيمته .. انتهت إجراءات التفتيش بشكل سريع وروتيني وصعدوا إلى الطائرة .

جلست بجوار أمها في الدرجة الأولى .. وعلى بعد خطوة جلس عمر، ينتظر إقلاع الطائرة ليشرع في محادثتها .. وفجأة تعطلت كل مظاهر النفوذ في لحظة سوداء دخل فيها إلى الطائرة قبل إقلاعها أربعة رجال أشداء في حلل سوداء يبدو من هيتهم أنهم من رجال الشرطة .. بدءوا بالسؤال عن جوازات السفر وتذاكر الطيران .. ثم طلبوا من عمر ووعد والأم أن ينزلوا من الطائرة لأمر مهم ..

- ما الأمر يا حضرة الضابط ؟

- ستعرف كل شيء في حينه .

استجاب عمر وهو في غاية الرعب والارتباك وأسند المرأة هو وعد ونزلا بها وهي تعجب لذلك الأمر وقد استبد بها القلق من أن تقلع الطائرة دونهم .
اقتادهم الرجال مع حقائبهم إلى مكتب واسع وانخرطوا في عملية تفتيش للحقائب .. حاول عمر أن يمنعهم فأسكته أحدهم بلطف ومضوا في التفتيش .. ارتفع صوته بأنه عمر مرعي ولن يسكت على تلك الإهانة، فما التفتوا إليه واستمروا في عملهم، أخذ يهددهم ويتوعددهم بالحساب العسير .. فأسكتوه بعنف ومضوا في التفتيش .. كان كل ذلك يجري كما يحدث في الأفلام وهي ذاهلة لا تكاد تستوعب ما تراه .. وفجأة توقفوا عن التفتيش حين أخرج أحدهم من إحدى الحقائب حقيبة ثقيلة بها كيسا بلاستيكا أسود به عشرات من علب الأدوية، كانت تلك الحقيبة قد أعطاه لها عمر قبيل دخول المطار وطلب منها أن تضعه داخل حقيبتها الكبرى .. بدأ الرجال يفتحون علب الأدوية .. وكانت المفاجأة التي أذهلت الجميع كانت علب الأدوية ممتلئة بحبات ماس صغيرة وأحجار كريمة متنوعة ..

- ما هذا يا عمر بك ؟

- لا أعلم إنها ليست حقيبتى .

- ولما صاح الرجل : اقبضوا على الجميع ... سقطت وعد على الأرض دون

حراك ..

ظل مؤنس في عالمه القلق على هذه الحال من الوجل والترقب حتى أرسل القاضي في طلبه عشية ذلك اليوم .

ارتدى ملابسه وذهب على عجل، فاستقبله القاضي بالحفاوة نفسها، ثم سار معه إلى المسجد لصلاة العشاء ومؤنس في قلق لما سيكون، وينتظر أن يخبره القاضي بنتيجة السفارة .

أم القاضي الناس وشرع في القراءة ومؤنس لا يكاد يسمع من التلاوة حرفاً لفرط انشغاله بها سيقع بعد الصلاة .

فرغ القاضي من الصلاة ثم خرج هو ومؤنس من المسجد، وبعد خطوات قال له إن الوساطة قد أثمرت واستجاب الرجلان، وأنها سيتوجهان الساعة إلى بيت ابن المعتز لتصفو الأجواء نهائياً .

حين وصلا كان الجمع قد التئم، كان مجلس ابن المعتز قد ضم وجوه القوم وكأن تلك القاعة الفسيحة التي بها مجلس القوم هي مجلس الخليفة، كل أصحاب دواوين بيت المال، وخزانة السلاح، وديوان الرسائل وديوان الخراج، وديوان الخاتم، وديوان الجند، وديوان الحوائج، وديوان النفقات .. وشعراء ومحدثين وعلماء، فيهم أبو جعفر الضبي النحوي، وعلي بن يحيى المنجم الشاعر، وأحمد بن سعيد الدمشقي، وأبو بكر الصولي وغيرهم .. ماذا أبقى إذن للخليفة ؟

سلم القاضي وردوا السلام، ثم جلس وأجلس مؤنسا بجانبه ..

بعد برهة بدأ القاضي الحديث مخاطباً ابن المعتز:

- يا أبا محمد إننا جئناك طامعين في كرمك ومؤملين في عفوك .. ثم صمت قليلاً ..

- أكمل أيها القاضي .

- إن مؤنسا قد جرب منك بعض السخط فكان في ذلك شقاؤه حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فأتى اليوم يترضاك لعله يجد منك بعض الرضا، وقد علم أن في ذلك سعه، فما قولكم ؟
أريد أن أسمع منه . - .

قال مؤنس : يا سيدي الأمير، أنت الكريم ابن الكرام وبين يديك امرؤ قد ارتدى لباس الضعة فأصبح من النادمين .. يا سيدي أنت أكبر مما فعلتُ، وأنا أصغر من أن تسخط على، وهبني أسأت فأين عفو بني هاشم، وكرم القرشيين الأشراف ؟

قال ابن المعتز بتعاضم : قد أقلنا عثرتك يا رجل، ويبدو أنك وعيت ما أنشدتك إياه من قبل ..

فقال مؤنس بلهفة : لرجوت أن تعيده على يا سيدي الأمير؛ فذلك أوعظ لي وأحرى أن يبصرني إن أضلني الشيطان .

فاعتدل ابن المعتز في جلسته وبدأ ينشد بزهو :

نَصَحْتُ بَنِي رَحْمِي كُلَّهُمْ	نَصِيحَةَ بَرٍّ بِأَنْسَابِهَا
دَعُوا الْأُسْدَ تَفْرِسُ ثُمَّ اشْبَعُوا	بِمَا تَرَكَ الْأُسْدُ فِي غَابِهَا

وَمَا يُنْتَقَصُ مِنْ شَبَابِ الرَّجَا لِي يُرَدَّ فِي مُهَاهَا وَأَلْبَابِهَا
وَكَمْ دُهَى الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ فَلَا يُؤْكَلَنَّ بِأَنْيَابِهَا
أَيَا رَبِّ أَلْسِنَةٍ كَالسُّيُ فِ ثُقَطَّعَ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا
وَأِنْ فُرْصَةً أَمْكَنْتَ فِي الْعَدُوِّ وَفَلَا تَبْدَ فِعْلَكَ إِلَّا بِهَا
وَأِنْ لَمْ تَلِجْ بِأَبِهَا مُسْرِعًا أَتَاكَ عَدُوُّكَ مِنْ بَابِهَا
وَأَيَّاكَ مِنْ نَدَمٍ بَعْدَهَا وَتَأْمِيلٍ أُخْرَى وَأَنْيَابِهَا

فقال مؤنس :

- ما أروع إنشادك يا سيدي، ولكن أخبرني ألم تزد فيها شيئاً ؟

- بلى، زدت ثلاثة الأبيات الأخيرة .

لمعت عينا مؤنس ببريق الظفر؛ فقد فهم الآن قول ابن أبي زرعة العابد، وعلم أنه كان يقصد تلك الثلاثة التي زادها ابن المعتز، كأن الشيخ كان يقول له كن نهازا للفرص وأياك أن تترك الغنيمة دونها اغتنام، وإن أمكنك من عدوك غرة فلا تتردد وإلا تندم، ابتسم مؤنس ابتسامة ظفر حين اهتدى إلى حل الأحجية .. ثم قال :

- لست بعقل إن لم أع تلکم الحکم يا سيدي، ولا أبقي الله علي إن لم أعمل بقولك .

تراجع ابن المعتز في مقعده في زهو كأي شاعر يسمع تقرير قول، في حين افتر فم مؤنس عن بسمة رضا عن مجيئه فقد أنثرت الخطوة التي خطاها

مؤنس كل الثمار المطلوبة، فقد أمن جانب ابن المعتز، ولا بد أن ابن الجراح سيسمح له بقيادة الفرقة التي أمر بها الخليفة، وتستقيم له الحياة كما يؤمل .

امتد المجلس لساعات يتناشدون الشعر ويتراوون الأخبار ويتذكرون المغازي والسير ويصفون الجواري والقيان ويدل كل منهم بدلوه فيما يعرف ويستمع إلى ما لا يعرف، وربما يخرج حديثهم إلى أمور أخرى من ألوان العبث والجد .

كان مؤنس شديد العجب من تلون هؤلاء القوم وشديد الإنكار لتناقض وجوههم وأقوالهم وأفعالهم، إنه مجلس علم وشعر ولكنه يكشف الوجه القبيح للسياسة، فالمجلس به رافضة ونواصب وجبرية وقدرية ومعتزلة وأشاعرة كلهم يسبون بعضهم البعض في مجالسهم الخاصة وأمام تلاميذهم وأشياعهم ثم يقبلون على بعضهم بالأحضان في ذلك المجلس دونها نكير .. يتساءل كيف للمحدثين والقضاة أن يرضوا بوجود الخمر ودوران الكئوس في مجلس علم يؤمونه؟ وكيف لرجل كابن المعتز يقول : من شارك السلطان عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة، وهو أيضا القائل: أشقى الناس أقربهم من السلطان، كما أن أقرب الأشياء من النار أسرعها إلى الاحتراق .. فكان العجب ممن يقول تلك المقالات ثم يستमित هو نفسه ليكون السلطان وليس فقط من بطانة السلطان .

بعد مدة أخذ الجلوس ينصرفون تباعا، وكان من أوائلهم انصرفا القاضي أحمد بن يعقوب، فاستحى مؤنس أن يمكث في المجلس وقد ترافقا في

المجيء، فاستنذن وانصرف معه، وقبل أن يخرج ناداه ابن الجراح قائلاً: اغد علي في الصباح أيها القائد مؤنس، فقال مؤنس بفرح: لك السمع والطاعة أيها القائد.. ثم خرجا وعاد مؤنس إلى بيته بعد أن أوصل القاضي إلى بيته.

كان كل ما حدث في ذلك المجلس قد انتقل في الليلة إلى صافي الحرمي، فلما جاءه سوسن الحاجب بتلك الأخبار زاد فيها أن مؤنسا عرض بالخليفة وانتقصه.. لم يصدق ما يقال، وقال لسوسن: من أين لك ذلك؟ فقال سوسن إن لي رجلاً يجالس ابن المعتز قد أخبرني، فقال الحرمي: إن مؤنسا ما كان يبيع رضا الخليفة الذي استقدمه من أقصى الأرض ليشتري رضا من هو دون الخليفة، ولعل صاحبك خطأ أو كذب، فلما أكد له سوسن تلك المعلومات مرارا أرغى وزبد وصاح يلعن مؤنسا ويسبه أمام الحاجب وخدم القصر ثم أخذ يتوعد ذلك الخائن بأسوأ المصائر إن ثبت صدق ذلك الكلام.

بدت على الرجل علامات عدم الاستيعاب، أو هكذا أراد أن يبدو، أعاد عليه مؤنس السؤال بصياغة جديدة : كيف مات أبي يا شيخ مجاور؟ .. وأرجوك لا تبدأ في كلام معاد .. جئت لك للتو من عند حني صالحة وقد حكت لي ما شهدته، لذا جئت كي تقص علي جانبك من الرواية .. وأرجوك ثانية لا تضع أوقاتنا في محاولات لزخرفة الرواية وتجميلها .. أريدها - لو سمحت - كما وقعت .

كان مؤنس حازما ومحددا في كلامه .. سكت الشيخ لحظة وقد بدا عليه أن مؤنسا قد سد عليه كل منافذ الكذب، وليس أمامه إلا أن يحكي ما حدث .. وأراد أن يأخذ وقته ليروي له الرواية ببعض المونتاج الذي لا يضر من وجهة نظره .. فقال : سأعد الشاي ثم أحكي لك كل ما حدث .

ذهب الشيخ ليرتب فكره أثناء عمل الشاي، وفي أثناء ذلك كان مؤنس بحكم عاداته في قراءة كل ما تقع عليه عينه يقرأ ما وجده تحت زجاج مكتب الشيخ من بطاقات إعلانية، بعضها لاستديو تصوير أو لقارئ قرآن أو لبائعي مواد البناء .. وفجأة اتسعت حدقتا عينيه وهو يطالع تلك البطاقة التي لديه مثلها .. محمد أبو شوشة المحامي بالاستئناف العالي ومجلس الدولة .. الآن بدت أمامه الصورة الغائمة أكثر وضوحا، أصبحت فراغات الحيرة فيها أقل بعد أن فهم أن علاقة تجمع الشيخ بالمحامي .. وعلاقة أخرى بين الدكتور هادي البربري وصبري العبايدي .. وغير بعيد يقف معزز مرعي .. استنتج أن

في الخفاء شيئاً يدبر يشبه ما حدث قديماً في حياة جده ولكنهم الآن يغيرون الاستراتيجية .. يشترون البيت ليستطيعوا إخراج الآثار دون مشكلات بعد أن باءت محاولة صبري القديمة بأخذ البيت بالفشل .. ولم يعد غريباً بالنسبة له أن يطرد من عمله فقد فهم الآن أنهم فعلوا ذلك ليزيدوا الضغط عليه فيقبل بعرضهم .. ولكن هل هم فريق واحد أم فرق متعددة ؟ هل الأمر مخطط له بشكل شامل أم أنهم يتحركون عشوائياً ؟

حلت تلك البطاقة جزءاً من الأحجية .. وانتظر ليسمع رواية الشيخ .

جاء الشيخ الذي جاوز السبعين عاماً إلا أنه يتحرك في نشاط وقوة كأن العمر لم يطبق عليه ضريبة الخصم من الصحة، قدم له الشاي وأخذ يحكي قائلاً :

بدأ الأمر بساحر مغربي أقنع معتز مرعي بأن المقبرة بها كنوز لا تحصى .. كنت أسمع اسم معتز مرعي من خلال الحزب كرجل شديد الشراء واسع النفوذ ..

فوجئت به يطلب حضوري إلى شركته في الإسكندرية .. فذهبت إليه، وهناك قابلت المغربي الساحر، وفهمت أن المطلوب مني هو إقناع جدك بالحفر في البيت الذي به مدخل المقبرة ولا يمكن الدخول إلى المقبرة إلا من خلاله لأن الدخول من أي مكان آخر كما ذكر موت محقق لأن المقبرة عليها سحر قوي ينبغي أن يفكه أولاً .

حين حادثت جدك في الموضوع رفض أول الأمر لأنهم جربوا ذلك من قبل وفشلوا، ولكن كان الموضوع مشوقا وأقنعتته بأن الأمر كأنه مغامرة لا يصح للشجعان الإحجام عنها فضلا عن ثراء كبير ينتظر المغامرين .. كانت مهمتي سهله .

- وطبعا كانت عمولتك كبيرة .

- لن أنكر ذلك، لأنه لا عيب فيه .. والمهم أنني أديتها بإخلاص، وساعدني على ذلك أن بحث العبايدة عن المقبرة لم يكن أمرا جديدا فقد حاولوا من قبل ولم يوفقوا .. كما أن جدك انصاع طواعية عندما سمع ذلك الاسم السحري .. اسم معتز مرعي؛ لأنه كان بحاجة إليه ليساعده في إعادة العمودية ..

مضى الأمر كما خطط له ولما وصلنا إلى باب المقبرة بدأ المغربي يفتح كتبه ويتلو تعاويذه ثم طلب منا أن نساعده في فتح الباب العلوي، فتحنا الباب فنظر جيدا ثم غادرنا بحجة خوفه من حراس المقبرة وزعم لنا أنه لا خطر على أي شخص غيره يدخل المقبرة ولكن الخطر عليه هو؛ لأنه هو الذي فك السحر .. تردد الجميع في الدخول خوفا من المجهول إلا ان أباك فاجأ الجميع بدخول المقبرة غير عابئ بنداءات جدك .

مر بنا وقت قليل قبل أن نسمع صرخته المدوية .. ورغم أن جدك كان طائر العقل لتلك الصرخة وكان من الطبيعي أن يتجه إلى المقبرة ليطمئن على ابنه إلا أنني رأيته منشغلا بأن يقف على باب الحجرة لسبب لم أعرفه إلا حين

لمحت أعمامك قد قدموا بالسلاح في مشهد ينذر بالموت، فوقفنا أنا وجدك دون الباب كي نمنع دخولهم .. ردهم جدك بحزم فانصرفوا إلى مكمنهم .. عدنا إلى الحجرة وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر من خوف المجهول .. رأيت جدك متجها إلى المقبرة ليرى ما حدث لابنه فأخذت أمنعه بقوة .. فلا نعلم يقينا ماذا يوجد بأسفل .. تعلقت بشيابه باستماتة في محاولة لإنقاذ صديقي المقرب .. وفي أثناء الشد والجذب بيني وبين أبيك قفزت عمتك فائزة إلى داخل المقبرة لتنقذ أخاها مما لا تعلمه .. جرى كلانا ليمنعها إلا أننا لم ندر كها فوقفنا في انتظار خبر منها أو من همام .. فما راعنا إلا صرخة أخرى مكتومة .. ثم يد فائزة ترتفع من داخل الحفرة التي تؤدي إلى باب المقبرة .. أخذنا بيدها فارتمت أمامنا على الأرض .. سألناها عن همام وعن ما رأته بأسفل .. حاولت النطق لكن الصوت كان حبيسا بداخلها .. حاولت تحريك أطرافها فلم تتمكن من ذلك .. فما كان منا إلا أن حملناها إلى حجرتها ..

- وتركتكم أبي ؟ كيف طاواعتكم نفوسكم ؟

- ما تركناه مختارين .

- وكيف ذلك ؟

- كنت قد خرجت لأرى الساحر لعلني أفهم منه شيئا، فأخبرني بأن السحر قد فكه، لكن بعد الفتحة العلوية تجد للمقبرة بابين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار .. كان الخطأ الذي اقترفه أبوك أنه دخل من باب اليمين، وقد ذكر لنا الساحر أنه بموت أبيك أغلقت الأبواب للأبد .

- وصدقتم هذا الكلام وتركتم أبي ؟
- لم يجرؤ أحد على الدخول إلى موضع أبيك، فقد علمنا أن دون ذلك أهوالا مفرزة .. وحسبنا على ذلك دليلا ما رأيناه من أمر فائزة .. أكنت تفضل لو أكملنا البحث فيموت الجميع أو يصيبهم ما أصاب فائزة ؟
- وجدي .. أيترك ابنه ؟
- الحق أنه ما نسي وما يئس لقد حاول مرات أن يدخل من باب اليمين لكنه أغلق للأبد بحسب قول المغربي .. فقعد محسورا على كره منه .
- ولماذا لم يدخل من الباب الأيسر ؟
- لأنني - في الحقيقة - لم أخبره بوجوده خوفا عليه، ومما حسم أمر السكوت ما فعلته جدتك صالحة في ذلك اليوم . لم أر في حياتي امرأة تملك قوتها وثباتها ..
- وماذا رأيت ؟
- ألم تحك لك ؟
- لم تحك لي ذلك الجزء، فقل .. ماذا فعلت ؟
- بعد أن تلقت خبر موت ابنها الأكبر، راحت في غيبوبة استمرت لخمس دقائق على الأكثر .. ثم أفأقت وقد أدركت ما غاب عن إدراكنا جميعا في تلك اللحظة .
- وما ذاك ؟
- أن هذا الموضوع لا بد أن يغلق سريعا قبل أن يصل الخبر إلى الناس ومنه إلى الحكومة .. وأن الحكمة تقتضي أن الحي أبقى من الميت .. لم ترد أن تكون

خسارتها مضاعفة فحاولت الحفاظ على ما تبقى، طوال حياتي يا بني كنت معتقدا أن جدك ليس يشبهه أحد في الحزم والقوة وقت الشدائد .. حتى رأيت ما كان من حنك صالحة، إنني ما زلت أتساءل: كيف ربط الله على قلب تلك الأم المكلومة التي فقدت ابنها الأعز ثم تراها شاخة كالجبال تبث في رجلها القوة والصبر برغم قلبها المفطور ؟

- وماذا فعلت ؟

- أفاقت وكأن شيئاً لم يصبها .. قامت إلى جدك المسجى على الأرض يبكي .. ويلطم الوجه ويشق الجيب، مسحت على رأسه وضمته، ثم قالت بصوت حزين : اللهم لا اعتراض على حكمك .. عوزي عليك يا رب، قم يا وفقى .. وأخرج الغرباء من البيت، واذهب يا شيخ مجاور إلى بيتك، وإن سمع العمدة أنك نطقت بحرف مما حدث، فحياتك هي الثمن .

- وجددي .. ماذا فعل ؟

- نظر إليها مدهوشا، لكنه قام من فوره دون أن يناقشها في شيء ونفذ ما طلبته الحاجة صالحة، أخرج الغرباء ونعي أباك إلى أعمامك واستكتمهم خبر الفاجعة، ومن حسن الحظ أنك وأمك كنتما غائبين عن البلدة .. فصعدوا بأمره لما علموا خطورة إعلان الأحزان .. وأغلق الموضوع ..

- هكذا ؟ .. وكأن الميت ليس بشيء .

- يا ولدي : كنا بين حزن معلن يعقبه ندم ولا يجر إلا مشكلات الحكومة
وتساؤلات الناس ونظرات الاستهجان من القريب ونظرات الشهامة من
العدو .. وبين حزن مكتوم يجنبنا كل ذلك، وفي الحالتين كلاهما حزن .

- وما دور معتز مرعي في موت أبي ؟

- لا دخل له في ذلك إطلاقا .. لقد دخل أبوك المقبرة مختارا، وكان الرجل
شديد التأثير ظاهر الحزن لما حدث، حتى إنه عندما علم أنك ابن همام
العبايدي وافق على الفور بتعيينك في جامعته ... أليس كذلك ؟
- بلى .. هو كذلك .

حاول مجاور جاهدا أن يصوغ كلمات يبرئ بها ساحة معتز مرعي وكان
ذلك كافيا بالنسبة لمؤنس كي يؤكد ظن جدته، ويلقي في قلبه بالشك من أن
العلاقة مازالت قائمة وأن معتزا وراء عرض المحامي .. لقد كانت زيارته
للشيخ موفقة إن نظرنا إلى عدد الإجابات التي حصل عليها مؤنس .. مؤلمة إن
تأملنا الإجابات نفسها .. كيف ساغ لهم أن يتركوا ابنهم في مجهول لا
يعلمونه؟ أي موت هذا الذي يعلنونه ثم يغلقون الموضوع كأن شيئا لم
يحدث؟

خرج من عنده وفؤاده يعتصر .. تملكته مشاعر مختلطة .. بركان من الحقد
يخرج مع أنفاسه ويختلط بدقات قلبه .. وجع في القلب لم يشعر بمثله يوما ..
يريد بشدة أن يبكي بل يريد أن يصرخ مما به من ألم .. ذهب إلى البيت وألقى
نفسه على السرير وأغلق باب حجرته .. بكى على أبيه وعلى جده وعلى نفسه

ما شاء الله له أن يبكي .. وبعد فترة كان الحزن المرارة فيها هما المتحكما في نفسه .. توضاً وصلى ركعتين بهدوء وسكينة امتزجا بألم وبكاء .. بعدها أمسك بمصحفه وظل يقرأ والدموع تتساقط على الأوراق .

كذلك كان يفعل حين تحاصره حيرة أو يمسه وجع .. أفرغ البكاء شحنات الكراهية والألم وأعادت إليه الصلاة هدوء وعزز القرآن من سكينته .. انخرط بعد ذلك في تفكير عميق ليرسم طريقا للخروج من تلك المتاهة .. يتنازعه سبيلان لا يدري أيهما يسلك .. فهل يفعل ما يجب أم يفعل ما يُحب ؟ وبعد ساعة أخرى خرج إلى صلاة الجمعة وعلى وجهه ما يشبه نظرة رضا ...

يحب مؤنس أن يعالج نفسه بنفسه فليس بينه وبين نفسه سوى صداقة متينة .. يرى أنه يعرف عن صديقه التي هي نفسه كل شيء، لذلك تكونت لديه عبر السنين مهارة رأب الصدوع وشفاء الجروح التي تصيب قلبه .. تعود أن يجد معاذير للفشل وأدوية للحزن وأسبابا لأن يمضي في حياته كأن شيئا ما حدث .. بسهولة يحسد عليها أقنع نفسه بأن الحياة تظلم الناس أحيانا وأن غيره أسوأ منه حالا، وأن المآسي هي زكاة النعمة إن بلغت نصابا .. وأن قمة التصالح مع النفس أن تعذر الناس على أفعالهم ولو كانوا أعداءك، على هذا النحو كان يعطف على صبري العبايدي وهكذا تجاوز ما حدث من عمر معتز، وبتلك الطريقة أيضا تفهم تصرف جده حين أيقن أنه ما كان ليتخذ قرارا مختلفا لو كان مكانه؛ فلم يحمل جده ذنب ما حدث .. ولكنه زاد حبا

وعطفا وإعظاما لجدته .. استخدم تلك الوسائل لمعالجة حزنه وتخفيف آلامه
ثم حمل نفسه على أن تصدق كذب نفسه بأنه أفلح في ذلك .

وإعمالا لقاعدة الحي أبقى من الميت التي طبقوها من قبل؛ فقد أقنع نفسه
بأن البيع هو السبيل الصحيح ؟ .. لماذا لا يفكر في نفسه الآن كما فعل
الآخرون لماذا لا يحاول تحقيق حلم الثراء كي لا يكون مرة ثانية ذلك الفلاح
الذي يطرد من العمل .

بعد الصلاة عليه أن يجلس مع جدته ثانية ليقنعها بفكرة البيع .. وقرر ألا
يعاود سؤالها عما حدث كي لا يهيج أحزانها على كل الراحلين ..

أتقن الحرمي تمثيل دوره حتى اطمأن سوسن الحاجب تماما إلى أن مشاركة مؤنس لابن المعتز هو أمر رآه لنفسه كي يتجنب الخطر ولا يكون عدوا لطرف من الطرفين المتصادمين .

ما لم يعلمه سوسن أن دخول مؤنس في أعطاف تلك الجماعة كان خطة عبقرية رسمها الحرمي ونفذها مؤنس باقتدار، كان يرمي من وراء ذلك أن يكون له عين ترصد حركتهم وتنقل أخبارهم وتعلم من تواطأ معهم، وأن يمكن مؤنس من القيادة حتى يتحرك بفرقة وقتها تضرب الفتن .

أما مؤنس فقد كان لقاؤه في الصباح مع ابن الجراح وديا وكأنها أصدقاء .. أو كل إليه قيادة أكبر فرق الجيش، ومن ثم ذهب مؤنس بعدها ليلبدأ ممارسه عمله ..

لم يكن مؤنس حامل الذكر بين الجند فكلهم يعرفونه لسابق خدمته في الجيش وكلهم يحبونه ويعجبون لشجاعته بعد تسامعهم بما حدث يوم الغابة وبوقعته مع ابن المعتز، ولم يكن مؤنس ممن يجهلون سبل القيادة وطرائق كسب ثقة الجند واحترامهم .. فسرعان ما أحاط نفسه بتلك المهالة من الحب والتقدير والمهابة والطاعة والثقة .

يومين آخرين قضاهما بنفس النمط، من الصباح إلى الظهرية بين جنوده، وعصرا في تمهيد داره الجديدة التي اشتراها في المخرم ليكون قريبا من بيت الخليفة ثم المساء في مجلس ابن المعتز .

في الليلة التالية أحس بأن الخليفة في أمان؛ لأن الوزير الحسن بن العباس ليس ضالعا في مؤامرة ابن المعتز، ومادام ذلك كذلك فلا فرصة لابن المعتز من دون الوزير .. إنه كبير الدولة وقائدها الحقيقي وبيده كل أمر فيها، حتى إنه هو الذي أجلس المقتدر على سرير ملكه، وليس من صالحه أن يدع غيره يتولى الخلافة فيغض من مكانه ويستأثر ببعض الأمر دونه .

لكن الوزير قد تغير مذهبه مع هؤلاء فبعد أن كان يلقاهم بكل الود والترحاب وخفض الجناح أصبح شديد الكبر عليهم، متخدعا بقدرته على تصريف الأمور، فتبدل حاله وصار مستغنيا بنفسه عن أي مخلوق آخر في طول البلاد وعرضها .

لقد اغتر الوزير وأخلف ذلك الغرور طغيانا وتجبرا على الأمراء والقواد، وكان من قبل حسن السيرة معهم جم التواضع لهم، حتى إنه بات يحجبهم عنه بعد أن زين داره وأسماها دار السرور، واستطال على بعضهم من ذوي الشأن فكانوا يمشون بين يديه المسافات الطويلة وهو راكب فلا يأمرهم بالركوب؛ فبغضة عامة القواد لاستعلائه، فهذا القائد الحسين بن حمدان يبغضه رغم ما كان بينهما من سابق ود؛ لأنه حاول أن يفسد عليه جارية مغنية له كان بن حمدان بها شغفا، وهذا محمد بن داود بن الجراح يبغضه مشايعة لابن المعتز، فيجعل أمراء الجند يشغبون عليه، ويعاضده في ذلك القائدين الشهيرين وصيف بن صوارتكين وأحمد ابن كيغلق .

أما الرعية فقد اشتد كبره عليهم أيضا، وكثر احتجاجه عنهم واستخفافه بكل طائفة منهم، وترك الوقوف على المتظلمين، والسماع لهم، فاستثقله الخاصة والعامة، وكثر الطعن عليه، والانكار لفعله والهجاء له، حتى قال بعض شعراء بغداد فيه:

يا أبا أحمد لا تحسن بأيامك ظنا

واحذر الدهر فكم أهلك أملاكا وأفنى

كم رأينا من وزير صار في الأجداث رهنا

أين من كنت تراهم درجوا قرنا فقرنا

فتجنب مركب الكبر وقل للناس حسنا

كان مسلكه مع الأمراء بمثابة تدشين للمؤامرة؛ فقد أخذ القادة والأمراء يتربصون به الدوائر وعزموا على أن يقتلوه ثم يولوا ابن المعتز، وكان الرأس في هذا الأمر ابن الجراح والقاضي أحمد بن يعقوب والحسين بن حمدان ووصيف بن صوار تكين وغيرهم وواطئوا من يرون فيه الميل إليهم .

وكانوا قد أرادوا أن يضموا مؤنسا إليهم فقال لهم وصيف وكان ذا عقل وفهم : أخشى أن يكون مدسوسا علينا من قبل الوزير ليعرف خبرنا، فلا يعرف شيئا حتى يتم الأمر فإن دخل فيه وإلا قتلناه، فقال القاضي أنا أضمنه، فقد ثبت لدي أنه من أهل الثقة بي والانصياع لرأيي، فقالوا : بل الرأي أن نحذر منه حتى يتم أمرنا، واستكنموا القاضي كي لا يصرح لمؤنس الخادم بما

عقدوا عليه عزائمهم .. فوافقهم القاضي على ذلك رغم ميله إلى إخبار مؤنس .

في تلك الأوقات كان أهل الرأي من الأمراء الذين لهم حسن صلة بالوزير يحذرونه من عاقبة أفعاله فيستهين بكلامهم، ويدل بهيبته التي تحميه من أي خطر .. حذروه من ابن الجراح فلم يقبل لهم نصحا، وقالوا له إن الحسين بن حمدان سيقته، فقال إن ابن الجراح والحسين رجال كالذهب وإنه ليرجوها بعد الله في دفع المضار ورد الأذى عنه .. كان غروره قد انقلب غفلة ففاته التبصر وفقد القدرة على تيين مواضع الخطر فكانت نهايته على يد من ظن أنهم حماة .

كان القوم قد قرروا قتله لكنهم مكثوا ينتظرون لذلك فرصة ويريدون لذلك سببا وحجة يقتنع الناس بها إن قتلوه .

ولما كثر تحذير المخلصين للوزير من التعرض للغيلة شعر بالخطر على نفسه فأقدم على أن يختار لحمايته مملوكا من الشجعان يسمى بارس، وكان بارس مملوكا شجاعا لإسماعيل بن أحمد صاحب خراسان والري، وكان تحت إمرة بارس ألفا فارس وقيل أربعة آلاف، وقد كان بين المملوك وصاحبه خلاف استغله الوزير وكتب بارس يعده بالإمرة والسيادة، فهرب المملوك بمال سيده يريد بغداد .. فلما قال له الناس في ذلك، قال : أصطنعه وأؤمره، ألم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - أجيرا لخديجة ثم صار منه ما رأيتم؟ ... فلما بلغت

الكلمة الحسين بن حمدان قال : أوجدتني والله سببا لقتلك، فالآن ما يقول الناس إلا إنني قتلته غضبا للنبي - ﷺ .

بدأت الأمور تأخذ منحى جديا حين جاءت الأنباء بتحريك بارس من الري ليتولى مهمته في حماية الوزير، فعزم أعداؤه على استباق ذلك والإسراع بخطتهم .

وفي أخريات تلك الليلة انصرف القاضي مبكرا كما اعتيد ولم يكن مؤنس ينوي أن ينصرف معه ولكنه وجد القاضي يطلب منه أن يصحبه إلى داره .. سارا معا قليلا، ثم قال القاضي :

- يا مؤنس إنك رجل من أهل البصر والتجارب، وإني أحب أن أعرف رأيك في شيء .

- وما هو يا سيدي القاضي ؟

- ماذا ترى في بيعة المقتدر ؟

- بيعة صحيحة مباركة بإذن الله .

- وهل يصلح المقتدر للملك ؟

- حوله من أولى الرأي مثلكم ومثل سائر الأمراء من يدبر الأمر حتى يتحنك ويقدر على سياسة الأمور .

- ولكن هل تجوز البيعة لصبي ؟

- لست أنا من يقول ذلك، إنما أنا رجل حرب وقتال، وأنتم رجال العلم والدين والقضاء كلمتكم هي القول الفصل .

- فإن كانت البيعة تحرم بالدين ؟ فهل تلزمنا تلك البيعة ؟
- أيها القاضي، إنني لست بذي شأن في ذلك الأمر .. إنما أنا تبع لكم فإن قبلتموه قبلت .
- فإن سعى أحد في إنكار تلك البيعة، فما يكون قولك ؟
- ومن يكون ذلك ؟
- ليس لك أن تعرف ولكن عليك أن تحجب .
- أيها القاضي، أنا رجل يخشى على نفسه وولده تقلبات الأمور .. فأوثر أن أنأى بنفسى عما يضع رقبتى تحت سيف الخليفة أو غيره
- ولكنى سأطيع من أثق في حكمته وقدرته على الخير .
- مثل من ؟
- مثلك ومثل الأمير ابن المعتز وابن الجراح .
- فإن دخلوا في أمر أكون معهم ؟
- وكيف لي أن أخالف هؤلاء ؟
- حسبي منك هذا، ويفعل الله الخير لنا جميعا، انصرف الآن إلى بيتك، والله الأمر من قبل ومن بعد .

كانت محادثة مع القاضي فارقة ولقاؤه به منعظا هائلا، لقد باح له بسرهم وأطلعهم على نواياهم .. لذلك فارق مؤنس القاضي متجها إلى داره، ولكنه كان يتنوي أن يعرج على بيت الخليفة ليعلم الحرمي بما وقع عليه من معلومات، تفيد عزم رءوس القوم على تدبير انقلاب لصالح ابن المعتز ...

فلما أخذ الطريق إلى دار الخلافة أحس بأن هناك من يراقبه، فتباطأ في مشيته يريد أن يعطي نفسه فرصة كافية للتفكير في الوجهة التالية .. أخذ يزن الأمور في رأسه، فأدت له ظنونه أن من يراقبه إن كان من أتباع ابن المعتز فسيعرفون أنه مدسوس عليهم وفي ذلكم فساد لمخططاته وربما قتله .. ظل سائرا حتى جاوز الطريق إلى بيت الخلافة وأخذ الطريق إلى بيته ..

لم يكن بيته بعيدا عن بيت الخليفة، ولما دخل داره انصرف من يراقبه ليعلم أصحابه الخبر .. كان الليل قد انتصف فأطفأ مؤنس السراج ومن باب خلفي خرج بعد أن بدل ثيابه وانطلق إلى بيت الخليفة يريد الحرمي .. ولما اقترب من الوصول رأى أمام قصر الخلافة رجلين قد وقفا يتحدثان، فكمن في مكان مظلم ليرى من هما، إنه لا يقف أمام قصر الخليفة إلا من له سلطان لفعل ذلك .. كان أحدهما ملثما والآخر أبعد من أن يحدد ملامحه .. بعد حديث يسير انصرف الملثم ودخل الآخر إلى القصر .

مكث مؤنس في مكانه يفكر في أمر هذين الرجلين .. ويفكر فيما يجب أن يفعل .. هل يدخل القصر ليبلغ الحرمي ؟ فكر في أن القصر مراقب وأنه إن دخل الآن افترض أمره ؟

ظل مكانه وقد أخذته حيرة باهظة، ماذا يفعل وما يحمله من خبر لا بد أن يصل الليلة إلى الحرمي ليتصرف ويرى رأيه؟ هداه تفكيره إلى أن أصوب رأي هو أن يرسل أحدا برسالة إلى الحرمي .. فإن قرأها علم بما يدور في المعسكر الآخر .. ويكون مؤنس في هذه الحالة أبعد من الشبهات .. دار على عقبيه

وانصرف إلى بيته يفكر فيمن يقوم بإرساله .. حتى وصل إلى بيته وما اهتدى لأحد .

مرت ساعتان أخريان ولم يهده التفكير إلى رسول مؤتمن .. كان الفجر قد حان وأذن المؤذن للصلاة ، فسار مؤنس إلى المسجد وهو يقلب الأمر من كل زاوية، إنه يعلم أن خطوته التالية ستحدد مستقبله وقد تحدد مستقبل الخلافة .. لقد وقع على خبر شديد الخطر ولا بد أن يتصرف جيدا .. غلبه التفكير في ذلك الأمر عن الصلاة ... ثم انصرف بعد الصلاة ولما يقرر ماذا يفعل .

ألقي جسده على السرير يريد أن ينام ساعة ليجدد نشاطه فما أمكنه النوم ... إنها ساعات عصبية ولحظات خطيرة الله وحده يعلم إلام ستؤول الأمور .

لا شك أنهم إن قدروا على التخلص من الوزير فسيربحون كل شيء
إنه إلى الآن لم يفعل ما يجعله محل شك عند ابن المعتز ورجاله .. فلماذا لا يدخل في حلفهم لكي يضمن حياته ومكانه في مرحلة ما بعد المقتدر ؟ .. وإن كان سوسن والحرمي يراقبان الأمور لصالح الخليفة من جهتهما فلن يعرفا أنه تعاون معهم .

أخذته غفوة يسيرة استمرت لدقائق قليلة .. ثم أفاق من نومه على طرق شديد على بابه .

دخل مخدعها وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى .. يعلم أنها محاولة يائسة وتكاد تكون مستحيلة .. فليتذرع لها بأن تلك وسيلة لنسيان الماضي ودرء لمحاولات الألم في احتلال صدورهم .. وفي المال ما ينسي الآلام .. بدأ بإخبارها بأنه ليس مستعدا اليوم ليرى الفتاة التي وعد برؤيتها .. تفهمت الجدة وأخذت على عاتقها مهمة إقناع أمه .. على وعد بأن يتم ذلك الأمر بعدما تهدأ نفسه ويقر قرارها .

ساد صمت كشفت من خلاله تردده فقالت :

- اقرأ يا ولدي ما أراه مسطورا في عينيك من كلام

- دائما أنت أقرب لي من نفسي يا حبيتي .. سأقول سريعا ما جئت لأجله ..

توقف لحظات ثم أكمل : إنني أريد بكل ذرة من نفسي أن أهرب من ذلك البيت يا أمي ..

ألقي عبارته ثم نظر إليها ليتبين موقفها ... كانت صامته ولم يظهر على وجهها أي أثر لكلامه وكأنها كانت تتوقعه .. فمضى يسوق حججه .

- أماننا عرض كبير لبيع البيت .. عرض يكفل لنا أن نكون أغنياء ويعوضنا عن فقدانهم في ذلك البيت المنكود .. وإن في أرض الله الواسعة متسعا لكل ذي ألم .

ظلت صامته وبدأت الدموع تظهر في مقلتها .. فاستأنف قائلا:

- أعلم كم تشبث روحك بهذا المكان يا أماء، ولكن بالله عليك أخبريني :
آية ذكرى تتمسك بها في بيت لا يحمل لنا إلا الأحزان ولا يلقانا بغير الآلام،
بيت ميراثنا فيه وجع و بكاء ولا يذكرنا إلا بالموت ؟ ..
طال صمتها وهي تنظر إلى الأرض .. فأكمل قائلا :

- كيف سيطيب لنا أن نضحك ونمضي في حياتنا ونحن نعلم بما حواة ذلك
البيت من مواقع .. تأكدي يا أمي أنه لا شفاء لمواجعنا إلا بالرحيل من هذا
البيت الملعون .

رفعت رأسها ونظرت في عينيه ثم تدحرجت على خديها دمعتان كبيرتان،
وتحرك لسانها بعبارة وحيدة :

- يا ولدي، ليس رجلا من يبيع قبر أبيه .

عصف تلك العبارة بكيانه وأيقظته من سبات اصطنعه كاذبا .. مزقت
كلماتها القليلة غلالة رقيقة من وهم التصالح مع النفس وتفهم الآخر، لقد
أيقن ساعتها أن التصالح مع النفس لم يكن إلا خداعا للنفس .. وأن تفهمه
للآخر لم يكن إلا محاولة للهروب من مواجهته .. هل صحيح أنه تفهم
إهانات عمر مرعي أم أنه عجز عن هزيمته؟ .. هل نسي حقا مسئولية معتز
مرعي عن مقتل أبيه أم أن هروبا رخيصا اصطنعه لأنه لا يمتلك قرونا
لمناطحته؟ .. أيقن أن صنيعه لم يكن ترفعا بقدر ما كان انسحابا، وأنه لن
يكون رجلا أمام جدته وأمام نفسه إن لم يجد سبيلا لأخذ حقوقه وحقوق
عائلته من أولئك الذين ينظرون إليهم نظرة السادة للعبيد .. قلبت عبارة

جدته تفكيره .. وحولت دفعة مخططاته كانت هي العبارة الصفعة التي أعادته إلى رشده وأيقظت فيه نخوته، فلم يجر جوابا، وانخذل خارجا من حجرتها .
ذهب إلى حجرته، ارتدى ملابسه على عجل وودع إخوته .. عاد إلى حجرة جدته فقبل جبينها واستأذنها في الذهاب إلى الإسكندرية يوم الجمعة؛ لأن أمامه عمل لابد أن ينجزه .. ركب السيارة إلى الإسكندرية، وقد بدا عليه الاطمئنان للقرار الذي اتخذه .. سيبدل المستحيل لأخذ كل حقوقه وإن مات في سبيل ذلك فسيموت راضيا .

لم يكن قد حدد بعد كيف سيتعامل مع الموقف .. كان قراره واضحا ولكن الطريقة كانت تتبدى له في غموض وإبهام ؟ ماذا سيفعل بالتحديد وكيف سيواجه هؤلاء الناس ؟ صمم أنهم لن يكونوا أكثر منه ذكاء، وأن استخفافهم به وجهلهم بما يعرفه سيكونان سلاحين ماضيين فليستخدمهما بأفضل الطرق ليفاجئهم .

كان السفر إلى الإسكندرية فرصة لالتقاط الأنفاس والتفكير بعمق ليرسم طريقا آمنة للخروج من الوضع الحالي .. قلب الأفكار ووازن بين الأمور بروية وتعلل، حسب حساب كل شيء وفي النهاية استقرت نفسه على خطة جيدة، اطمأن لكل خطوة فيها .

لما عاد مساء الجمعة اتصل بعبد الله، وهشام وطلب منهما أن يلتقياه لأمر عاجل في شقته .. جاءا على الفور وحضر عليّ معهم ذلك اللقاء .

قال هشام : خيرا يا رجل .. ما خطبك ؟

أجاب مؤنس : أنا في خضم أمر عظيم، ويحاصرني هم لم أستطع أن أحمله وحدي .

فقال عبد الله : ماذا يحدث يا رجل ؟ احك لنا وسنحمل معك مهما كان .
وقال هشام : نحن معك في أي شيء ، فلا تخش شيئا فإن لكل مشكلة حلا .
- نعم : سأحكي لكم ما لاقيت ثم أشيروا علي .

بدأ مؤنس يحكي لهم كل التفاصيل .. كان يحكى ما حدث له في الكلية أولا
وفي عينيه عبرة تريد أن تنزل على خده ، كظمها ما استطاع لكنها سقطت رغما
عنه ثم تابعت أخواتها مصحوبات بصوت نشيج ، إنهم لم يروه من قبل في
مثل هذه الحالة .. فجعل أصحابه يجتهدون في مواساته .

قال هشام : وفيم بكاؤك يا رجل ؟ الأرزاق بيد الله .

وأضاف علي : أنت ناجح وأي جامعة تتمناك .

نظر عبد الله إليه في أسى ثم قال : أنتم لا تعلمون حقا ما يبكيه .

فسأل هشام : وما يبكيه ؟

فرد عبد الله : أنا أدري به منكم ، إنه يبكي من الإهانة؛ فابن العبايدة لا
يتحدث معه أحد هكذا .

فقال علي : وربما يبكيه أمر آخر .. إنه يحب ..

نظر هشام وعبد الله إلى مؤنس في عجب كأنهما ينتظران أن يريا منه تصديقا أو
نفيا .. فوجداه مطرقا لا يجيب .. حولا نظرهما إلى علي .. فألغياه يستأنف

حديثه قائلاً : والأقسى أن من أهانه هو خطيب حبيبته .. أليس كذلك يا دكتور ؟

كفكف مؤنس دمعته واستعاد بعض ثباته وقال : كلاهما محق، فلم أدرك الحقير الذي أهانني فأنتصف لنفسي وضاعت من كنت أمني نفسي بالزواج منها .

قال هشام : ومن تلك ؟ ومتى عرفتھا ؟

سكت مؤنس، بينما قال علي : اسمها الدكتورورة وعد، يبدو أن صديقنا يجبها منذ أيام .

فقال عبد الله : احمد الله ولا تأس على ما فاتك، فوالله إن نساء الأرض يلحنن بمثلك، أما الإهانة فانسها ولا تغم نفسك بسبب كلمات بسيطة من رجل مريض .

وقال هشام : إنك لم تعرفها سوى لأيام قلائل، ولا أظن أن استغراقكما في العلاقة كان بذلك العمق المتوهم فأنتم بالتأكيد لم تصلا فعليا إلى درجة اللانسيان، وإن كان، فالزمن يا صديقي سينسيكها .

قال علي متفلسفا : غريبة حقا تلك العلاقة بين الحب والزمن .. فالحب يحرث أرض الزمن ويزرعها بالموسيقى الراقصة .. يدفع عقارب الساعات إلى الدوران بسرعة وكأنها مروحة سقف جديدة تملؤها الحماسة، والزمن يصيب الحب بالعطب وكأنه نفس المروحة بعد مرور عامين أو أكثر .. وبينما يكون الحب هو أكبر المتع التي يحظى بها الزمن يكون الزمن أكثر الأمراض التي

يشكو منها الحب .. والحاصل يا أصدقائي أن الحب يجعل الزمن يمر والزمن يجعل الحب يمر أيضا ولكن الأولى من المرور والثانية من المراجعة .
فرد هشام مازحا وهو يصفق بيديه : الله الله يا فيلسوف، ما هذه الحكم يا علي؟

قال عبد الله : ولكنكما تفترضان أن الأمر انبت وانتهى، وهذا لم يحدث بعد .. ولعل الله يدخر لك خيرا يا دكتور، فلست على يقين من أنك فقدتها فعلا .
فسأل مؤنس وهل سيسمح لها بعد ما كان بأن تلقاني؟ لا أظن ذلك .
فأجاب هشام : إن كانت تحبك حقا فستقاتل من أجلك .. وإن اختارته لماله .. فلا ينبغي لك أن تبكي عليها .
هز مؤنس رأسه موافقا وأكمل : هو كما قلتم، ولكن لبكائي أسبابا آخر .. فاستمعوا إلى بقية الحكاية ..

بدأ مؤنس يحكي حكاية عروض البيع بكل التفاصيل .. وكلما أسمعهم خبرا اتسعت حدقاتهم وفتحوا أفواههم في عجب .. ثم انتقل بهم إلى ما روته له جدته وما رواه مجاور البلحي عن موت أبيه .. وما أن أتم حكايته حتى انفجر في بكاء مر .. وعندها لم يستطع الأصدقاء أن ينبسوا ببنت شفه .. فقد كان حديثه السابق أمرا يمكنهم أن يقولوا فيه بعض كلمات المواساة .. فإنك إن فقدت فتاة أو فقدت عملا ففي الدنيا عوض عنهما .. أما إن فقدت أبا وبتلك الطريقة فلا بد أنها مأساة موحجة، وليس لديهم ما يقال لتخفيف ذلك الوجع .

صمتوا جميعا وما كان منهم إلا أن تتابعوا في احتضانه والتربيت على ظهره وهو يبكي كما لو كان طفلا صغيرا يهددوا بكاءه بالأحضان .. استمر الأمر حتى بكوا لبكائه... ثم ساد بينهم صمت طويل .

بعد فترة من الصمت عاودوا الحديث حين بدأ هشام قائلا :

- حملت حملا ثقيلا يا رجل .. أين كنا في كل هذا ؟

- لم أشأ أن أشر ككم معي إلا بعد أن أظلمت الدنيا في عيني وانسدت أمامي كل الطرقات وعلمت أنني لا أستطيع أن أحمل وحدي .. وتعلمون أنه ليس لي في الحياة إلا أنتم .

- حكاية لا يصدقها عقل ، ولو حكاها لي غيرك لأنكرتها

قال عبد الله :

- في قرينتنا حكايات أعجب يا هشام .

ثم توجه بالحديث إلى مؤنس وقال :

- ماذا تنوي أن تفعل تحديدا يا صديقي ؟ هل اتخذت قرارا ؟

أجاب مؤنس دون تردد :

- قراري هو أن أنتقم لموت أبي وطردني .

- يا أخي، ليست كل المعارك يمكننا دخولها، وهناك حروب عليك أن تخوضها وأخرى عليك أن تتجاهلها .

- للأسف لا أملك رفاهية الاختيار، ولا أستطيع أن أدير ظهري لقاتل أبي .

- فأخبرنا كيف ستفعل ذلك ؟ إنه رجل يده باطشة، ونفوذه كبير فما الذي
يمكنك فعله له ؟ لا تقل لي إنك تفكر في قتله .

- صدقني لقد مرت علي لحظات فكرت في ذلك، ولكني الآن أفكر في أمر

آخر

- وما هو ؟

- إن كنتم معي كما قلتم فسأخبركم ماذا ستفعل .

قام فزعا فوجد على بابه العبد سالم الذي أرسله للبحث عن طاهر بن أبي زرعة .. فقال :

- ما الخبر يا سالم ؟

- سلمك الله أيها الأمير، لقد وجدت طلبتك .

- وجدت الشيخ ؟ .. تهلل وجه مؤنس ثم استأنف .. مرحى يا رجل ..

والله إنك لتحمل لي أعظم البشريات وإني موف لك بوعدى .. يا سالم أنت امرؤ حر منذ الساعة، ولك دارى القديمة وسأعطيك مائتى دينار جزاء بشارتك، و ..

- ولكن يا أمير ...

- ماذا يا رجل ؟

- لقد مات الشيخ الليلة .. وسيدفن اليوم .

- ماذا تقول ؟

- عذرا أيها الأمير ولكن هذا ما سمعته .

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون .. وأسفاه عليك يا

شيخى .. يا لك من غادرة أيتها الحياة ويا لي من بائس مشئوم، ألقاه يوم موته ؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

سمع عمار صوت أبيه يرتفع بالحوقلة والاسترجاع، فأقبل يسأل عن

الخبر .. فقال له الغلام إن أباه قد فجع بالشيخ طاهر ابن أبي زرعة .. فإذا

بالفتى يصيح في ألم : لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم أجرنا في مصيبتنا ..
اللهم أجرنا في مصيبتنا .

فتعجب مؤنس وسأل الفتى : وهل تعرفه يا بني؟

فقال الفتى : ما التقيته من قبل ولكني أعرفه

- كيف ذلك يا بني ؟

- كنت أسمع باسمه من شيوخه في مكة، قالوا إنه زاهد ورع تقي .. وكم
كنت أود أن ألقاه في بغداد وأخفف عنه إن استطعت بعض ما قاساه في محنته .

- أية محنة يا بني ؟

- محنته مع الحنابلة يا أبي .

- أأليس محنة لا أعلمها؟ .. أخبرني يا عمار .. ماذا حدث؟

- نعم لقد عاش الرجل أياما صعبة بسبب بعض الجهال من الحنابلة

- كيف ذلك ؟

- بعد انتهاء محنة الإمام أحمد في قضية خلق القرآن كثر الحنابلة في بغداد؛
فقد كان ثبات الإمام أحمد على الحق وصموده أمام بطش بني العباس محل
إعجاب وإكبار من عامة أهل بغداد؛ لذلك مال الناس إلى مذهبه وكثر
أنصاره، كان منهم من صح عندهم الفهم واستقام لديه النظر، لكن أغلبهم
من تبعوا المذهب على عمى وعصية .. زاد عدد أولئك وعلو علوا عظيما
وبدلا من أن يتعظوا مما حدث لإمامهم تسلطوا على الناس واستطالوا على كل

عالم مجتهد لا يقول بقولهم، والشيخ أبو زرعة فيما أعلم كان رجل تصوف وزهد وله أيضا محبوبون ممن رأوا فيه الولاية وشهدوا لديه الكرامات .

- صحيح يا ولدي .. أكمل .

- كثر الطارقون لباب الشيخ طلبا للسكينة وطلبا للدعاء الصادق وطلبا للهداية .. وذلك مما أحفظ عليه الحنابلة الذين رأوا في تزايد أتباع الشيخ خطرا على سلطانهم وسحبا للبساط من تحت أقدامهم .. استغلوا بعض مقالات الشيخ في التوسل برسول الله والتعلق بمقام النبوة وأذاعوا بين العامة أنه مبتدع ومخرف .. فناله أذى شديد من الجهلة الذين يسرون خلفهم بلا عقل .. انفض عنه الأكثرون .. وقام الحنابلة بمحاصرة الشيخ ومنع من بقي من المحبين له من الوصول إليه في موضعه حتى إنه كان يجد طعامه وشرابه بشق الأنفس .. ثم انتهى الأمر برحيله من كوخ كان يتخذه في ظاهر بغداد إلى وجهة لا يعلمها الناس .. هذا علمي بالأمر، ولو كنت هنا لوقفت دون الشيخ ولو كان في ذلك موتي .

- بدا العجب على وجه مؤنس من رد فعل الفتى ثم من حديثه .. بدا له الجهل عدوا مخيفا قاهرا .. ربما ليس في الدنيا شيء قادر على هزيمته، وإن فكر أحد الخياليين أن العلم والوعي قادران على مقارعة الجهالات فهو واهم .. فها هما يداسان تحت سنابك خيل الجهل وتطحنهما كلاكل الغلو والتشدد وتجارة الدين التي لا تكسد سوقها في أي زمن .. أسف مؤنس لما سمعه وتملكه الغضب .. لكنه التفت إلى الغلام وقال له : متى يدفن الشيخ يا سالم ؟

فأجاب سالم تركتهم يهيئونه للدفن ..

فسأل في أسى : وأين مات ؟

فأجاب الغلام : في خانق من خوانق الصوفية غربي بغداد من جهة باب الشام.

أطرق مؤنس قليلا، ثم رفع رأسه وقال لولده : هيا معي يا عمار نشهد جنازة الشيخ .

انطلق مؤنس إلى جنازة الشيخ في يوم شتوي مشمس، غابت فيه الغيوم وصفت السماء واعتدل الجو .. مضى خلف الغلام حيث أرشده إلى الموضع الذي كان الشيخ يعيش فيه .. على البعد وجد زحاما كبيرا وجماعات من الناس يتوافدون على المكان .. ظن أن ذلك لسبب آخر فربما كان المتوفى شخصا من شيوخ القبائل النازلة في هذا الموضع الذي يسمى إقطاعات المهدي؛ لأن الخليفة المهدي أنزل فيها بعض قبائل العرب وأقطعهم تلك الأرض .. فما كان الناس يتجمعون لشخص مثل طاهر بن أبي زرعة ليس له في الحياة إلا ابنته ..

فلما بلغوا الموضع وسألوا عن المتوفى أكد لهم الناس أنه ابن أبي زرعة العابد، وجعلوا يتحاكون عما كان منه من كرامات ظاهرة وخوارق عجيبة، حكى كل امرئ منهم عما حدث له مع الشيخ أو سمعه عنه، واستمع مؤنس إلى تلك الحكايات وهو يعجب أشد العجب من ذلك الرجل الذي ظن أنه منقطع من الناس والأقارب فإذا له عشرات المحبين ومئات من المريدين ..

أخذ يقول في نفسه .. ترى كيف هي الآن؟ .. ود لو يراها ويقدم عزاء لها ويعرض أن يساعدها بأي شيء .. ولكن كيف يصل إليها الآن في ذلك الحشد الكبير؟ .. وبأي حجة يسأل عنها؟ .. وإن لقيها فبم يساعدها وهو الذي يحتاج الآن إلى المساعدة؟

لقد فقد الشيخ الذي كان يريد أن يفزع إليه ليرشده ويسكن لاجع فؤاده .. فأني له الآن بتلك السكينة؟ .. ظل حتى تهباً الشيخ للدفن وقد ازدحم الناس وكان الفقيد هو الخليفة أو وزيره ..

سار خلف الجنازة ولما كان على القبر وجد رجالا يكون وشعراء يرثون، وخطباء يصفون الشيخ فيسرفون في الوصف ويتكثرون من ذكر المحامد، بكى مع الباكين وأنصت للرائين وصدق على قول الواصفين .. ثم تفرق الناس وبقي مؤنس وولده والغلام قائمين على قبر الشيخ .. فالتفت مؤنس إلى الغلام وقال : أنا عند قولي يا سالم، فاذهب وأنت حر ولك عندي ما ذكرت لك من المكافأة .. ولكني أريد منك خدمة أخيرة .

فقال الغلام : لا أريد بخدمتكم بدلا يا سيدي الأمير، وإلى أين أذهب وأنا لا أعرف في الدنيا إلا أنت .. ولا أحب أن أعرف، فمرني بما تشاء يا سيدي .
فقال مؤنس : بارك الله فيك يا سالم، فإن بقيت معنا فأنت حر كما وعدتك ولك أجر عملك، أما ما أطلبه فهو ألا تنصرف من هنا حتى تسأل عن ابنة للشيخ تدعى ورد .. اعرف أين تقيم وما حالها ثم أنبأني بما عرفت .

انصرف مؤنس وكان الوقت قد قارب على الظهيرة .. ذهب إلى بيته وقد اختلطت الأمور في رأسه، وزاد الاضطراب بخبر وفاة الشيخ، حتى الساعة لم يكن قد بت في أمره .. وكأن عقله قد توقف فأراد أن يسأل أحدا يطمئن إلى نصحه وأمانته، وليس يملك هذا الناصح المؤمن .. ففكر أن يسأل ولده عمارا، ولم يكن قد خبر عقله قبل اليوم، فدعاه إليه ثم أجلسه بجانبه وقال له :

- يا بني أريد أن أشارك في مسألة .

- أبدى الابن تعجبا ثم قال :

- تسألني أنا ؟

- أجل يا بني .

- عم يا أبت ؟

- أنا في حيرة عظيمة يا ولدي .

- بأي شأن ؟

- تعلم أن الخليفة قد استقدمني وأدناي وقلدني من العمل ما يرضيني، ثم إني قد بايعته وقطعت وعدا بحمايته .

- وما وجه الحيرة في ذلك ؟

- إن للخليفة خصوما قد أئتمروا به وهم في ظني أقرب إلى النيل منه، فإن وافقتهم أمنت على ولدي ونفسي ومالي، ولكني أكون قد خنت عهدي وبيعتي، وإن وفيت للبيعة والعهد، يحدق بنا الخطر وقد ننتهي إلى موت أو

سجن، فأى السبيلين أسلك ؟ إن صنت الأمانة ضيعت الأمن وإن سعت وراء الأمن فرطت في الأمانة .. فما عساي أفعل ؟

- ذلك أمر لا ينبغي الحيرة فيه يا أبي .

- وكيف ذلك وحياتنا من بعد رهن بما أقرره الساعة .

- حياتنا ليست رهنا بقرار أحد، فما قدره الله لنا سنراه وحساباتنا ليست مقياسا لما سيحدث لنا .

- وكأني بك اخترت وجهة يا ولدي .. فما هي ؟

- نعم، اختر الوفاء لعهدك والزم البر ببيعتك .. ودع العاقبة لما قدره الله .

- والأمان يا عمار ؟

- لا أمن إلا في وعد الله ولا خطر إلا في وعيده، فاسع لاستحقاق وعد الله ولا تتعرض لوعيده .

- لكأني بهذا الكلام قد تلي على مسامعي من قبل، ممن سمعت هذا الكلام يا

ولدي ؟

- إنه صوت عقلي ونهج شيوخي .

- فإني ماض لما أشرت به يا عمار، ولكن اسمعني جيدا، وافعل ما أمرك به .

- أسمع وأطيع بإذن الله .

- تخرج الساعة من البيت وتلزم الطريق إلى خانق الصوفية الذي خرج منه

الشيخ طاهر، فإذا التقيت سالما فسله عما وصل إليه من علم بابنة الشيخ، فإن

كان قد وصل إليها فاذهب للقائها، وإن لم تلق سالما فاسأل أنت عنها، فإن

لقيتها يا ولدي فقل لها إنك ابن مؤنس الخادم، وأنتك تريد صحبتها وخدمتها
إن تيسر ذلك، وإن لم يتيسر فأقم نفسك مع المتصوفة في ذلك الخائق ريثما أدبر
أموري ثم آخذك .

- ولكن يا أبي ...

- امثل يا عمار، فإني بصدد حال لا ينبغي لي فيها أن أكون قلقا عليك ..

- ولكنني أريد أن أصحبك وألقى ما تلقاه خيرا كان أو شرا .

- أتريدني أن أفعل الصواب يا ولدي ؟

- نعم .

- فاعلم أنني كلما تحففت من الخوف عليك كان ذلك داعيا إلى لزوم الحق
وعدم الخوف من مآلات الأمور .. وإن كنت في حال خوف عليك فربما
جعلني ذلك أرضخ لإرادة الغادرين وأمالئهم على ما يريدون .. أتعي حديثي
يا ولدي ؟

- سأذهب يا أبي .. ولكن الزم الحذر .. وأوصيك ألا تنظر إلا لوجه الله؛ فبه
النجاة .. ومتى استقرت أمورك فلا تتركني لحظة بعيدا عنك .

- أفعل يا ولدي بإذن الله .. هيا انطلق في أمان الله

- خرج عمار بعد أن جهز رحله وشده على بغلته وانطلق ليبحث عن سالم أو
ورد .. أما مؤنس فقد كان قد اتخذ قراره بأن يلزم الصواب والحق كما يراه وكما
أوصاه ابنه .. أسلم أمره الله ثم انطلق إلى قصر الخليفة .

أفاقت بعد دقائق لم تطل وجدت نفسها مستندة على صدر أمها وهما جالسان على دكة خشبية أمام أحد المكاتب حيث كان رجال الجمارك منهمكين في تحرير المضبوطات وتحرير محضر الواقعة .. بدت جامدة كتمثال، لم تنطق بكلمة .. ذهول .. صمت .. نظرة غريبة مخيفة بدت على وجهها .. وكأنها أفاقت من الإغماء لتدخل في لحظة جنون قصيرة من أثر الصدمة

كانت أمها قد تماسكت وخلعت عن نفسها ما كان معلقا بها من أجهزة طبية، وهي تعمل بكل حيلة من أجل إفاقة ابنتها، ولما وعت الفتاة ما حولها نظرت إلى أمها نظرة وضعت فيها كل اللوم وكل الغضب وكل الحسرة وكل الحزن وكل اليأس من الحياة .. نظرة تكاد تقول لها لن أسامحك أبدت على ما فعلت لنا .. أنت السبب .. ثم ارتمت في حضنها وعلا نسيج يمزق القلوب، وأمامهما عمر ينظر نظرة قاسية كأنه صخر جامد، أركبوا في سيارة الشرطة التي اقتادتهم جميعا إلى حجز المطار القريب .. وبجانبيهما جنديان يحملان سلاحهما الآلي غارقان في الثثرة حول الإجازة الماضية وطريقة المأمور الجديد التي لا تعجبهم وأشياء أخرى .. لم تنبسا ببنت شفة، ظلنا في بكائهما حتى اقتيدتا إلى غرفة الحجز وهناك انفصل عنهما عمر الذي أخذوه إلى حجز الرجال .

أمضت بقية نهار الجمعة في الحجز في قسم شرطة المطار، حيث قام رجال الشرطة بعمل محضر الضبط تمهيدا لعرضهم على النيابة صباح السبت .

كان صباحا حالك السواد بعد ليلة حالكة السواد، لم تستطع وعد خلاها أن تصدق ما يحدث لها أو لم ترد ذلك، واستمرت في الادعاء لنفسها أن هذا لا يحدث لهما في الحقيقة .. إنه كابوس مزعج ستستيقظ منه عما قليل .

إنها بالفعل محبوسة، فها هي الجدران المصمتة الرطبة وها هو البرد الذي ينفذ إلى العظم غير عابئ بتوسلات الأجساد الواهنة، وها هو الباب الحديدي الذي لا تستطيع أن تجتازه ولا تقدر حتى أن تذهب إلى الحمام إن أرادت، كيف لفئة مثلها أن تجلس بين جدران ضيقة وتجلس على الأرض في حجرة قدرة تفوح منها روائح منكرة، وهي الراقية التي درجت في أعطاف النعمة واعتادت أن تكون عطرا يمشي على الأرض، إنها تجربة مؤلمة، بل كابوس شديد الرعب .. من المؤكد أنني أحلم .. تقرر نفسها لتؤكد أنها مستيقظة .. ثم تنهار باكية .. وتعيد الكرة بعد أن تهدأ وكلما تأكدت أنها صاحبة تعاود البكاء، ثم تعود لتفعل نفس الشيء بعد دقائق آملة أن تجد نتيجة مغايرة .. ولكن هيهات .

أما الأم فقد تجلدت للقاء قدرها واستفاقت مما كان بها من مرض وكأنها لم تكن مريضة، ونزل بها حزن ساكن مستسلم يظهر في ارتعاش اليد وتهديج الكلمات ويتخفى في مرارة الحلق والاختناق بالعبرات .. لم يطعما شيئا في تلك الليلة .. ولم يبحثا عن طعام، وكيف يطعمان وقد نزل بهما هم ليس بالهين أن تحتملاه ؟

بات عمر معتز أيضا في الحجز وإن كان استطاع بهال كثير أن يجعل الحجز الذي به أفضل حالا، فقد جُلب له كرسي وطعام فاخر وحقت كل مطالبه حتى إنهم عرضوا عليه المخدرات لو أراد ... ولكنها في كل الأحوال ليلة سوداء، فهو أيضا لم يشعر بتلك المهانة والتعاسة من قبل .. والأسوأ أنه لا بد أن يخبر أباه ليجري اتصالاته ويخرجه من هذا المكان .. لكنه لا يعرف كيف سيبلغ والده بتلك الكارثة، إنه لا يجد الجرأة لفعل ذلك .. قضى ليلته صاحيا يفكر في صاحب الوشاية بهم؛ فما كان هجوم الشرطة بهذا الشكل إلا بسبب بلاغ ... اجتهد في تحديد متهم، ورجح أن من قام بذلك هو أحد الرجلين اللذين علما بشأن الصفقة حين تحدث مع والده أمامهما، لم يقرر بعد كيف سيبلغ والده بذلك الخبر القاتل ... يمتلكه خزي وندم وأسى وقلة حيلة رغم ما يظهره من ثبات وتجلد .

ثم طلع عليهم صباح السبت وما عرفوا للنوم طعما .. استدعوا إلى حجرة وكيل النيابة واحدا واحدا وبدأت التحقيقات .. كانت البداية مع وعد، دخلت أولا وبدأت الأسئلة :

- اسمك وسنك وعنوانك

- وعد طاهر إبراهيم المنصوري - ٢٧ سنة - سموحة، شارع الملك، برج المروة، الدور السادس، شقة ٤ .

- ما قولك فيما هو منسوب إليك من محاولة تهريب المضبوطات التالية :

٢١٩ حجر ماس وردي، ٢٦٠ حجر ماس أزرق، ١٥ حجر تافيت، ٤٩

حجر أوبال، ١٥٠ حجر ياقوت أحمر، ٥٥ حجر سبينل، ٦ أحجار زفير،

ويقدر خبراؤنا هذه المهربات بحوالي ٤٠٠ مليون جنيه؟

- لم أحاول تهريب شيء، وليس لي تلك الأحجار .

- ومن صاحبها ؟

- إنه عمر معتز مرعي .

- ولكن الماس والأحجار الأخرى كانت في حقائبكم .

- نعم فقد أعطاني تلك الحقيبة الثقيلة قبل دخول المطار بدقائق لأضعه في

حقائبنا، وأخبرني أنها أدوية لأمي .

- وإلى أين كنتم تتجهون ؟

- إلى بريطانيا لعلاج أمي كما أوصى الطبيب .

- فما اسم الطبيب حتى نتأكد؟

- لا أعلم .. لا لا .. انتظر، لقد تذكرت، أظن اسمه الثاني (الصاوي).

- هل أنت متأكدة ؟

- هذا ما أخبرني به، وقال إنه يعمل في المستشفى التي يملكها معتز مرعي .

- هل لديك أية إثباتات على كلامك ؟

- المنطق .. نحن أفقر من أن نملك ٤٠٠ مليون جنيه .. ويمكنك أن تأمر

المباحث بالتحري عن الأمر .. ستكشف لكم أننا مستورون فقط .

- بالطبع، ستقول المباحث كلمتها، فهل لديك أقوال أخرى ؟

- إنني بريئة .. أقسم لك إنني بريئة .

- نجس المتهمة وعد طاهر إبراهيم المنصوري أربعة أيام على ذمة التحقيق، ويراعى التجديد في الميعاد .. وتكلف المباحث باستدعاء الطبيب المذكور .
وقعت على أقوالها وانصرفت مع الجندي الذي اقتادها إلى الحجز مرة ثانية، وهي لا تقوى على السير . ثم استدعي عمر معتز إلى وكيل النيابة وبدأ التحقيق معه .

- اسمك وسنك وعنوانك .

- عمر معتز عبد اللطيف مرعي، ٣٠ سنة، فيلا مرعي، شارع فؤاد باشا، كفر عبده، الإسكندرية .

- أنت متهم بمحاولة تهريب المضبوطات التالية : ٢١٩ حجر ماس وردي، ٢٦٠ حجر ماس أزرق، ١٥ حجر تافيت، ٤٩ حجر أوبال، ١٥٠ حجر ياقوت أحمر، ٥٥ حجر سبينل، ٦ أحجار زفير، ويقدر خبراءنا هذه المهربات بحوالي ٤٠٠ مليون جنيه، فما ردك ؟

- ماذا ؟ بكم ؟

- أظنك سمعت، ٤٠٠ مليون جنيه .

- لم يحدث، أنا رجل دبلوماسي معروف، وسلوكي فوق الشبهات .. أظنكم تعرفون من أنا .. وحين فتشوني في المطار كانت حقائبي خالية من أية ممنوعات، وأوراقي سليمة لا شبهة فيها، فلم تحتجزونني ؟

- خطيتك، وعد طاهر تتهمك بأنك أعطيتها كيسا بلاستيكيًا أسود بوصفه

أدوية لأمها .. وهو الكيس الذي وجدنا به الماس .. ما قولك في اتهامها ؟

- هي ليست خطييتي، فقد انفصلنا أمس، ولا بد أنها تريد أن تلتصق التهمة بي حتى تنقذ نفسها .

- إن كنتما قد انفصلتما كما تقولون .. فلم تسافران معا ؟

- كنت في مهمة للخارجية وأستطيع أن أثبت ذلك، وتصادف سفرهما فيها ..

- ولكنك كنت معها حين كشف المضبوطات .

- انفصالنا لا يعني أن أتجرد من إنسانيتي فلا أساعد أمها المريضة .

- يحبس المتهم عمر معتز عبد اللطيف مرعي أربعة أيام على ذمة التحقيق، ويراعى التجديد في الميعاد .

- لكن يا افندم المضبوطات لم يخرجوها من حقيتي .

- خذه يا عسكري .

- أظن من حقي إجراء مكالمة تليفونية .

- طبعاً، تفضل .

- رفع الساعة وطلب الرقم وبعد قليل سمع يقول : أبي لقد قبضوا علينا ..

أنا الآن في قسم مطار القاهرة .. أبي .. أبي .. أبي .

انصرف عمر إلى زنزانه وجاء الدور على الأم، دخلت المكتب وهي ترتجف

وتبكي .. أجلسوها على الكرسي المقابل وبدأت الأسئلة :

- اسمك وسنك وعنوانك

- شريفة حسن محمود الوالي، ٦٠ سنة، الإسكندرية، سموحة، شارع الملك،
برج المروة، الدور ٦، شقة ٤.

- ما قولك فيما هو منسوب إليك من محاولة تهريب المضبوطات التالية :
٢١٩ حجر ماس وردي، ٢٦٠ حجر ماس أزرق، ١٥ حجر تافيت، ٤٩
حجر أوبال، ١٥٠ حجر ياقوت أحمر، ٥٥ حجر سبينل، ٦ أحجار زفير،
ويقدر خيراؤنا هذه المهربات بحوالي ٤٠٠ مليون جنيه، فما أقوالك؟
- أعترف بمحاولة التهريب ..

- وهل تملكين تلك الأحجار ؟

- هي ملك لمعتز مرعي وقد اتفقنا معا على تهريبها بتلك الطريقة .

- إذن أنت تعترفين بمحاولة التهريب ؟

- نعم .

- وهل لديك إثبات على ما تقولين ؟

- لا، وهل يحتاج الاعتراف إثباتا ؟

- يحتاج حين تشركين آخر في جريمتك، فكيف تثبتين صلة معتز مرعي
بذلك الأمر .

- الأمر واضح كالشمس، نحن نعيش في شقة بالإيجار ومصدر رزقنا
الوحيد هو معاش زوجي الراحل وإيجار محل في شارع أبوقير .. فهل يكون
لدينا ماس وأشياء أخرى بـ ٤٠٠ مليون كما تقول ؟ أما معتز مرعي فلديه
امبراطورية ضخمة من شركات ومصانع وأراض وعقارات .

- تجس المتهمه شريفة حسن محمود الوالي أربعة أيام على ذمة التحقيق،
ويراعى التجديد في الميعاد .

في القصر لقيه صافي الحرمي .. ولما خلاصا نجيا حكى له ما دار بينه وبين القاضي وأعاد له الحديث حرفا حرفا، وأخذ يطلعه على ما وقف عليه من تدبير القوم وأنهم بذلك استمالوه ليكون ضالعا في أمرهم، أحسن الحرمي الإصغاء لمؤنس وقد احتلت ملامح وجهه تعابير الغيظ المختلط بالخوف؛ إنه الآن يرتعد من عاقبة الأمور ويخشى أن تدور الدائرة علي حزبه .

ولكن تدبير القدر ومسالك الغدر أضافتا أذنين آخرين كانتا تتسمعان للحديث من وراء الجدر، فات الأذنين الخائنتين أول الحديث ولكنها أحستنا الإصغاء للنصف الثاني منه .. وذلك حين سأله الحرمي عن موعد تحركهم فأجاب بأنه لابد أن يكون سريعا، فهم يريدون أن يستبقوا الأمر ويبادروه قبل أن يأتي بارس غلام إسماعيل بن أحمد ليكون في حراسة الوزير وتعريض أمره، وبارس اليوم خرج من الري فأمامهم في التحرك ما لا يزيد عن أسبوع .

أنهيا حديثهما على أن يتصرف مؤنس بشكل طبيعي، وينتظر أوامر الحرمي . بعد خروجه من القصر بلحظات تحركت قدمان من القصر إلى الخارج في سرعة شديدة .. بعدها طرق باب دار ابن المعتز .

- أريد أن ألقى أبا محمد الآن .

- ولكنه نائم .

- أيقظوه إذن؛ فالأمر لا يحتمل الإبطاء .

يذهب الخدم لإيقاظ الأمير، وبعد قليل يقبل الأمير وهو في ثياب نومه، ثم يقول في قلق واضح .

- ما أتى بك الساعة إلا أمر شديد .

- نعم هو أمر خطير .

- أفصح، ما وراءك يا سوسن ؟

- لقد علموا بكل ما نخطط له أيها الأمير .. فأدرك أمرك .

- صدم ابن المعتز وصاح قائلاً .

- من الذي علم ؟ ومن ؟

- صافي الحرمي على علم بما تخططون له، والذي أخبره هو مؤنس الخادم .

- ويل له هذا الكلب، له الويل مني ..

- أطرق ابن المعتز وأخذ يحك جلد ذقنه الخفيفة بأظافر مرتعدة وهو في

رعب مما قد يقع له .. فاستأنف سوسن الحاجب :

- لقد حذرتكم منه يا أمير، فلم أدخلتموه في هذا الأمر ؟

- إنه القاضي الغبي أحمد بن يعقوب كفله لنا .. كم حذرناه منه، ولكن يبدو

أن ذلك القاضي الأحق صمم على رأيه وأخبره .

- لا حل لكم الآن إلا الهرب .

- الهرب ؟ كلا، إن الهرب إعدام مؤجل، وأي أرض تقلنا والبلاد كلها بلاد

الخلافة .

- يمكنكم أن تهربوا إلى الدولة العبيدية في المغرب .

- الهرب ليس حلا .

- وما الحل ؟

سكت ابن المعتز وقد سقط في يده وظهرت الحيرة والتردد وبعض الخوف على ملامحه .. نظر إليه سوسن الحاجب وأخذ يتأمل تلك الجفون المرتعشة والشفاه المختلجة والنفس المرتفع فانتقلت إليه عدوى الرعب وقال في هلع :

- أخبرني أيها الأمير .. ما الحل ؟ إنني لا أدري كيف أتصرف .

- أخبرني أولاً، متى عرف الحرمي بالخبر ؟

- منذ ساعة يسيرة .

- ومتى يتوقع أن نتحرك ؟

- قال إنكم من المنتظر أن تتحركوا خلال أسبوع، ولكن ما الحل الذي تفكر

فيه ؟

- لن ننتظر، سنضرب ضربتنا اليوم .

- وكيف ذلك ؟

- دع ذلك لي، واخرج الساعة وقم بدورك في القصر حتى لا يلحظوا غيابك، وعندما تسمع بخروجنا فسيكون الخليفة بين يديك فنفذ دورك الذي اتفقنا عليه .

- لكنني متخوف .. إن أخفقتم ففي ذلك الهلكة، واعلم أنني لن أنفذ شيئاً

قبل أن أتأكد من موت الوزير العباس بن الحسن .

- حسبي هذا منك، وليكن الله في عوننا جميعاً .

لما خرج مؤنس من القصر ملاًه إحساس بالراحة؛ لأنه فعل الصواب وعليه أن يتأهب لتحمل العواقب أيا كانت، ذهب إلى فرقته في مضارب الجيش العباسي، وأمضى حتى قبيل العصر معهم، تحرك بين الجند وسأل عن أسمائهم في تلطف .. تقصى عن مشكلاتهم ووعد بحل لمشكلة تأخر المياه التي يحملها إليهم السقاةون .. كان باش الوجه حاضر البديهة حلو اللسان .. أشعر الجنود بأهميتهم .. افترش الأرض بجانبهم .. حكى لبعضهم طرفاً من تاريخه في المعارك .. شاركهم بعض الزاد كبني أب متحايين وتركهم وقلوبهم تمتلئ بالرضا وتعمر بالغبطة .. إنه يسابق الزمن ليجعل من هؤلاء عدة وعتاداً ساعة تظلم الدنيا ويرفع لواء الكرب .. ولم يغفل القادة فزاد من توطيد علاقته برؤساء الجند فحملوا له المودة والإكبار دونما غرض .

كان قد بلغ به التعب محلاً وأمضه السهر؛ فمنذ الليلة الماضية لم يحصل على قدر من النوم إلا إغفاءة يسيرة .. يعلم أنه إن حاول النوم فسيأتى عليه .. القلق يستبد به ولا يعرف حتى الآن كيف سيواجه الحرمي العاصفة القادمة، ولا ماذا سيكون دوره .. أو كيف تكون نهايته، في نهاية المطاف قرر العودة إلى بيته ليحظى ببعض النوم يريح به تلك الأجفان الثقيلة .

ما إن تخفف من ملابسه وتمدد على سريره، حتى سمع طرقاً شديداً على الباب، قام فزعا، فوجد بالباب رجلين في سلاحهما يعلم أنهما من رجال ابن الجراح، سألهما :

- من أنتما ؟ وماذا تريدان ؟

- يطلبك مولاي الأمير ابن المعتز .

- خيرا ؟

- لا نعلم فيم يطلبك .

- فانصرفا وسألحق بكما .

- كان أمره واضحا ألا نعود إلا بك .. فتلطف أيها الأمير بنا ولا تتسبب لنا في الأذى .

- فانتظرا إذن حتى أبدل ملابسني .

وقف الرجلان في انتظاره، ودخل يبدل ملابسه، كان شديد القلق لما يريد له ابن المعتز، لا يخرج الأمر عن حالين، فإما أنه كشف أمره وعرف أنه أطلع الحرمي على أخباره، وهذا يعني أنه سيقتله، وإما أنه يريد أن يعرض عليه الخطة ويشركه في الأمر بشكل رسمي، ولكنه قال : فإن كانت الأخرى فلم أرسل رجلين بسلاحهما، ولم في هذا الوقت ؟ وبذلك التعجل .. زاد عنده الشك في أن الرجلين جاءا لقتله، وحتى لو كان الاحتمال الثاني فعليه أن يستعد أيضا .

ارتدى ملابسه وشد نجاهه وتفقد سيفه، وأخفى قوسا وكنانة سهام في جراب بسرجه ثم وضع على السرج بساطا ليخفي القوس والكنانة ثم مضى معها راكبا فرسه .

في الطريق قال لنفسه: لو أراد ابن المعتز قتله فلن يفعل ذلك في قصره، إنه رجل يزهو بالشرف ويباهي بأخلاق الفرسان فلن يرضى أن يوصم بالغدر ..

فلا بد أن يكون قد أمرهم باغتياله في الطريق كي يتبرأ من تلك الغيلة ولا ينسب الأمر إليه .. ولكن لو أراد ذلك فهل يرسل اثنين فقط وهو يعلم من هو مؤنس الخادم وأي لقاء كربه لقاءه .. ؟

جاءت إجابة هذا التساؤل وتأكدت له كل مخاوفه حين وجد الرجلين يتجاوزانه ليسيرا أمامه، ثم يأتي من خلفه ثلاثة رجال كانوا في انتظار مروره .
اكتمل الكمين إذن وحانت لحظة الحقيقة، اتضح كل شيء وما بقي إلا أن يهاجمه الفرسان الخمسة .. ليس عليه إذن أن يكون رد فعل، بل عليه أن يفاجئهم بما لا يتوقعونه .. اتخذ القرار وسارع بالتنفيذ من فوره .. همز جواده همزة خفيفة حتى وضع نفسه بين الرجلين وبسرعة البرق سل سيفه وضرب الفارس الذي رجح أنه الأقوى منهما ضربة أطاحت برأسه .. وقبل أن يشهر الثاني سيفه كان قد تلقى طعنة مؤنس التي أسقطته عن جواده يشخب دما ..
انتبه الفرسان الثلاثة في الخلف فسلوا سيوفهم، وشرعوا في الهجوم، ولكنه كان أسرع منهم فهمز جواده وانطلق بسرعة فائقة وطاروا خلفه، وكان فرسه لا يشق غباره ولا تدرك سرعته، ففات الرجال بمسافة وأخذ طريق باب الشامية كي يخرج إلى الصحراء .. كانت المطاردة مستمرة وقد أوغل مسافة في الصحراء فاستمر هو في العدو يسرع حيناً ويخفف من عدو فرسه حيناً لا يريد منهم أن يستيئسوا من إدراكه ويريد في نفس الوقت أن تطول المطاردة؛ ليتأكد أن المسافات بينهم قد تباعدت؛ حتى يستطيع مواجهة كل فارس على حدة، ويكون قد أخرج قوسه وشد كنانته على كتفه .

فلما تم له ذلك نظر خلفه فرآهم قد تباعدوا بما يسمح له بمواجهتهم منفردين فلوى عنان فرسه وعطف عليهم .. أصبح في مواجهة أولهم سريعا وقد شد كنانته على كتفه وألقم القوس سهما رمى به الفارس الأول فأصابه .. ثم أخرج سهما ثانيا ورمى الثاني فأخطأه وكان الثالث أقرب من أن يسمح له بإخراج سهم ثالث ففضل الابتعاد عن مجال ضربته .. لوى عنان فرسه قليلا فحقق المراد فلم يستطع الثالث أن يضربه بسيفه .. أصبحت المطاردة في الاتجاه العكسي، وقبل أن يصلا إلى مشارف المدينة كان قد استعد بسهم في قوسه وانتظر اللحظة المناسبة وعاد لمواجهتهم، رمى الفارس الأول بسهم فأرداه، وبسرعة سل سيفه ليتقي به ضربة الثاني، وبدأ مع الفارس الأخير مصاولة لم تطل إذ استطاع أن يكشف منه غرة وضع فيها سيفه فقتله .

انتهى مؤنس من ورطة استهدفت حياته .. لقد كانت معركة استطاع بمهارته أن ينقذ نفسه، فما يفعل حين تحين معركة لا تنفع فيها مهارة ولا تجدي شجاعة ؟ إن القادم لا بد وأن يكون أسوأ، فمن حاول أن يقصيه بالغدر والغيلة قد يفعل الشيء نفسه مع الخليفة ووزيره، ومن المحقق أن نبأ إفلاته من الكمين سيبلغ ابن المعتز سريعا، وأنه - لا شك - سيسرع بتنفيذ مخططة .. عليه أن يبلغ الحرمي ليحمي الخليفة، وعليه أن يحذر الوزير الذي بات الآن كوزير الشطرنج أهم قطعة على رقعة الصراع في بغداد، وإن سقط الآن ستسقط بقية القطع تباعا .

في الوقت الذي ذهب فيه مؤنس لإبلاغ الحرمي كان الحسين بن حمدان يقود فرقته من الجيش ومعه وصيف بن صوارتكين لاغتيال الوزير .. كان العباس في ذلك الوقت قبيل المغرب قد ركب من داره بدرج عمار على الشرا إلى بستانه المعروف ببستان الورد عند مقسم الماء، ومعه ابنه أحمد و غلام له وحاجبه منصور وفاتك المعتضدي غلام الخليفة المعتضد وكان فاتك بطلا شهيرا .

لم يكن العباس يخشى شيئا من الحسين بن حمدان، فقد كانا مقربين منذ شفع العباس لأبيه حمدان بن حمدون أيام المعتضد، وكان المعتضد قد سجنه لوشاية بلغته عن محاولة حمدان الانفصال بالموصل عن الخلافة، ولكن الحسين كان يبغيه منذ أراد أن يفسد عليه جاريته التي مر ذكرها، ويعتقد قتله لما بلغه من كلام نسب للعباس ينتقص فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم).

لما ورد الخبر إلى الحسين بن حمدان يؤكد وجود الوزير في ذلك البستان أوقف فرقته وأمرهم بأن يحيطوا بالبستان وأن يقتلوا الوزير إن خرج إليهم سالما، وسار الحسين ووصيف بن صوارتكين وأحمد بن كيغلغ إلى داخل البستان .

كان ظل الرجل قد بلغ قدر رحمن حين كان العباس جالسا مع ابنه أحمد تحت أشجار البرتقال التي يحرك النسيم أغصانها بلطف ونعومة حيث افترشا كساء قرمزيا ناعما مده لهما الغلام الحبشي وابتعد عن المجلس بأمر الوزير بعد أن وضع بقربهما ماء وألوانا من الفاكهة ..

أخذا يتحادثان ضاحكين بشأن سير العمل في بناء القصر الجديد الذي يقيمه الوزير ليتزوج فيه الفتى ويشق طريقه الخاصة في الحياة .. ثم سأل الوزير ابنه في جد عن أموال أنفقها الولد دون إن يستأذنه، وكثر بينهما التلاوم حتى احتد العباس على ولده وشتمه .. وفجأة ظهر من مسافة أولئك الفرسان الثلاثة، لما رآهم العباس يتقدمون إليه وقد لبسوا السلاح أنكرهم، ودار بخلده كل ما قاله المخوفون من ابن حمدان .. كان يعلم أن المقبلين عليه من أشجع الرجال وأقواهم فكل منهم يعدل فرقة كاملة في البأس والنجدة، وأنه لا يستطيع مع ولده وفاتك المعتضدي والغلام والحاجب أن يصدوهم، كما أن فاتكا المعتضدي كان مع الغلام والحاجب لا يرون القادمين ؛ لأنهم كانوا قد دخلوا كوخا أقيم على مسافة منه فلن يستطيعوا نجده إن أراد الهرب .. سقط في يده وظن أنها النهاية، وخشي على ولده فصاح به : انج بنفسك يا ولدي؛ فإنهم قاتلونا الساعة، فقال ابنه وهو لا يدري عم يتحدث الوزير: ماذا تقول يا أبي؟ ومن يجرؤ على ذلك ؟ فقال العباس : اهرب يا ولدي إنهم خلفك، فالتفت أحمد فرآهم على بعد خطوات منه، فقال : أنا أهرب من هؤلاء ؟ والله لا أهرب من هؤلاء الكلاب .. في تلك اللحظة كان ابن حمدان قد وصل وسيفه مشهر ثم علا الوزير بالسيف وهو قاعد فأصاب السيف فرع شجرة كانت فوق رأسه فقطعت الفرع ثم أهوت من شدتها على رأس العباس فأصابته إصابة يسيرة ... نهض العباس والدم يسيل على وجهه وتراجع للخلف خطوات يريد أن يهرب إلى داخل البستان وهو يصيح بابنه يريده أن ينجو

بنفسه .. صرخ الابن في رعب وغضب حين رأى الدم على وجه أبيه وأسرع إلى حيث خلع نجاهه على بعد خطوات فاستل سيفه وأقبل على ابن حمدان يريد قتله فشد عليه أحمد بن كيغلع ووصيف وتبادلا معه بعض الضربات حتى استطاع أحمد بن كيغلع أن يضربه ضربة قتلته، في أثناء ذلك كان العباس قد هرب إلى داخل البستان وهو لا يعلم أن ابنه لقي مصرعه، وخلفه سار ابن حمدان .

كان فاتك مع حاجب الوزير في كوخ داخل البستان، فسمعا صرخة الفتى، فخرج فاتك مسرعا فرأى الفتى يتصاول مع وصيف وأحمد بن كيغلع فتحرك يريد نجدة الفتى وقد شهر سيفه وكان فارسا مقداما، لكنه لم يدرك الفتى الذي صرعوه بسهولة فأخذ يتصاول مع وصيف بن صوارتكين وابن كيغلع وهو يسبها ويرفع صوته بطلب النجدة من الغلام والحاجب واستمر يناورهما في خفة وبراعة حتى إنهما عجزا عن إصابته بسيفيهما .. مر وقت حتى استطاع وصيف أن يضربه بالسيف ضربة قطعت يده، ثم ثنى عليه بأخرى أطارت رأسه .

في أثناء تلك المصاولة التي انتهت بقتل فاتك كان الحاجب قد استتر خلف الكوخ يراقب المشهد من بعيد، وقد أعد نفسه للهرب إن رآه القوم، أما الغلام فقد لحق بسيدة العباس داخل البستان، كان العباس يجري والدم ينزف من وجهه، وكانت سنه كبيرة ولا يتحمل العدو، فجعل يسير خطوات ثم يسقط وغلامه بجانبه يسنده إليه ويستنهضه إن سقط على الأرض، فلما أنهكه السير

توقف وهو يلهث من النصف والتعب .. توقف في انتظار مصيره، وبجواره الغلام .

أدركه اليأس من النجاة، وعلم أنها النهاية، ولكن الحياة غالية، فأراد أن يستمهل الحسين لحظات .. يخاطبه فيها وهو لا يعلم فيم يخاطبه وكيف سيتوسل إليه ليتركه حيا .

لما وصل إليه بن حمدان، قال له :

- نشدتك بالله اسمع مني .

- ماذا تريد أن تقول ؟

- اعف عني واستبقني ولك كل مالي .

- مالك في دارك وسأخذه الساعة منها رغما عنك، فهل لديك غير هذا .

- فما تنقم مني ؟ لماذا ؟

- لأنك تستحق أيها الزنديق .

- أنت يا ابن أخي تفعلها ؟

- لست لك بابن أخ .

- قد استغواك ابن المعتز .

- الغويّ هو من يعتدى على حرم ابن حمدان ويريد أن يخاتله، أما علمت من

أنا ؟

عندها أدرك العباس اليأس من النجاة فقال :

- ما علمت إلا أنك كلب لابن المعتز يحركك أنى شاء .

- فمت إذن على يد كلب .

قالها ثم أهوى عليه بالسيف بضربة قوية فرفع الرجل يده لا إراديا يريد أن يتقي ضربته، فقطع ساعده من الضربة، وحين ضربه الثانية التي أطاحت برأسه كان الغلام قد رفع سيفه وهو يرتعد ووضع السيف على عنق ابن حمدان .

كان بين ابن حمدان وبين القتل أن يحتز الغلام عنقه، ولكن الحسين كان ماكرا، قال للغلام : يا رجل اتق الله ولا تعرض نفسك لغضبة أمير المؤمنين، إن أمير المؤمنين هو الذي أمر بقتله، وهذا خاتمه في إصبعي علامة ما أقول .
صدق الغلام المسكين خدعة ابن حمدان فأنزل سيفه، وما أن فعل وابتعد خطوة حتى رفع ابن حمدان سيفه وطعنه طعنة صرخته .

استيقظت عالية أم مؤنس صبيحة السبت (٥ فبراير) على أمر غريب لم تعتد حدوثه، إنها الحاجة صالحة تطرق بابها وتدخل حجرتها وما فعلت ذلك منذ زمن بعيد ..

- خيرا يا أمي .

- هو خير يا ابنتي لا تقلقي، فقد أصبحت على حلم غريب .

- خير يا رب .

- إن شاء الله خير ... رأيت أن ...

في تلك اللحظة سمعتا صوت سيارة إسعاف .. إن ذلك الصوت ليس بالمعتاد سماعه في القرية .. انتفضتا على الفور وأسرعنا بالتحرك إلى خارج الحجرة، فلقيهما همام الصغير ...

- الأم : ماذا حدث يا بني ؟ لمن جاءت الإسعاف ؟

- همام : لا أعلم .. سأرى .

- الحاجة صالحة : استر يا رب .

توقف صوت السيارة أمام المنزل .. وسمعت جلبة وأصوات عالية خارج السور .. صرخت الجلدة : مؤنس ..

الأم : ماذا تقولين ؟

- ابنتا هو من في الإسعاف يا عالية .. إنه مؤنس .. سترك يا رب

- الأم : .. ماذا تقولين ؟ .. الطف يا رب .

تضع الأم والجددة يديهما على رأسيهما .. لا تقوى الجدة على القيام فتقعد على الأرض.. يفتح باب المنزل، ويدخل رجال فيهم أصدقاؤه علي وهشام يحملون محفة يرقد عليها مؤنس ويعاونهم في الحمل شبان من أهل القرية .. تصرخ الأم ثم تنكب علي مؤنس وهي تبكي بينما يعلو صراخ أخواته .
بعدها يدخل عبد الله بسيارته إلى الفناء ثم يترجل من السيارة ويساعد الأصحاب في حمل مؤنس وهو يقول لأم مؤنس .

- لا تخافي يا خالة إنه حادث بسيط .

بينما ينطق مؤنس بصعوبة وهو على المحفة وقد ظهرت قدم عليها جبيرة من جبس .. ورأس معصوبة عليها أثر مادة طبية حمراء: اطمئني يا أمي أنا بخير .. أين أمي صالحة ؟ طمئنوها .. أنا بخير .

ينقل الرجال مؤنسا إلى المربعة حيث يستلقي على بعض وسائد الإسفنج، ... على إثرهم تدخل الجدة متساندة على أخوات مؤنس .. فتنكب على ابنها تحتضنه وقد بلغ منها الجزع مبلغا عظيما ..

- ما أصابك يا ولدي؟ .. ماذا حدث ؟

- إنه حادث بسيط يا أمي .. صدمني سائق تاكسي متهور في أثناء عبور الطريق .. لا تقلقي إصاباتي بسيطة لكن أصدقائي صمموا على نقلني في سيارة الإسعاف .

فجعلت تطمئن عبي بدنه جارحة جارحة وهو يطمئنها، وبعد أن انتهت تنهدت في ارتياح وقالت :

- الحمد لله يا بني على كل شيء .. قدّر ولطف .

يغص المنزل بعد دقائق بالزائرين الذين بلغهم الخبر .. أتوا للاطمئنان على مؤنس وعلى وجوههم قلق حقيقي ثم رحمة حقيقة .. ويظل الأمر هكذا أياما متصلة .. زوار يعقبون زوارا يشربون الشاي ويجلس بعضهم قليلا ثم ينصرف وبعضهم يطيل الجلوس إلى أن تنتهي الليلة .. أعاد مؤنس حكاية سائق التاكسي لكل زائر ووصف حالته لكل سائل؛ فقد كانت الحادثة هي المادة الأساسية للحديث الذي يتخلله الشاي .. كيف حدثت الإصابة؟ وما مدى خطورتها؟ وبالتأكيد لا بد أن يعرج المتحدثون على ذكر الثورة وأحداثها ... وفي تلك الليلة التي احتشد فيها جمع من شباب العائلة وبعض شيوخها تخلى مؤنس عن التحفظ وبدأ يعلن في صراحة أن الحزب الوطني هو أصل الفساد ومنبت الداء، وأن الثوار ليسوا إلا شبانا يرجون أن يتحرروا من بطش النظام وبناء دولة تقوم على الحق والإنصاف والعدل وتبنى العلم غاية ومنهجاً وسبيلاً ... شارك أصدقائه في بعض الحديث وطرحوا آراءهم أمام الحاضرين في تلك الليلة فعضدوا متجهه وأيدوا موقفه .. كان يظن أنه سيواجه اعتراضات وهجوما شديدين من أهله لذلك الرأي، لكنه ما وجد من ذلك شيئا .. فما ثم إلا بعض امتعاض وصمت من الشيوخ وكثير من البهجة والانشراح في وجوه الشباب .. فما الذي أحجمهم عن محاجته؟ هل يرحمون حاله ويأسون لإصابته؟ هل يراعون مكانته أو وجودهم في بيته؟ أم أن الرؤى آخذة في التغير والقناعات متجهة نحو التبدل؟

لم يكن غريبا أن يكون صبري هو أكثر العائدين للمريض، لم يندهش مؤنس مما كان يتوقعه؛ فقد كان يعلم أنه سيراقب تحركاته بدعوى الاطمئنان على حاله .

مر يومان على تلك الحال والبيت لا يخلو من زواره إلا ليلا ... كان أصدقاء مؤنس الثلاثة قد ظلوا معه ذينك اليومين ... وزاره أيضا سمسرة بيع المنزل الذين أرادوا أن يتأكدوا كيف تسير الأمور .. جاءوا واحدا بعد الآخر، فكان مؤنس يلقاهاهم بترحاب شديد، ويطلب من أمه وأخواته أن يولمن لكل زائر جاء من الإسكندرية كالمحامي والدكتور هادي، وكان يطمئنهم على قرب انتهاء الصفقة حين يتمكن من إقناع الجدة .

حين انتصف ليل الأحد وقبيل فجر يوم الاثنين خرجت الأم من حجرتها لتطمئن على الجدة التي كانت قد شكت ألما في رأسها قبل النوم .. حين أطلت عليها في غرفتها وجدتها تغط في نوم عميق .. حمدت الله وعادت إلى حجرتها، ولكنها لاحظت انبعاث ضوء من الحجرة المغلقة، تلك الحجرة التي تؤدي إلى المقبرة الفرعونية .. لم تكن تعلم أي شيء من الحكاية .. ولكنها لم تر أحدا يدخل تلك الحجرة من قبل، منذ أيام العمدة وفقى كانت الأوامر واضحة بعدم الاقتراب من باب تلك الحجرة، وفسروا لها الأمر بأن الحجرة مسكونة بالجن ولا ينبغي دخولها فاقتنعت ونفذت حتى إنها كانت تخشى أن تلمس باب الحجرة كي لا تصاب بمس من الجن .. ولم يدر بخلدها أبدا أن تعرف

أكثر عن أمر الجن .. فقد كانت من أولئك الناس الذين يوصفون بأنهم أناس طيبون .

أصابها الخوف من رؤية ذلك الضوء في الغرفة المسكونة فذهبت إلى حجرة مؤنس لتخبره فما وجدته في فراشه، لا هو ولا أصحابه .. زاد قلقها وذهبت إلى حجرة ابنها الصغير همام لتوقظه ليبحث عن مؤنس وأصدقائه .. فكانت المفاجأة أنها لم تجده في فراشه .. كادت تجن من القلق، ولم يبق أمامها إلا أن توقظ الجدة لتخبرها بذلك، فهي لا تعرف كيف تتصرف .. ذهبت إلى الجدة .. وفجأة توقفت حين لمحت باب الحجرة يفتح ويطل منه همام، فقالت في فزع .

- ماذا تفعل عندك يا همام؟ لم يا ولدي دخلت تلك الحجرة؟

- أنا ... أنا ..

- انطق .. والله لأخبرن أخاك ليعاقبك، ألا تعلم أن ...

وفجأة توقفت حين خرج مؤنس من الباب نفسه حين سمع صوتها، فقال لها:

- لا تقلقي يا أماء .

- كيف يا ولدي؟ ألا تعلم أن الحجرة مسكونة؟

- أعلم يا أمي، ولهذا أحضرت الشيخ عبد الله ليقراً القرآن في الحجرة ليطرده

الجن .. فلا تخافي .

سكنت الأم لحظة يسيرة ثم قالت :

- لكن يا ولدي احذروا ...

سكنت ثانية، ومؤنس ينتظر تحركها .. ثم استأنفت في حنو :

- هل تريدون أن أصنع لكم شيئاً تشرّبونه ؟

ابتسم مؤنس، ثم قال :

- لا تقلقي يا ست الحبايب همام سيقوم بالواجب .

انصرفت الأم .. وبعد خطوتين استدارت لتقول في تعجب :

- لكنك واقف على قدميك يا ولدي .. كيف هذا ؟ .. لقد كنت في النهار ..

قاطعها مؤنس قائلاً :

- احمدي الله يا أمي لقد شفيت اليوم، ولكن لا تخبري أحداً فيحسدني

الناس.

وضعت يدها على فمها وهي تتشاءب .. وقالت :

- طبعاً يا ولدي طبعاً .. لن أخبر أحداً .. الحمد لله .. الحمد لله لقد طمأننتي

جدتك لما رأيت في المنام أن ..

وكادت تدخل في قصة المنام لكن مؤنسا قاطعها قائلاً :

- اذهبي الآن يا أمي لترتاحي، وستخبريني عن الحلم في الصباح .. أليس

كذلك ؟

- حاضري يا مؤنس ...

قالتها ثم مضت إلى سريرها وهي تردد : الحمد لله .. أحمذك يا رب .

بعدها عاد مؤنس إلى عمله مع أصدقائه ومع همام .. كانوا قد حفروا فوق

باب المقبرة وقطعوا قدراً جيداً من العمل في ثاني ليلة من العمل للبحث عن

باب المقبرة الذي كان قد اختفى بعدما أمر الجد بردم ما كانوا حفروه من قبل عقب موت أبيه .

كان مؤنس مدفوعا في ذلك بفكرة سيطرت عليه سيطرة شديدة، إنه يريد أن يدفن أباه دفنا لائقا ويصلي عليه، فهذا حق أبيه الذي لا بد أن يقضيه، وفي الوقت نفسه عليه أن يرى ما الذي يسعى وراءه أولئك المتهافتون على البيت، يكاد يقتله الفضول ليعرف ما تحويه تلك المقبرة إن كانت موجودة؛ ولهذا فقد اخترع مع أصدقائه فكرة الإصابة وسيارة الإسعاف ليتمكنوا من العودة إلى البيت وحفر المقبرة دون أن يشك أحد في ذلك .

جاء همام بصينية عليها بعض البرتقال واليوسفي ليتناولوها قبل أن يستأنفوا العمل .. فأمامهم حتى الفجر قبل أن تستيقظ الجدة، فمن المحال أن يصرفها كما صرف أمه الطيبة، إنها لو علمت ما يسعى وراءه مؤنس فستمنعه من ذلك .. لذلك كانوا يعملون في سرية وكتان شديدين خوفا من استيقاظ الجدة فتقضي على كل ما يخطط له .

لما دخل همام بالبرتقال واليوسفي .. جلسوا ليأكلوا وتركوا الفأس لهمام، وقد أمضهم التعب، لقد قام همام بالدور الأكبر في الحفر؛ ذلك لأنهم وإن كانوا لا يزالون بكامل صحتهم إلا أن أيديهم طرية لم تعتد الإمساك بالفأس وحمل التراب، أما همام فقد كان يفوقهم بأنه قوي الساعد صلب القبضة من كثرة العمل في الأرض ..

بدءوا في تناول الفاكهة وقد داخل بعضهم الشك في أن يتول مسعاهم شيء خاصة هشاما وعلياء، إنهم غير مقتنعين حتى الآن بأن هناك مقبرة حقيقية في هذا المكان .. إنها ثاني ليلة من العمل .. ولا يدرون كم سيستمرون حتى يصلوا إلى باب المقبرة .. وفجأة ..

يضرب همام ضربة تصطدم بشيء صلب .. يضرب ثانية وكانوا قد انتبهوا لصوت الضربة الأولى فسمعوا الصوت ثانية .. يبدو أنهم وجدوا شيئاً آخر . وعندها أبعد مؤنس أخاه وأمسك بالفأس بلهفة، وظل يعمل في إزالة التراب عن ذلك الحجر والعرق يتصبب منه دون أن يشعر بأي تعب أو يستجيب لمن تطوع بأخذ دوره في الحفر، ظل يعمل حتى ظهر واضحاً .. إنه يبدو كغطاء حجري يؤدي إلى مدخل المقبرة .. استعان بالأصدقاء لرفع الحجر .. فرفعوه، فبدأ أمامهم المدخل الراسي المؤدي إلى بابي المقبرة كما ذكر مجاور البلحي .. عند ذلك سمعا صوت قرآن الفجر ..

- عبد الله : ماذا سنفعل الآن ؟

- سنتوقف الليلة .

- لم، إنما قد وصلنا ؟

- لا أريد أن تصحو حني صالحة ونحن هنا .. هيا بنا الآن .

- بقي نحو نصف ساعة على الفجر يا مؤنس .

- لا لا إنها تصحو الآن مع القرآن .. هيا هيا .

- خرجوا من ذلك المكان وأطفئوا المصباح .. وأوى الجميع إلى مضاجعهم
في المربوعة الكبيرة .. ولكن ما نام منهم أحد .. وكيف ينامون وهم على
أعتاب كشف السر الكبير وربما على أعتاب موت محتمل ؟

انتهت المعركة بين فاتك والأميرين، فخرج الجمع من البستان، وابن حمدان يكبر ويقول : الله أكبر هلك الفاسق، الله أكبر هلك الزنديق .. فلما رآه الجنود كبروا وساروا يريدون بغداد .

حين عاد مؤنس إلى المدينة لحق بالقصر، فلما لقي الحرمي، قال له :

- كمن رجال ابن الجراح لي وكادوا يقتلونني .

- ماذا ؟ متى حدث ذلك ؟

- منذ ساعة أو أقل أرسل خمسة رجال لقتلي .

- فماذا فعلت ؟

- قتلتهم .

- سلمت يمينك يا بني .

- سلمك الله يا سيدي، ولكن ماذا أفعل الآن ؟

- ابق هنا في دار الخلافة، وسأجعلك الساعة قائدا للماليك المقتدرية .

- وما الماليك المقتدرية ؟

- لقد اشتريت ما يقرب من مائتي فارس من أمهر الفرسان هم تحت إمرتك

، وضممت إليهم غلمان المكتفي رحمه الله، وعددهم يقرب من المائة .

- ينبغي أن نبلغ الوزير الآن، فإن كانوا قد أقدموا على فعل هذا بي فلا شك

في أنهم يتحركون الآن في طلب الوزير .

- إن كان ظنك صحيحا فالخوف على المقتدر الآن من الغيلة .

- وأين هو ؟

- إنه يلعب الصوالة مع غلمان خارج القصر .

- ماذا ؟ فلتتحرك فوراً .

خرج الحرمي ومؤنس يسرعون إلى حيث المقتدر يلعب، وحين وجدوه أبلغوه بضرورة التحرك إلى داخل القصر .. فامتل .

وقبل أن يتحركا به سمعوا من يصيح : الغوث الغوث، واعباساه ... فنظروا فإذا بمنصور حاجب العباس يعدو إلى داخل الحلبة .

وقفوا يسمعون ما وراءه، فأخبرهم بكل ما حدث في البستان .. حين أخبرهم منصور بمقتل فاتك المعتضدي على يد وصيف بن صوارتكين على الدم في عروقه واجتاحته موجة غضب عارمة، لقد خسر صديقه المقرب فاتكا المعتضدي، ... ولكنه لم يقل شيئاً ليسمع بقية الخبر .

وبعد أن سمعوا الخبر كاملاً من منصور، اصطحبوا المقتدر في حراسة شديدة إلى داخل القصر .. ومؤنس يتوعد قاتلي فاتك ويلعنهم ويسب آبائهم .

بعد دخولهم جمع الحرمي كل المماليك والخدم، ثم قال لهم : إن قائدكم ورئيسكم منذ الساعة هو الأمير مؤنس فاسمعوا له وأطيعوا. وأخذ الخليفة إلى داخل القصر وبقي مؤنس مع المماليك المقتدرية والمكتفوية وخدم القصر في الباحة الخارجية .

يبدو أن الدهر عاد ليقرب له ظهر المجن، فما كاد يعود إلى بغداد ويقرب من تحقيق بعض أحلامه العراض حتى فاجأته الأحداث بعاصفة تهدد مستقبله بل

حياته إن نجح ابن المعتز في مسعاه .. إنه الآن في قلب العاصفة، وعليه أن يفكر في وسيلة للنجاة، ولكن أية نجاة ؟ أهى نجاته بشكل منفرد هو وولده أم نجاة الركب كله ؟ ... كانت الأحداث المرعبة أكبر من أن يستوعبها وأشد من أن يواجهها وهو الآن - دون جيش يسانده - منزوع القوة ...

دخل إلى القصر ليرى الحرمي؛ كان يريد أن يلتمس عنده بعض الاطمئنان والتثبيت فما وجد عنده غناء .. فالرجل حديثه الآن ينطوي على الغضب والعصبية دون أن يتطرق إلى إجراءات مواجهة الخطب ودفع المصيبة ... وإذا كان الحرمي كذلك فما ظنه بالخليفة الصغير الذي كان يلعب الصوالة؟ أو أمه التي هي الآن أم فقط وامرأة فقط لا تنطق بغير البكاء ولا تطلب إلا حياة ولدها وإن فقد الخلافة ... قال لهم بحدة .. يا مولاي الخليفة .. أخائف أنت ؟ فقال الخليفة : ماخطبك يا رجل، أترأه أمرا لا يستوجب الخوف ؟

- بل يستوجهه، لكن الخوف هو الموت يا سيدي ..

- إلام ترمي ؟

- لا شيء يا مولاي ... لا شيء .

بات جلياً لمؤنس أنه لا ينبغي أن يترك أحدا غيره يقود هذا الجمع المضطرب .. وإن كان ثم نجاة فلن تكون إلا بتدبيره هو فقط ..

كان يعلم أنه مقبل على أحداث جسام، فأحب أن يعمل لكل طارئ حسابا فعاد إلى الممالك وجمعهم إليه ثم سألهم: من منكم يجيد الرمي ؟ ثم سأل من منكم يجيد القتال بالسيف ؟ ومن يجيد الطعن بالرمح ؟

فيجيب من يمهر في أي أمر مما ذكر فيأمره بالانتحاء إلى جانب، ثم أمر كل جماعة بالاصطفاف في ناحية، وأحصاهم فبلغوا نحو سبعين راميا ماهرا .

والباقون بين ضارب سيف ورامي رمح جيد ..

أما الخدم فقد انتحى بهم جانبا وأجلسهم على الأرض في مكان ظليل، ثم قال لهم .. أسمعوني رأيكم فيما يحدث .

فقال رجل منهم : إننا فداء الخليفة نأتمر بأمره ولا نطيع إلا المقتدر، وسندفع عنه بأرواحنا .

فقال مؤنس : إننا أسألكم عن رأيكم وحيلتكم، فهل تقترحون شيئا ندفع به ما أظننا من خطب ؟

فقال رجل آخر : يمكننا أن نستعين بالعامّة؛ فهم يحبون المقتدر ولن يرضيهم أن ينتزع الملك منه بعد بيعة أقرّوا بها .

فقال مؤنس : إن العامّة مع من يفوز، فلا تعول عليهم كثيرا، أليدكم غير ذلك ؟

فقال خادم آخر : نسير بالخليفة إلى بارس أو إلى أحمد ابن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان .

فقال مؤنس : وهل لدى أحدكم رأي آخر ؟

فصمت الخدم لا ينبسون ببنت شفة، لم يكن مؤنس يريد منهم اقتراحات حقيقية إنما أراد أن يمتحن عقولهم ليعلم كيف سيستفيد بهم، فقال لهم: اعلموا أنني ما سألتكم لعجز حيلة أو وهن تدبير، إنما أردت أن أقف على

انبعاثكم للذب عن الخليفة أو تخاذلكم، وما رأيت إلا رجالا كالأسود، وإنا لمنتصرون بإذن الله .. وما أريد منكم الآن إلا أن يلتزم كل منكم بما سأوكله إليه، واعلموا أنه في ساعة العسرة سيكون النصر على أيديكم بأمر الله ومشيتته.

انتشى الخدم من كلام مؤنس وأخذتهم الحماسة ووثقوا بأنه قادر على هزيمة المتآمرين، ثم إنهم أنصتوا لأوامره ونفذوها كما يريد منهم .

فأما الرجل منهم الذي تحدث أولا فجعله قائدا للخدم الذين قاربوا على الثلاثين رجلا، وأمرهم بأن يجمعوا ما قدروا عليه من فروع أشجار ليصنعوا منها سلام تستند على سور القصر ليقف كل رام على سلم منها .. ليزيد من عدد الرماة على السور، فشرع الخدم في قطع الأشجار وفروع الشجر ما استطاعوا، فصنعوا بضع سلام أضيفت إلى الأبراج المبنية على السور، ثم إنهم تركوا الأشجار التي بجانب السور قائمة وربطوا عليها بعض الأخشاب الصغيرة لتكون كدرجات يرقى بهن الرامي على الشجرة فصارت الأشجار سلام هي الأخرى، واستخدموا وسائل عديدة لصنع أبراج أخرى يقف فيها الرماة وزودوهم بكثير من السهام .

واختار صاحب اقتراح الاستعانة بالعامه فأمره بأن ينطلق إلى مؤنس الخازن وكان وقتها صاحب ديوان السلاح، كان يعلم إخلاصه وأمانته، فهو صديق قديم له منذ قدما سويا للخدمة عند المعتضد، كتب رسالة وختمها بخاتم الخليفة يطلب فيها أن يخرج من خزانة السلاح ما يكفي لصعد المهجوم

وأمره فيها بأن يستكثر من السهام والرماح، وأمر الخادم الذي ذهب بالرسالة إلى مؤنس الخازن أن يشرح له ما حدث ويطلب منه الانضمام إلى المدافعين عن دار الخلافة وبعد زمن يسير عاد الخدم بسلاح كثير ومعهم مؤنس الخازن وبعض غلمانه .

ثم أرسل صاحب اقتراح الخروج بالخليفة من بغداد لرجال من الجيش يعلم إخلاصهم وطاعتهم له، فأخبرهم بأن ثمة انقلابا يحدث وعليهم أن يدافعوا عن الخليفة بكل ما أوتوا من قوة ووعدهم بعتاء كثير إن قاموا بدورهم، ثم اختار رجلا من الخدم يدعونه بدر بن الشاري فأوكل إليه مهمة نقل الأنباء التي تحدث في بغداد وما يفعله أصحاب ابن المعتز .

كان عليه أن يجهز المؤن الكافية فجعل الحرمي يدبر ذلك، وكان عليه أن يرفع معنويات الجنود، كان يدور بينهم دون كلل ويساعدهم في مهامهم ويسأل عن أسبائهم واحدا تلو الآخر، لا تفارقه ابتسامته كأنه في نزهة أو حفل .

هو يعلم أنه لو تسرب إلى قلوبهم شك في كفاءته لاضطرب نظامهم ووهى عزمهم؛ فمن أجل ذلك أعطاهم إحساسا بأنه يعرف كل شيء وأن لديه حلا لكل مشكلة تعرض له، وزاد هذا الأمر تأكيدا حينما قدم الخليفة فصف مؤنس الجنود كلهم سوى من يقوم بالحراسة على الأبراج، وعندها قال الخليفة للجنود كلمات أثلجت صدره وأكبرت الخليفة في نظره، وكان مما قاله : إننا اليوم نمر بضائقة يسيرة ومأزق ليس عليكم بصعب .. إن أعداءنا شرذمة

مارقة حركهم الطمع وضللهم الوهم وهم ليسوا لكم بأكفاء وأنتم صفوة
الفرسان وذروة سنام البطولة والحزم، وإني لست خائفا على نفسي وينبغي
لكم ألا تخافوا مادام الأمير مؤنس موجودا لكي يقودكم، أعلم كم هو كفء
وشجاع وأثق تماما بقدرته على إدارة هذه الأزمة الطارئة، استمروا يا فرساني،
وسأزيد في عطائكم وأكافئكم خير مكافأة .

تعجب مؤنس من صلابة الخليفة الصغير وحزمه وأعجبه ثباته وحسن
منطقه ... استمر في تجهيزه لمعركة يدرك أن نتيجتها ليست في صالحه، إنها
مهمة انتحارية، كيف يواجه جيشا بثلاثمائة مقاتل ؟ إن فرقة ابن حمدان
الخاصة وحدها تزيد على ألف فارس .

لكن الأنباء التي جاء بها الخادم إلى القصر بما يحدث خارجه كانت تحمل
القلق وتبعث على الفزع، فبعد أن حدث ما حدث في بستان الوزير انطلق ابن
حمدان بالذين وثبوا بالعباس إلى دار الوزير يريد أن ينتهبها، فدخل برجاله إلى
موضع الجواري فاستاقهن وحاز الأموال، ثم ترك الدار بعد ذلك لرجال
يأخذ كل منها لنفسه ما استطاع من متاعها، فحملوا الآنية والطرف وما
وجدوه من سلاح، ثم دخل العامة ينتهبون ما يجدون من حبوب وغلل
وأطعمة وفي النهاية أحرقوا الدار .

ثم مضى ابن حمدان بالرجال إلى دار ابن الجراح الذي كان ينتظرهم، والعامة
في كل ذلك يتبعونهم فيهللون ويكبرون مع الفرقة التي كانت تقطع شوارع
بغداد .

حين وصلوا إلى دار ابن الجراح تجهز وركب معهم ثم سار الركب إلى بيت ابن المعتز بالصراة .. سمع الرجل تهليل العامة وصياح الجنود وأقبل إليه الخدم يبشرونه بقرب تحقيق المبتغى فطارت نفسه فرحا وخرج إلى الجموع المحتشدة خارج بيته في أتم زينة، لما رآه ابن الجراح قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال ابن المعتز في زهو : أتم الأمر يا ابن الجراح ؟
فرد ابن حمدان : نعم يا أمير المؤمنين، تم الأمر وقتلنا وزير جعفر، فقم إلى بيت الخلافة وأعلمنا بماذا نلقبك .

فقال ابن المعتز : هلك من لم يرتض حكم الله في نفسه وفي الناس، وأشهدكم أنني أرتضي الله حكما .

فصاح ابن الجراح: السلام على مولانا الخليفة المرتضي بالله .. وصاح الناس خلفه بالصيحة نفسها، ثم سار الركب إلى دار سليمان بن وهب بظاهر المخرم على نهر دجلة ليتخذها مقرا للخلافة .

كان الليل قد أقبل، وبدأ توافد القضاة والكبار يبايعون ابن المعتز، وأخذ البيعة له محمد بن داود ابن الجراح الذي أجلسوه على دست الوزارة وصار وزيرا للمرتضي بالله، فكان محمد بن سعيد الأزرق كاتب الجيش يتولى النداء على الأمراء والقادة والقضاة وأصحاب الدواوين بأسمائهم فيجيء الرجل منهم فيستحلفه ثم يبايع الخليفة .

لقد كانت تلکم الأحداث فتنة شديدة الصعوبة وتمحيصا صارما للرجال .. اختلف موقف أهل الحل والعقد مما يحدث تبعا لتحديدہم مفهوم الربح والخسارة، فمنہم من عد الربح مالا وسلطة فسارع بتغيير موقفه ومشایعة الرابحين دون أدنى صعوبة، وأولئك النفر الذين يشكلون الطائفة الأكثر عددا في كل العصور يكونون على استعداد دائم لتغيير موقفهم وجوہهم وجلودهم متى لزم الأمر .. إن رجالا كمثل علي بن عيسى وابن عابدين وغيرهم من أصحاب الدواوين لا يشغلهم من يكون الخليفة .. لا يشغلهم كفاءته ولا نسبه ولا أحقيته ولا دينه بقدر ما يشغلهم موقعهم في البطانة ومكانتهم في السلطة، ومن المضحكات المبكيات أن هؤلاء يكونون دائما أكثر من يتحدثون بفخر عما يسمى المبادئ وشرف الكلمة .. ومن الرجال من عد الربح أمنا ودعة وستر حال فاحتال لنفسه وحاول الهرب حتى ترسو الأمور على بر واضح مثل ما كان من أمر أبي الحسن بن الفرات؛ فإنه استخفى عند بعض التجار من جيران داره بسوق العطش، وأولئك يملكون قدرا من شرف الكلمة لكنهم أيضا مستعدون لبيعها رهبا لا رغبا وخوفا لا طمعا .. ولكن من القوم أيضا من عد الربح بطولة ونبلا ووفاء؛ فالتزم موقفا وقتل في سبيل موقفه، مثل عبد الله بن علي بن أبي الشوارب القاضي؛ إذ أحضر وطولب بالبيعة لابن المعتز فليجلج، وقال: ما فعل جعفر المقتدر؟! فطعن بحضرة ابن المعتز وحمل إلى أهله ليدفن .

ولكن .. هل الأمر يستحق ؟ هل حقا يمكن أن يختار أحد الموت في سبيل موقف .. في سبيل قضية ؟ وما مدى أهمية تلك القضية حتى يكون القرار موتا أو شهادة أو انتحارا ؟ وهل يضمن أحد موقعه في أي فريق سيكون إذا ضربت الفتنة وأصبح بين خوف السيف وإغراء الذهب ؟ .. قد يتوهم المرء بنفسه شرفا ونبلا ولكن حين يعقد الامتحان يسقط السقوط الكبير .. وربما يكون ذلك معيارا مناسباً لمعنى العظمة، فطوبى للعظماء الذين يعرفون بحسب أين موقعهم .

وإذا كان الاختبار قد وقع خارج القصر فنجح فيه من نجح وأخفق فيه من أخفق فإن الامتحان نفسه خاضه أهل القصر جميعا ووقعوا تحت مقصلة الاختيار ..

لما وصلت تلك الأنباء المحزنة بانتصار طائفة ابن المعتز لم يشك الناس أن الأمر قد تم له ؛ إذ اجتمع أهل الدولة عليه، وتناقل أهل القصر حديث ما جرى بالخارج فأخذهم هم عظيم وعلت وجوههم كآبة وسواد وبلغوا حال من اليأس كادوا معها يسировن إلى ابن المعتز لطلب الأمان والمبايعة .

فلما رأى مؤنس ما هم فيه من الضعف والتخاذل توسطهم في حديقة القصر وصاح فيهم، وكان ذا صوت جهوري : يا أهل القصر، يا أهل البيعة، يا أصحاب المقتدر، إنكم لن تسلموا هذا الأمر حتى تجربوا فيه أنفسكم، لن يخلص الأمر لابن المعتز وفينا قلب يدق .. لنا يا فرسان الحق أجل مكتوب والله وحده يعلمه، فإن كان ثم نهاية فلتكن بعزة وشرف، إنني أقدر الناس

على الهرب والنجاة بنفسي، ولكنني أبذل حياتي دون الخليفة الذي مددت يدي وبايعته وأقسمت على حمايته .. سنحكي لأولادنا وذوينا بعد سنوات أحداث هذا اليوم فكيف تريدون حكايتها؟ هل سترفع رءوسكم ساعتها أم ستتوارون خجلا؟ هل ستواجهون من يسألكم بأعين تتوهج فخرا أم بأعين كسيرة نفر من نظرات الآخرين؟ فبالله نشدكم لا تستياسوا الآن، وإنا وحق الإله على دحر الغدر لقادرون .

ثم صاح مؤنس الخازن : يا رجال لقد ابتلينا بهذا الأمر الذي تعرفون، ومنكم من يقول الآن في نفسه : ما لي ولأموال الخلافة ؟ فليليها من يليها إني امرؤ لا شأن لي، ولكنني أقول لكم : إن ذلك قدر قدره الله، ولسنا نضمن إن استسلمنا أن يتركنا ابن المعتز دون تنكيل، لن يفرق ابن المعتز في انتقامه بين أمير وخادم، فلا تكونوا اليوم نساء ييكن بل كونوا رجالا يأبون الانهزام ويصدون الطغيان، واعلموا يا رجال أننا في سبيل الله نقاتل وليس في سبيل جعفر المقتدر، فاسمعوا للأمير مؤنس واتبعوه وهو لها يأذن الله .

كان الخطاب من المؤنسين مؤثرا وفاعلا .. لكن من الحتم في هذا الموقف الصعب أن تكون الأنفس خائفة والقلوب مرتجفة .. في تلك اللحظة عبر باب القصر خال المقتدر الذي يعرف بغريب الخال ومعه ابنه هارون ونحو خمسين غلاما من مماليكه في السلاح، حين رآهم مؤنس علم أنها بشارة الله ساعة العسرة فكبر وكبر الجند من وراءه واشتعلت فيهم الحماسة .

وبعدها بقليل جاءه أحد المماليك يخبره بأنهم قبضوا على رجلين يرتديان زي الشرطة أرادا دخول القصر، فهب مؤنس واقفا، وما أن رآهما حتى اندفع إليهما يعانقهما، ثم قال :

- ما جاء بكما يا أبا واصل ؟

- جئت لأكون معك أنا وابن الغنوي .

- يا أخي إنها ليست معركتكما وإني أخشى عليكما .

- والله لا نترك هذه المرة تواجه ذلك وحدك، لقد تركناك من قبل حين

نفوك إلى أقصى الأرض، ولكننا الآن معك في أي مصير .

- حفظكما الله وبارك فيكما .. إني والله أحتاج إلى كل رجل .. ولكن مهمتنا

محفوفة بالمخاطر وإني أخشى عليكما .

- إنها حياة واحدة وعمر مقدور، والله هو الذي يحدد الأجل ولا حيلة في

ذلك لمن يحتال .

احتضنها مرة ثانية وقال في جد :

- فالزما المكان الذي أحده لكما، ولا تتحركا إلا بأمرى .

- سمعا وطاعة أيها الأمير .

وبعدها بساعة كان الليل قد انتصف جاء الحرس إلى مؤنس يخبرونه أن ابن

المعتز أرسل رسولا إلى المقتدر ويطلب المشول بين يدي المقتدر، فأمر بإدخاله .

جاء الرسول في وجود الحرمي ومؤنس الخازن وغريب وهارون فسلم ثم

قال مخاطبا المقتدر : إن أمير المؤمنين المرتضى بالله يؤمنك، على أن تخرج أنت

وأملك وجواريك إلى دار عبد الله بن طاهر وتلزمها، وعلى أن تسلم ما عندك من الأموال، وعلى أن تسلم مؤنس الخادم، وعلى ألا تثريب على من عاونك من القواد وأهل الرأي ولهم ما كان لهم من التقدمة وزيادة .

فنظر الخليفة إلى مؤنس كأنه يقول ما الجواب ؟

فقال مؤنس للرسول : قل لأمر المؤمنين المرتضي : يقول لك الأمير جعفر بن المكتفي سمعا وطاعة، ولكن أنظرنا إلى الصباح، ثم قل له إن مؤنس الخادم يستأمنك على أن يخرج لك أموالا عظيمة أخفاها العباس الوزير، وعلى أن يطالعك على ما قاله عنك ابن الجراح عندما كان ثملا .

نظر غريب الخال وهارون والحرمي ومؤنس الخازن إلى مؤنس نظرة عجب، ولكنهم صمتوا وثوقا به وتسليها له ... بعدما خرج الرسول قال هارون :

- ما غايتك مما قلت يا مؤنس ؟ ولماذا لم ترد بها يشفي صدورنا من هذا

الغادر ؟

- غايتي أن تشاوروا فيما بينكم وترجعوا رأيكم، فإن رضيتم بالتسليم والأمان الذي عرضه فأنتم وشأنكم ولا لوم عليكم، وعندها سأحتال في أمر نفسي غير هباب ولا عاجز، وإن اتفقنا على المقاومة والكفاح دون الخلافة فستكون أماننا فرصة حتى الصباح لندير فيها أمرنا .

فقال المقتدر :

- بل الرأي أن أموت مدافعا عن الخلافة .

وقال هارون وغريب الخال ومؤنس الخازن وصافي الحرمي مثل ذلك،
ووافقهم سوسن الحاجب بهز رأس دون حديث .

فقال مؤنس :

- وعلي أن أقهر جمعهم وأرد طعنات غدرهم إن سلمتم لي بالقيادة

فقال الخليفة المقتدر :

- لا قائد اليوم إلا أنت، والكل بما فيهم أنا تبع لك .

لما وصل الرسول إلى ابن المعتز وأخبره رد المقتدر أمام جميع من حضر
وفيهما ابن الجراح، كبروا وسجد ابن المعتز شكرا لله، ثم أخبره برسالة مؤنس
الخادم، فنظر إلى ابن الجراح، فقال ابن الجراح : هو كاذب يا أمير المؤمنين،
وكيف أتحدث عنك بسوء وأنا أسعى في أمرك وأتخوض في المخاطر من أجل
تثبيتك .

فالتفت ابن المعتز إلى الرسول وقال له :

- عد إلى مؤنس الخادم وقل له : يقول لك الخليفة : إننا لا نصدق في ابن
الجراح وشاية رعديد مثلك، وإنه لا أمان لك من الخليفة فسلم نفسك طائعا
ثم اطلب الرحمة من أمير المؤمنين وإلا تؤخذ راعما ولا تنال من رحمته شيئا .

فعاد الرسول بتلك الرسالة، فقال للرسول :

- قل لمولائك إن مؤنسا سيسلم نفسه في الصباح .

كان مؤنس يريد برسائلته أن يلقي بالشك في نفس ابن المعتز من ابن الجراح،
كما يريد ألا يتبته ابن المعتز لما يدبره من تجهيز للمقاومة، وقد أفلح في ذلك

فرغم ما قاله ابن المعتز أمام الجميع إلا أنه قد ارتاب وملأه الشك في شأن ابن الجراح وانشغل عقله في تخيل ما قاله وهو ثمل .. قال في نفسه إن من يخون من أجلك يخون من أجل غيرك، ومن يقول لك يقول عنك، فلم يشك في صحة كلام مؤنس، وبدأ في التخطيط لاقتلاع من ثبتوه كما يفعل أي طاغية ركب كرسي الملك بالغدر، كما أنه أمهلهم للصباح كما أراد مؤنس .

أما من جهة ابن المعتز فقد أمهل المقتدر للصباح لأنه كان ينتظر أن يقوم سوسن الحاجب بما اتفقا عليه، وكانا قد انعقد بينهما الكلام على أن يفتك سوسن بالمقتدر حين يسمع نبأ مقتل الوزير وجلس ابن المعتز على سرير الخلافة .. فأراد أن يعطيه وقتا ينفذ فيه ذلك الأمر وفي نيته أن يغدر بسوسن بعد ذلك ويقتله قصاصا لابن عمه ..

استمر ابن المعتز في تدبير أمر الخلافة في نشوة وسعادة، فكتبت الكتب للنواب طوال الليل وأرسلت إلى الآفاق لأخذ البيعة للخليفة الجديد المرتضي بالله، وبدأ ابن الجراح في ممارسة مهامه كوزير فأخذ يكلف الرجال بمهام متعددة، وعهد الخليفة بالدواوين إلى علي بن عيسى وابن عبدون ولرجال آخرين اختارهم، وعهد بالحجابة على بابيه إلى غلامه يمن، وهو لا يعلم أن اتخاذ ذلك القرار سوف يغضب سوسن الحاجب إن بلغه، لكنه لم يهتم لذلك . أما العامة فقد توافدوا إلى دار ابن وهب يهللون ويهتفون بحياة ابن المعتز ويدعون له بطول العمر وثببت الملك .. لا يريدون من وراء ذلك إلا أن ينالوا العطية من الخليفة الجديد .

الإثنين ٧ فبراير .. مضى اليوم كما مضى اليومان السابقان .. زوار وعائدون
وطعام وشاي وحديث ..

عقد الرئيس اليوم اجتماعا مع الحكومة الجديدة، وقد حضر الاجتماع كل
الوجوه الكريمة من رجال الدولة القديمة .. يبدو أنها جديدة بالفعل
يحاول الشباب في الميدان تشكيل ائتلاف ثوري يتحدث باسم المتظاهرين
يضم الأطياف الوطنية .. اللهم ألف بين قلوبهم ووحده صفهم واصرفهم عن
حب التصدر والظهور .

زيادة عدد البلاغات المقدمة ضد وزيرى السياحة والزراعة السابقين ..
أمر مضحك أن تشكو الرجل إلى نفسه ..

سقط اليوم شهيدان في الميدان .. أي وطن هذا الذي يقتل شببيته حتى يعيش
العجائز ؟ أي وطن ذلك الذي يموت فيه المقبل ليعيش المدبر؟ ومتى يتاح
للشرف ألا يتوارى من الخسة والوضاعة؟

وهكذا مضى الحديث بين ذكر الأحداث والتعليق عليها بمرارة وسخرية
ويأس وأمل .

كان الوقت يمر على الأصدقاء سريعا ولكنه ثقيل مرهق .. يفكر مؤنس
وصحبه فيما سيكون حين يحن الليل ويكملون مغامرتهم وتذهب خيالاتهم في
توقع ما سيأتي كل مذهب إنه الخوف ممزوجا بآمال عراض .

وحين أوى كل من في البيت إلى مضجعه وعم سكون الليل استأنف
الأصحاب العمل .. لم يبق أمامهم إلا أن يدخلوا المقبرة بعد أن كشفوا عن
مدخلها ..

تسللوا إلى الحجرة في صمت ووجل وباشروا من فورهم برفع الحجر ..
عندما أزاحوا الحجر أراد مؤنس أن يدخل وحده .. ولكنهم استوقفوه، قال
هشام :

- ماذا تريد أن تفعل يا مؤنس ؟

- أريد أن أدخل .

- لن تفعل ذلك وحدك .. سندخل جميعا .

- إنه قدرى وعلى أن أواجه مصيرى وحدي .. وأنتم يكفىكم ما قمتم به .

- فصاح عبد الله : إما أن تدخلنا معك أو نمنعك من الدخول .

- بالله عليكم اتركوا لى هذا الأمر؛ فلا نعلم ما قد يواجهنا بالداخل

- قال هشام : هذا بالتحديد ما يجعلنا نصر على الدخول معك، فإن كان ثم

خطر فلنواجهه معا .

أذعن مؤنس لكلامهم فهو يحتاجهم حقا داعمين وحماة فى مواجهة ذلك

المجهول .. هموا بالدخول لولا أن سمعوا طرقا على الباب .

- من بالباب ؟

- حنك صاحلة يا مؤنس، افتح يا بني .

- سقط في يده ولم يدر ما يفعل، ارتبك قليلا لكنه في النهاية لم يجد بدا من أن يفتح لها .

- ما تظن نفسك فاعلا يا بني ؟

- كيف عرفت بأمرنا ؟ .. ألم تكوني نائمة؟

- لقد تناومت لأتأكد مما بلغني .

- وما بلغك ؟

- أخبرني أمك عن الجن الذي تطردونه بالقرآن ففهمت مأربكم .

- سأدخل يا أمي لأدفن أبي دفنا يليق به وأصلي عليه مع أصحابي .

- أعلم أصحابك حكايتنا ؟

- إنني لا أخفي عنهم شيئا .

- لن تفعل وسأمنعك .. لن أفقد ولدين في تلك المقبرة المشؤومة .

- لا تخشي شيئا فسندخل جميعا .. وقد علمت أن المقبرة عليها سحر يفك

بموت واحد، وقد مات أبي فيها؛ فلا خوف علينا .

- أوتظنني أصدق هذا الكذب ؟ إنني لم أستطع أن أدرك ابني الأول .. فلن

أفرط في ابني الثاني .

- أنا مصمم على القيام بواجبي تجاه رفات أبي .

بدأت الجدة تبكي وتقول :

- بالله عليك يا ولدي .. أستحلفك بالله يا مؤنس أن ترفق بي .

أمسك مؤنس يديها وقبلهما، ثم نظر إليها قائلا :

- أنت أعلى علي من حياتي وتعلمين ذلك، لكنني لن أتخلي عن حقين .. حق الصلاة على رفات أبي وحق الانتقام لموته .

- وما يفعل الانتقام يا ولدي ؟ .. أيعيد ابني أم يحفظ عليك حياتك ؟ .. لا تفعل يا بني .. أرجوك .

- اتركيني يا أمي فلن أترك ما جئت له وإن كان في ذلك موتي، كما أننا كدنا نصل .

- إذن أدخل معك ..

- لا يا أمي، كيف هذا ؟

- إما أن تدخلني معك أو تعود معي وليس عندي غير هذا .

- صمت مؤنس قليلا ثم قال :

- ولكننا لا نعلم ما يوجد بأسفل، وأخشى عليك أن ..

- هو ما قلت ولا شيء غيره .. وسأرمي نفسي خلفكم إن نزلتم من دوني .

فكر مؤنس قليلا ثم قال :

- إذن هيا بنا .

رفع الأصحاب الحجر ونظروا إلى أسفل فوجدوا المكان مظلماً .. فأضاءوا كشافاتهم .. لم يكن الغور بعيدا جدا ولكن مؤنس فكر في محاولة أخيرة لإثناء الجدة عن قرارها، فقال :

- لن يمكنك النزول يا أمي؛ إننا نتحدث عن صعوبة لا تلائم سنك وصحتك .. وإن ..

قاطعته بعصبية وحدة

- أحضروا سلم السطح من الحظيرة وسأنزل عليه ..

فأشار مؤنس إلى همام أن يجلب السلم لجدته ..

مضى همام ليجلب السلم وسرعان ما جلبه .. نزل مؤنس أولا ثم هشام ثم
الجدة ثم همام وأوصوا عبد الله أن يبقى خارجا فقد يحتاجون شيئا ما يرسله
إليهم .

وجد الأمر كما ذكر مجاور البلحي وأن هناك بابا جهة اليمين وآخر جهة
اليسار .. يذكر أن أباه أخطأ كما زعم الساحر لدخوله من باب اليمين .. فاتجه
إلى باب اليسار ودفعه .. كان ثقيلا .. ولكنهم تعاونوا على دفعه حتى انفتح .

عندها وجدوا سلما حجريا يفضي إلى المقبرة .. فنزلوا عليه ببطء وحذر
وقد ملأهم الذعر يتقدمهم مؤنس، لقد كانوا صادقي العزم في الدخول لكن
رعبهم كان واضحا من اصطكاك ركبهم وشحوب وجوههم .. إنهم لا
يعلمون ماذا سيجدون والمجهول عدو مخيف .. وبعد خطوات قصار داخل
المقبرة هالهم ما وجدوا .. إنها مقبرة فرعونية بالفعل بها كنوز أثرية لا تقدر
بشئ ولا يمكن وصفها .. مومياوات يبدو أنها لملك أو أمير عرف مؤنس
ذلك من كثرة الذهب الذي وجدوه في ثلاثة صناديق ... إنها كمية هائلة من
الذهب بجوار المومياوات .. وبرديات كثيرة في صندوق آخر كان هناك ثلاث
مومياوات، اثنان منهما على الأقل في حالة جيدة بخلاف الأواني والرسوم على
الحائط .. إن ما يروونه الآن لا يقل أهمية عن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون .

وبينما كان هشام وهمام يفتحان أفواههما وهما ينظران في دهشة إلى تلك الكنوز .. كان مؤنس وجدته قد سارا إلى الجهة الأخرى حيث يتوقعان أن يجدا جثة همام .. كان هناك بضع عظام وجمجمة بشرية .. علما يقينا أنها لهما .. جلست الجدة بجانب تلك العظام وأخذت تبكي بكاء شديدا ومؤنس يحتضنها في رفق .. ويقول لها : هوني عليك يا أماه .

حاولا أن يتبيننا ماذا حدث لهما ... نظرت الجدة على الحائط فوجدت رسوما لثعابين وبجوار رفات مؤنس كان هناك حيوان محنط أشبه بالذئب .. هل أفزعته تلك الرسوم وذلك الوحش المحنط ؟ ربما .. نظر مؤنس جيدا فوجد بجواره حجرا ضخما يبدو أنه تسبب في مقتله .. هل كان موته حادثا قدريا ؟ .. الله أعلم، فما الذي أفزع ابتتها وما سبب صرخة ابنها ؟ .. لا يقين في تلك المسألة يشفي صدورهما، ولا إجابة قد تريحهما، والمحقق أنها ما عادا بحاجة إلى إجابة الآن وقد حصلا على رفاتهما .. يستطيع الابن الآن أن يسدد نصف دينه لأبيه بدفنه والصلاة عليه .. ثم يبقى النصف الثاني وهو الانتقام من تسبب في مقتله .

حمل مؤنس صندوقين من الذهب وترك واحدا .. ثم أخرجهما من المقبرة .. وبعدها جمع رفات والده وأخرجه من المقبرة وأعادوا باب المقبرة كما كان، ثم اجتهدوا في أن يعيدوا الردم سيرته الأولى .

حملوا رفات همام والذهب إلى حجرة الجدة واجتهدوا في العمل .. ظلوا يعملون حتى إذا ما بدأ قرآن الفجر، كانوا قد انتهوا من إعادة كل شيء إلى

بعدها تقدم مؤنس ليؤمهم في صلاة الجنازة، وحين انتهى من الصلاة عليه فتحوا مقبرة وفقى العبايدي وأدخلوا الرفات والذهب فيها، ثم أغلقوا فتحة القبر جيدا وعادوا إلى المنزل .

بعد ذلك أحس أن نفسه قد امتلأت بالراحة والسكينة والاستعداد التام لأي نازلة بعد ذلك .. أحس بأنه قطع شوطا كبيرا في سداد دينه وأزاح عن كاهله هما كان يؤرقه .. كان شديد الفرح بما أنجز بعيد الطمع في قدرته على تجاوز الصراع القادم مع معتز وعصابته .

وبعد ساعة أو ساعتين، ودع جدته وأمه وإخوته ثم سافر مع أصحابه إلى الإسكندرية ..

جلس مؤنس الخادم على درجة من درجات السلم الحجري المؤدي إلى باب القصر وقد أسند ذقنه على قائم سيفه وهو يفكر في حاله والمسئولية الملقاة على عاتقه، إنها ليلة شديدة البرد حالكة الظلمة، وجميع من في القصر قد أسلموا الأمر إليه وانقادوا لتدبيره، وهو لا يعلم ما سيحل به، إن خسر تلك المعركة فأين ينجو؟ وكيف سيهرب..؟

يوما قال له طاهر ابن أبي زرعة: إن لخصمك عليك جوله وإنه لن يتسلط عليك بأذى بعد اليوم، فكيف بما يراه الآن وقد أصبحت رقبته بين يدي ابن المعتز؟ .. ويوما قالت له من يكشف لها: تقتل خليفتين .. فأين قولها وما يحدث الآن له وهو ينتظر الموت؟

ظل في تفكير طويل، وقد انسدت أمامه كل منافذ النجاة ولم يبق أمامه من سبيل إلا الهرب والنجاة بنفسه .. جالت في رأسه فكرة الهرب .. لكنه طرد سريعا ذلك الخاطر القبيح الجبان من رأسه، وقال لنفسه كيف أنا بذلك السوء؟ وكيف بي وقد تركت من يعتمدون علي؟ وكيف أنظر في عيني عمار إن أقدمت على تلك الفعلة المنكرة؟ لئن أكن شريفا ميتا خير لي من أن أكون غادرا حيا، ونهض من فوره من مكانه يدور على جنوده ليبحث فيهم الأمل ويشد عزائمهم وتوكل على ربه وصرف تدبير الأمر إليه .

وجاء الصبح بعد لأي كان قد مضى يومان كاملان على مؤنس دون نوم .. كل من في القصر لم يذق البارحة للنوم طعما فجميعهم قرحى العيون

رواجف الأكباد لا يسيغون طعاما ولا شرابا وقد أحسوا باقتراب الهلاك ودنو النهاية .. لا يدور بخلد أحدهم أن النصر قريب أو ممكن .. يقال إن أجدى طريقة لصنع المستحيل هي الإيمان بأنه ليس مستحيلا .. وليس في هذا القصر أحد يشعر بهذا الإيمان تملؤهم المخاوف لكن لا يريد أي منهم أن ييث الآخرين مخاوفه فيُهزم الجمع ويولون الدبر ..

كان مؤنس قد بث بعض الخدم ليتعرف موقف فرق الجيش الأخرى، وظل في قلق من تأخر ذلك الذي أرسله ليعرف خبر الجيش وغلب عليه الظن بأن الرجل آثر النجاة وقفز من سفينة الخليفة، أو .. لعله كشف عن خبرهم لابن المعتز وقبض المكافأة .. ستكون كارثة لو أن هذا الرجل فعل ذلك .

ولكن الله كان به رحيمًا، فبعد طول انتظار وترقب جاءه الخادم بدر بن الشاري في الصباح يخبره بأن كل الفرق في مكانها عدا فرقة ابن حمدان وشرطة ابن عمرويه فسأل الخادم ولم تأخرت بهذه المعلومة المهمة ؟ فقال الخادم لأنني خشيت على نفسي من أن أدخل من باب القصر؛ فقد ظننت أن السبيل إلى القصر قد ملئت حرسا شديدا، فركبت زورقا ودخلت القصر من طريق دجلة، وفجأة تبدلت ملامح مؤنس واتسعت حدقتاه وسيطرت على قسامات وجهه أمارات الدهشة وعلائم الدهول وقال بلهفة: ماذا قلت يا رجل ؟ أعد علي قولك، فأعاده الخادم .. وعندها لمعت عيناه ببريق عجيب وارتسمت بسملة جميلة على فمه وصاح بصوت مسموع: بوركت من رجل .. فزنا ورب

الكعبة .. ثم أطلق ذراعيه ليحتضن الرجل، ثم أرسله والرجل لا يفهم لذلك سببا .. لقد وضع أمامه الآن طريق النجاة واتضح معالم خطة الخلاص .

وعلى الفور استدعى غريب الخال وانتحى به جانبا وأخذ يتحدثان في أمر ما، وبعدها خرج غريب من القصر لا يدري أهل القصر إلى أين سيتجه، أما مؤنس فقد طلب الخادم الذي ذهب لمؤنس الخازن ليكلفه بمهمة جديدة .

كان ابن المعتز قد سهر هو الآخر حتى الصباح يستقبل المبايعين ويرسل الكتب إلى العمال، وعند الفجر جمع له الناس فصلى بهم، ثم انتظر خبر خروج المقتدر إلى دار عبد الله بن طاهر وهو لا يشك في حدوث ذلك، فما لهم من مخرج إلا الدخول في الأمان الذي عرضه عليهم .

وبعد أن ارتفع الضحى دخل عليه يمن الحاجب يقول : رسول من عند المقتدر .

فقال ابن المعتز : يدخل .

فلما دخل الرسول ألقى السلام على الجميع، فصاح به ابن الجراح : سلم على أمير المؤمنين ..

فقال : أنا رسول، فإن سمعتم وإلا انصرفت .

فقال ابن المعتز : هات .

فقال : إن أمير المؤمنين المقتدر يقول لك ارجع إلى منزلك وأبق على نفسك ودمك فإنني أوئمتك على نفسك، ولا تلهب نار الفتنة؛ فيموت بسببك المسلمون .

فقال ابن المعتز للخادم غاضبا : قل لمولاك امثل لما أمرتك، وإلا فلا يسألن بعد ذلك شيئا ولا يتذرعن برحم ..

فانصرف الخادم، وعاد إلى مؤنس بالخبر، فنادى مؤنس في الجنود أن هلموا، فلما اجتمعوا له صاح فيهم : حان الوقت يا فرسان، أمامكم ساعة على الأكثر حتى يكون على بابكم هذا فرقة من الجيش،، إننا في مواقعنا أقوى منهم، ولتعلموا أنني أعددت لكم خطة النصر وأكفل لكم نجاحها بإذن الله، سنعيد الأمور إلى نصابها يا أبطال، علينا فقط أن نصبر ونتجاوز الصدمة الاولى؛ فما النصر إلا صبر ساعة، ولكن عليكم أن تلتزموا حرفيا بها سأוכלه لكم .

هتف الجنود بالتكبير ورفعوا سيوفهم في حماسة .

فقال مؤنس : سوف ينقسم المحاربون إلى فريقين، أولهما سيكون مع مؤنس الخازن في القصر والقسم الثاني سيكون معي خارج القصر .

ثم توجه إلى الرماة فقال لهم : أنتم مفتاح النصر إن شاء الله إني أعتمد عليكم تماما في ردعهم، سيكون هناك رجال في ملابس الجيش عليهم الحسين ابن حمدان وآخرون في ملابس الشرطة عليهم ابن عمرويه فإن كان لديكم فرصة في اختيار أهدافكم فاستهدفوا رجال الجيش، فسيفيدنا ذلك في أمور كثيرة، وستكونون أربعين رام على أسوار القصر ويوافيكم الخدم بكنائن السهام وأريد الباقين معي خارج القصر .

خرج بحوالي مائة فارس وثلاثين رام .. كان أمام القصر براح واسع اعتاد الخلفاء المتعاقبون أن يجمعوا فيه فقراء المدينة ليطعموهم في شهر رمضان ويفصل ذلك الميدان الواسع بين القصر وبين مسجد كبير وبيوت لتجار من بغداد هي أول ما يظهر من بناء بعد القصر بمسافة .. كان مؤنس يعلم أنه ليس من الممكن القتال في ذلك الميدان الكبير بذلك العدد الضئيل الذي يقوده .. فأصعد الرماة على أسطح المسجد و المنازل وأمرهم بالاختباء عن الأعين حتى اللحظة المناسبة وكمن بالرجال بين تلك المنازل في انتظار مجيء فرقة ابن حمدان وابن عمرويه .

وبعد قليل من الوقت حضر من كان يتوقعهم ما يزيد عن الألف من رجال ابن حمدان ومثل نصفهم من أصحاب ابن عمرويه هجموا مباشرة على باب القصر، وكانت أم الخليفة مع جواربها في شرفة من شرفات القصر ينظرون .. فلما رأين تلك الجموع تقبل على القصر فزعن وتعالى صراخهن، فدخل عليهن المقتدر وصرخ فيهن بحزم :

- لا أسمعن أحداكن تصرخ إلا قتلتها بسيفي وإن كانت أُمي .. انصرفن إلى الداخل ..

حين اقترب رجال ابن حمدان وابن عمروية من سور القصر رماهم الرماة بالسهم، فأصابوا منهم عددا كبيرا، كان الرماة من الغلمان الأتراك مهرة حقا وقد التزموا تماما بما أمرهم به مؤنس فكانوا يتصيدون رجال فرقة ابن حمدان ببراعة، فكثرت القتل فيهم، وكلما استجمعوا قوتهم وأرادوا الهجوم ردهم الرماة

وقد فقدوا من الرجال عددا، حتى بدا للفرسان أن الاقتراب من السور موت محقق، ولما رأوا أن القتل في رجال الجيش وحدهم اهتموا رجال ابن عمرويه بالجن وأنهم يترجعون في حين يقدم أصحاب ابن حمدان، فوقع الخلاف بينهم وكادوا يقتتلون إلا أن ابن عمرويه سحب رجاله ومضى بهم مبتعدا، وكان هذا هو الغرض الذي كانت ترمي إليه فكرة مؤنس حيث أراد باصطياد رجال الجيش وحدهم أن يقع ذلك بينهم، وأن يكون الموت بالسهم لرجال الجيش لأنهم أصحاب مهارة وتمرس بالقتال أكبر من رجال الشرطة .

مرت ساعتان وابن حمدان لا يستطيع أن يقتحم السور ومؤنس يراقب الأحداث من الجانب الآخر دون أن يتدخل وقد أخفى رجاله جيدا وأمرهم بأن يلزموا الصمت والتواري عن أعين أعدائهم .

لم يكن من اليسير علي ابن حمدان أن يستدعي فرقة أخرى من الجيش أو يبلغ الخليفة بما حدث فيبدو عاجزا فاشلا .. بل إنه يود أن ينهي المسألة قبل أن يصل خبر ذلك اللقاء إلى ابن المعتز، كما أنه كان يمني نفسه بالدخول عنوة ليتهاون الدار ويحوز الأموال لنفسه غنيمة فقد كان رجلا يحب جمع الأموال .. مكث في مكانه يفكر في طريقة للدخول، وبينما هو كذلك هجم عليه مؤنس بفرسانه المائة من الناحية المقابلة للقصر فحققت المفاجأة هدفها وقُتل عدد كبير من فرسان ابن حمدان الذين فوجئوا بذلك المهجوم، ثم كانت الساحة المقابلة للقصر ميدانا واسعا لمعركة قوية أبدى فيها مؤنس وهارون ابن غريب الخال - وكان من الفاتكين المهرة - من صنوف البأس ما فت في عضد رجال

ابن حمدان .. فاستمات الفريقان واستحرق القتل في الجانبين .. ولما رأى مؤنس كثرة رجال ابن حمدان وأنه قد حقق بعض أهدافه وحن وقت إكمال المخطط الذي رسمه أصدر أمره بالانسحاب والإسراع إلى جهة المنازل المقابلة للقصر .. فطار خلفهم رجال ابن حمدان وقد ظنوا أنهم ظفروا بهم .. فلما اقتربوا من المنازل رماهم الرماة الذين أعدهم مؤنس فوق الأسطح، فقتلوا منهم عددا، فلما أمطرتهم السهام توقفوا ونكصوا ليعودوا إلى مكانهم الأول وقد فقدوا العشرات بسبب سهام الرماة وفقدوا ما يزيد عن مائة مقاتل بسبب هجوم مؤنس .

علم مؤنس أن ما حققه في تلك الهجمة لن يستطيع تكراره وأن بقاءه في ذلك الموضع لا فائدة منه .. فسحب رجاله بهدوء دون أن يشعر ابن حمدان يريد أن يعود إلى القصر من جهة النهر .

ولكن قبل أن يعود خطر له خاطر جريء .. على إثره أمر رجاله بالتوجه إلى دار ابن حمدان، فهجم عليها هجمة سريعة خاطفة قتلوا فيها عددا من غلمان الدار وحازوا الأموال التي في بيت ابن حمدان .. وكان ابن حمدان قد جمع ثروة كبيرة تقدر بمئات الآلاف من الدنانير الذهبية ومناطق الفضة وفيها ما انتهبه من دار الوزير العباس وما ورثه عن أبيه حمدان بن حمدون الذي كان أميراً للموصل قبل أن يحبس في أيام المعتضد ..

عادوا إلى القصر من طريق النهر في زوارق صغيرة تسمى شذوات وزوارق سريعة أخرى يسمونها الطيارات وأخرى يسمونها الزبازب، كان قد أعدها

غريب الخال بتكليف من مؤنس على جهة من نهر دجلة ودفع فيها أموالا كثيرة ومكث في انتظار مؤنس وجنوده فيها بحسب الاتفاق بينهما .

حين عاد إلى القصر لقيه الفرسان بالتكبير ورفعوه على الأعناق .. وقص من في القصر لمن كان في الخارج عما كان من هجوم ابن حمدان وتحاكى من كان في الخارج بقوة مؤنس وشجاعته وبأسه، والخليفة وأمه والحرمي يرقبون ما يحدث في حديقة القصر من شرفات القصر في فرح وقد قوي عندهم الأمل في اعتدال الأمور لما بدا لهم أن مؤنسا يلي جيدا وأنه يعرف جيدا ما يفعل .

جمع الرجال عدا الرماة على سور القصر وقال لهم : رضي الله عنكم يا رجال المقتدر لقد شرفتم مولاكم وكنتم عند ظني بكم رجالا شجعانا، ولكم عندي من هذه الأموال مكافأة عظيمة .. ولكن اعلموا أننا لم ننته بعد فأمامنا معركة أخرى ستكون الأخيرة بإذن الله، وكما رأيتم فإن الله معنا فأحوالنا ميسرة وخطانا مسددة بعونه وتوفيقه، إن الخطوة القادمة ستكون بعد ساعتين من الآن، فاطعموا واشربوا واستريحوا ثم تجهزوا لمعركة قد تطول .. بارك الله فيكم وحفظكم .

طعم مؤنس مع الفرسان بشهية وقد دب فيه الأمل وانتقلت حماسته إلى الجنود فسرى بينهم يقين بأن النصر حليفهم، ثم حان العصر فاصطفوا وصلى بهم مؤنس، ثم دعا هارون بن غريب الخال، وانتحى به جانبا، وقال له :

- نعم الفارس المغوار أنت، لقد أبليت في وقعة الساحة بما لا أنساه لك، ولولا مساندتك لي لما أفلحنا في مبتغانا .

- إنك من يستحق أن تكون على رءوسنا أيها الأمير، فإني أقاتل للرحم بيني وبين الخليفة المقتدر، أما أنت فلا يحركك إلا الولاء والإخلاص، واعلم أن ما فعلته حتى الآن أيها الأمير مؤنس سيكون حكاية بغداد في قادم السنوات .

- دعك إذن من هذا، وأصغ لما أقول لك .

- هات .

- إني أريد أن أوجهك رسولا إلى ابن حمدان .

- بأي شيء ؟

- بالخير إن شاء الله .. استمع .

بعد ساعة كان خبر هجوم مؤنس على دار ابن حمدان وحيازته لأمواله قد بلغ ابن حمدان .. فأضحى كالثور الهائج يصبح في جنوده وبصرخ ويأتي بكلمات غير مترابطة كمحموم أصابه الهذيان .. أصابته حيرة باهظة وامتلاّت نفسه بالغضب على مؤنس وأخذ يحلف بأنه سيدبحه بيده ثم جلس بحسرة وحيرة لا يستطيع أن يقدم أو يؤخر .

في ذلك الوقت جاءه جندي من حرسه الخاص يقول له : رسول من عند الخليفة يريد لقاءك، فقال : أي خليفة، فقال الجندي الخليفة المقتدر، فسل سيفه وضربه ضربة أطاحت برأسه ثم صرخ في جنوده قائلا : من سمعته يقول الخليفة المقتدر قطعت رقبتة مثل هذا ...

كان ذلك على مرأى ومسمع من جنوده الذين أنكروا تلك القتلة لزميلهم .. وغضبوا غضبا شديدا ولكنهم كتموا ذلك إذ لا يجوز أحد منهم أن يتعرض لابن حمدان بكلام وهو في تلك الحالة .. بعد لحظات هدأ ابن حمدان قليلا وقد اغتم غما شديدا؛ لما أقدم عليه من قتل لأحد جنوده المخلصين في لحظة عمى، فأمر بأن يحمل القتيل للدفن وهو يردد لا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم أمر بأن يأتوا برسول المقتدر ... دخل الرسول فإذا هو هارون بن غريب الخال، فلما رآه ابن حمدان هب واقفا وهو يقول:

- من أين لك تلك الجرأة يا ابن غريب، وبأي وجه تلقاني ؟ تتجاسر على المجيء إلى وقد كنت منذ ساعة تقاتلني في الساحة؟ والله لقد جئت لمقتلك .

- إنما جئت إليك ناصحا وبين يدي لك خير كثير، فاسمع مني ثم افعل ما بدالك .

عصر الثلاثاء ٨ فبراير، يوم المليونية الثالثة في أسبوع الصمود .. استمرار المظاهرات الحاشدة في كل مكان .. النظام ينصاع للضغط الجماهيري ويطلق سراح بعض المعتقلين من القيادات الشابة .. تتوالى الاستقالات في صفوف النظام ويستمر القفز من مركب الماضي .. اعتصامات في الجرائد القومية والشركات .. الغضب يتزايد ومطالب الثوار تتبلور .

كان مؤنس يسير في الشارع المؤدي إلى البرج الذي يقيم فيه الدكتور هادي البربري وهو شديد السعادة بالمشهد الثوري .. بات موقنا من أن تلك الانتفاضة الصادقة من الشعب لن تنتهي إلى لا شيء .. سنربح بإذن الله .. أخذ يدعو برجاء وتوسل : اللهم اصرف عنا نزغ الشيطان وثبت الأقدام . كان أثر المفاجأة واضحا على وجه الدكتور هادي حين رأى مؤنسا واقفا على قدميه ليس به من بأس أمام باب شقته بعد ما كان من أمر إصابته .. استقبله الدكتور بحفاوة معتادة وهو ينظر إليه في عجب .

- ما شاء الله .. تبدو بخير حال .

- الحمد لله .

- إنها مفاجأة سعيدة حقا .. شرفتنا بقدومك .

اقتاده إلى حيث سيجلسان وفي نيته أن يسأله عن معجزة شفائه السريع وبعد أن وصلا إلى حجرة المكتب لم يجد وقتا ليبيدي عجبه أو يتساءل عن شفاء مؤنس بتلك السرعة الخارقة؛ فقد بادره مؤنس قائلا :

- جئتكَ لإنهاء الصفقة ...

- أنا مصغ .

- مطلوب مائة مليون جنيه لا يقلون جنيها .. وفرصتكم للرد حتى الخميس القادم .

صاح به الدكتور هادي في فزع :

- ماذا ؟ أجننت ؟

- ١٠٠ مليون يا متر، ولا تفاوض حول ذلك المبلغ .

- وفيهم هذا المبلغ الضخم ؟ أتعي ما تقول ؟

أجابه مؤنس بحدة :

- تعلم فيم، فلا داعي للحديث فيما يعلمه كلانا .

امتقع وجه الدكتور، وظهر الغضب في نظرة عينيه المحمرة وقال :

- حتى ولو كان ما نبحت عنه نفيسا فما تطلبه مبالغ فيه .

- غيرك مستعد أن يدفع .

- لا تنس أنك لا معرفة لك بذلك المجال ونحن نحمل عنك كل الخطورة

بشراء البيت .

- هذا ما تظنه ولكنه ليس الحقيقة .. وعموما فالصفقة أمامك فخذ أو دع .

تكلف البربري الابتسام، وقال :

- سأرد قبل الخميس بعون الله .

عندها وقف مؤنس ليهم بالانصراف .. فقال الدكتور هادي :

- ابقى لتناول الغداء .

- لدي موعد مع آخرين ... اعذرني يا دكتور .

- مع السلامة .

بعد نصف ساعة كان مؤنس في مكتب المحامي محمد أبي شوشة .. يشعل

الصفقة نارا ويطالب بـ ١٥٠ مليون جنيه والرد قبل الخميس .

لم يندهش المحامي من طلبات مؤنس بقدر اندهاش مؤنس من رد المحامي،

ذلك انه قال :

- عرضك مقبول يا دكتور .. متى نكتب العقود ؟

- ألن ترجع للشارين ؟

- لا تقلق أعلم أنهم سيوافقون .

- إذن نكتب العقد يوم الخميس إن شاء الله .

- إن شاء المولى .

- ولكن قبل الكتابة استمع معي إلى الاتصال التالي :

أخرج مؤنس هاتفه، وهو يرتشف شيئاً من فنجان القهوة وقلبه يكاد يقفز من

السرور بما وصل إليه .. طلب الرقم وفتح الساعة الخارجية .

- السلام عليكم .. كيف أنت يا صديقي ؟ .. عساك بخير .

- وعليكم السلام .. خيراً يا دكتور ..

- أتصل بك لأمر مهم .

- هل من جديد في موضوعنا ؟

- نعم، فقد اتصلت لأخبرك بأن المزايدة على المنزل بلغت ١٥٠ مليوناً، وأنا في حل من عرضي لك إلا إن زدتنا على ذلك .

- ماذا تقول ؟

- أقول ما سمعت .. أنا الآن أحدثك أمام المشتري الآخر الذي يسمعوننا .. والبيع سيتم للأعلى سعراً .. إن شئت أن تأتي بالشارين لتحضروا المزايدة أمام المشتري الآخر فأهلاً بك .

- أنا لا أستطيع أن أقطع في هذه المسألة الآن .. أرجوك انتظر للغد .

- لك ذلك .. على ألا تزيد على ذلك الموعد .

- إن شاء الله .. سأهاتفك لحسم الصفقة .. ولكن أريد أن أعرف، من هو الشاري الآخر ؟

- حتى لو كنت أعرفه فما كنت لأبلغك، وعموما فإن الحديث إلى الآن مع وسيط مثلك .

كان المحامي يحدق في ذهول لمؤنس وهو لا يصدق .. ولما أجرى الأمر في ذهنه ظن أن تلك خدعة من مؤنس يبغى بها الزيادة فقال :

- لن تبلغ بما تفعله شيئاً يا دكتور ؛ فلن يزيد الشارين عن هذا المبلغ قرشاً واحداً فلا داعي لهذا الأسلوب ..

- سنتنظر إذن قول الطرف الآخر .

- لا أصدق وجود طرف آخر .

- ستصدق حين نخسر الصفقة .

- لا تطمع وارضى بما اتفقنا عليه .
- اعذرني يا أستاذ .. هذا تفاوض .. ولو كنت مكاني فلن تود أن تخسر فرصة الزيادة ..
- فأخبرني من الطرف الثاني .
- لأية درجة تحالني ساذجا لأخبرك به؟
- إنك تلعب بالنار .
- بم تهددني يا أستاذ؟
- أنا لا أهددك يا صديقي .. معاذ الله .. أنا أنصحك بخطورة اللعب مع الكبار .
- أنا مدرك تماما لما أقول، فادخر نصائحك لشخص يخاف .
- وماذا ستفعل الآن؟
- إن زادوني جنيها سأبيع لهم .. ولكن إكراما لك سأبلغك في كل الأحوال قبل إتمام أي شيء .. أستاذك .
- مع السلامة .
- بعد أن وقف مؤنس وخطا بضع خطوات باتجاه الباب .. خطر له خاطر ذكي، فتوقف فجأة، ثم عاد إلى المحامي، وجلس ثانية على المقعد، ثم قال :
- كيف تعلم أنهم سيوافقون؟
- لم تسأل؟

- سأجيب أنا .. أنت تعلم ذلك لأن ذلك الرقم لم يتجاوز السقف المسموح به لك .

- ولو، ماذا تعني ؟

التفت مؤنس بكرسيه ليواجه المحامي وقد لمعت عيناه، ثم استأنف قائلاً :

- اسمع يا محمد بك، إن مصلحتك معي لا معهم فإن أطلعتني على سقفهم .. فإن لك عندي نسبة من المبلغ تفوق أحلامك .

- نسبة ؟ كم تكون ؟

- خمسة بالمائة .

- أطرق المحامي قليلاً، ثم قال : اسمع يا صديقي، لن أخبرك سقفهم لأن هذه أمانة، ولكنني سأقول لك إن نسبتي ١٢ مليوناً ونصف

- ههههههههه، أشكرك أيها الأمين، إذن أبلغهم أنني أطلب ٢٥٠ مليوناً .

- سأبلغهم ولكن أنصحك ألا تطلب أكثر من ذلك لأن عندهم وسائل تجعلهم يأخذون البيت مجاناً إن غاليت في السعر، ولكن كيف سأخذ نسبتي .

- إن تم البيع لأصحابك - وأنا حريص على ذلك - فسيكون المبلغ في حسابك في اليوم التالي .

- ١٢ مليون جنيه ونصف ؟

- بل ١٥ مليوناً إن أجبتني عن السؤال التالي :

- فقال المحامي في لهفة :

- سؤال بمليونين ونصف ... سل عشرة أسئلة .

- هل الشراة أآانب ؟
- بل مصريون .
- وكيف ينوون إآراج ما يآدوناه من مصر .
- هآه لا أعلمها .
- لا يساوي هآا مليونين ونصف آنيه .. أآعلم ما المعلومة التي تساوي ذلك المبلغ ؟
- ما هي ؟
- ما اسم الشاري ؟
- معآز مرعي
- مبارك عليك ال١٥ مليوناً يا متر؁ نلآقي يوم الآميس .

قال ابن حمدان هارون في غضب :

- تكلم .

- أريد أن أكلمك منفردا، فإني أعزل وقد فتشني أصحابك

- أتحسبني أخافك .. امض معي .

فلما صارا بعيدا عن سمع جنوده قال له غريب :

- إن أموالك معنا كما قد علمت ..

- سأستعيد تلك الأموال حين أدخل القصر وأذبحكم جميعا ذبح الخراف .

- أنت واهم كبير، فإن ذلك القصر محرم عليك، فقد أعددنا فيه ما لا تقدر

فرقتك على هزيمته، وإن جلبت جيوش الخليفة معك فربما ينجحون في

اقتحام القصر، وعندها تضيع أموالك أيضا وتذهب إلى خزائن ابن المعتز

ونخسر جميعا .

- وفيم قدمت إن كنت تملك ما تقول ؟

- قدمت ناصحا كما قلت لك، ولدي لك عرض مريح من الخليفة المقتدر .

- ماذا يعرض ؟

- أن تسير بفرقتك إلى الموصل وتخلي بينه وبين ابن المعتز، فإن أظهره الله عليه

فلن ينسى لك ذلك وستلقى منه التكرمة والإيثار، وسيقرك على الموصل

خالصة لك كما كانت لأبيك .

- وأموالي ؟

- تتسلمها في الموصل كاملة غير منقوصة وفوقها عطاء الخليفة .
- أطرق ابن حمدان مليا يدير الأمر في رأسه، إنه عاش حياته يحلم بأن يستعيد الموصل وهو رجل يعشق جمع الأموال، وكلام هارون صحيح في أنه لا يمكنه دخول القصر وحده ولا يمكنه استدعاء ابن الجراح، ولديه الآن عرض جيد، ولكن العقبة الوحيدة أنه يخشى ابن المعتز ... فقال لهارون :
- وابن المعتز .. ماذا أقول له ؟
- لقد أوشك أمره على الانتهاء، فلا تخش شيئا .
- كيف لي أن أطمئن لكلامك ؟
- لك عهد الخليفة بذلك في كتاب مختوم، وأنا أحلف لك .
- وما أدراني بأنكم ستغلبون ؟
- سنغلب، ولكن نريد منك خدمة أخيرة، ولك بها عشرون ألف دينار مقتدري تتسلمها فوراً .
- وما هي ؟
- أن ترسل الساعة إلى ابن المعتز من يخبره بأن المقتدر امتثل أمره وسار بأمره وجواريه إلى بيت ابن طاهر .
- وإن سأل عن مؤنس الخادم ؟
- قل له إنه هرب .
- وكيف أفسر خروجي إلى الموصل ؟

- صدقني لن تحتاج إلى تفسير فستقضي عليه بأسرع مما تظن، ومع ذلك فإن كنت قلقا يمكنك أن ترسل له بعد مسيرك بيومين على الأقل بأنك ذهبت بفرقتك لتقطع الطريق على بارس غلام إسماعيل بن أحمد وتمنعه من عبور النهر بعدما علمت أنه آت بأربعة آلاف تركي لنجدة المقتدر ..

- فكرة عظيمة .. فأسلمني الآن العشرين ألف دينار .

- أرسل الآن أولا بالخبر إلى ابن المعتز .. بينما سأرسل إلى الخليفة بطلب المال ..

جلسا سويا ينتظران على بساط مده لهما الغلمان، كان هارون ينتظر أن يرسل بالخبر أمامه، وكان ابن حمدان ينتظر أن تحمل إليه الأموال من القصر .

وفي تلك الأثناء قال ابن حمدان :

- من يقود جمعكم يا هارون ؟ أهو مؤنس الخادم حقا ؟

- أجل .

- وكيف تقبل ذلك وأنت ابن خال المقتدر ؟

- لأنه قائد حقيقي ورجل شريف ..

- أعلم قيادته .. فكيف بشرفه ؟

- يكفيه أنه كان قادرا على النجاة بنفسه أو الانحياز لصف ابن المعتز .. لكنه قرر الوفاء .. وذلك عندي هو الشرف

- حين تلقاه أبلغه مني السلام يا هارون .. هل تفعل ؟

- أجل .

بعد قليل عاد رسول ابن حمدان يخبره أنه أبلغ ابن المعتز بالرسالة، وعندها أرسل هارون مبعوثا ليأتي بأموال ابن حمدان .. و بعدها جاء بعض خدم القصر وجماعة من الفرسان ببغلة تحمل الأموال إلى ابن حمدان الذي تسلمها بلهفة وأخذ يتجهز للرحيل ..

قبل أن يتركه هارون ويعود إلى القصر، قال له : ارحل الآن إلى الوجهة التي اتفقنا عليها ولا تنظر ورائك، وسأرسل من يتبعك ليطمئن قلبي على أنك تستحق الأموال التي ستسلمها في الموصل واعلم أن أمرنا ماض، فإن أخلفت موعدتك فلا مال لك ولا أمان .
فقال ابن حمدان : لك مني ذلك، وأحلف لك عليه .

فقال هارون : لا حاجة لنا بالحلف، فإن عيوننا ورائك حتى الموصل .
انصرف هارون قافلا إلى القصر، بينما أعلن ابن حمدان في جنوده أنهم سيتحركون إلى الموصل فامتثلوا أمره وبدءوا في التحرك بالفعل وعين مؤنس ترقب حركتهم حتى خرجوا من بغداد .

كان العصر قد مضى عليه ساعة، إذ أقبل هارون وقد تهلل وجهه لنجاح مهمته، فأبلغ مؤنسا والخليفة واقف بجواره بما كان من انصراف ابن حمدان فقال مؤنس :

- ظفرنا ورب الكعبة .

فقال الخليفة :

- أنت المظفر وهذا القبك أيها الأمير مؤنس .

فابتسم مؤنس وقال:

- أشكرك يا أمير المؤمنين، بقيت الضربة الأخيرة حتى أستحق هذا اللقب .

- وما هي ؟

- سنغادر القصر الآن

أبدى هارون انزعاجه من ذلك القرار، وقال:

- ماذا تقول ؟ أنترك مكاننا الحصين ونكون عرضة لجيش ابن المعتز ؟

- لا تخش شيئاً .

- وكيف لا أخشى ؟ إنك امرؤ أصابك الغرور والخبيل، أغرك أن مدحك

الخليفة، وتريد أن تهلكنا بتهورك .

- قل لي أيها الأمير : إلى كم تقيم في القصر وأنت تظن أنك تستطيع أن تدفع

جيوش ابن المعتز وجحافل ابن الجراح التي ما تحركت بعد ؟

- حتى نموت ونحن ندافع عن مكاننا وقصرنا .

- وإني والله لا أريد لك أن تموت، بل أريد أن أوجه لأعدائنا قاصمة الظهر .

- وكيف ذلك ؟ .. أفصح، إلى أين سيكون مسيرنا ؟

- ادع أباك الآن وستعرف كل شيء .

ذهب هارون وعاد بأبيه غريب الخال، فقال : له مؤنس :

- هل أعددت ما طلبت منك ؟

- أجل .

- كم أعددت منها ؟

- مائة أو يزيد .
- حسنا مر كل الرجال والخدم بأن يتهيئوا للمعركة ومر الجواري والنساء بأن يلبسن ملابس الرجال فسيكن معنا .
- فقال هارون : إلى أين ؟
- فنظر مؤنس نظرة ظفر وقال :
- إلى بيت ابن وهب، سنهاجم ابن المعتز في عقر داره .

كان معتز مرعي قد خرج من المستشفى صبيحة الاثنين بعد أن قضى ليلتين غائبا عن الوعي على أثر سماعه للنبا من عمر، كان الخبر بالنسبة له كارثة حقيقية .. إنه يفقد معظم ماله تقريبا والأسوأ أنه قد يفقد ولده الوحيد أيضا، كان الماس حصيلة كل ما يملك من شركات ومصانع وعقارات وأموال في البنوك، لم يبق معه إلا مال احتفظ به لصفقة بيت مؤنس وهو يعول على ذلك كثيرا، أما ما يملكه من أسهم في الجامعة الخاصة والمستشفى الخاص فقد اشتراها شركاؤه بأبخس الأثمان ولم يبق له منها شيء .. لم يتحمل قلبه أن يتلقى ذلك النبا، فسقط مغشيا عليه يواجه ما يشبه الجلطة، فأدركوه في المستشفى وظل تحت العناية حتى استرد عافيته صبيحة الاثنين، لقد حال سقوطه دون استطاعته البحث عن الأبواب الخلفية التي يمكنه منها أن يخرج ولده من تلك المصيبة فصمم على الخروج رغم تحذيرات الأطباء ليرى ما سيفعل لإنقاذ ابنه بعد أن فقد الأمل في إنقاذ ماله .. فلا بد له أن يتصرف خاصة وأن اسمه ورد في محاضر التحقيقات .. لقد أفلت الأمر من يديه والتحقيقات الآن يستحيل أن يوقفها بأي شكل .

سافر إلى القاهرة بصحبة عدد من المستشارين القانونيين، وكان قد تواصل مع الدكتور عصام الذي صحبه برفقة محام شهير أيضا ليصلا إلى حل لتلك المشكلة .. نزلوا في أحد الفنادق ريثما يطلع المستشارون القانونيون على محاضر الضبط ومحاضر التحقيقات .

وفي مساء الثلاثاء، وبعد أن اطلع المحامون على سير التحقيقات ذهبوا بصحبة معتز مرعي إلى القسم لزيارة المحبوسين والاتفاق على أقوالهم في التحقيقات التالية .. بمعارفه ونفوذه استطاع معتز مرعي أن يدبر لقاء يجمعه بابنه ووعد وأمها والمحامين في مكتب المأمور ..

في مكتب المأمور التقى الدكتور عصام أخته وابنتها .. حين لقيهم احتضنهم وجعل يهدئ من روعهم ويث فيهم الأمل والطمأنينة وهم في بكاء متصل .. في نفس اللحظة التي ارتمى فيها عمر في حضن أبيه وهو يبكي أيضا ويقول :

- لقد أخفقت وأضعت الأموال .. ابنك الأحق أضاع ما بنيت طوال عمرك، إنني ...
قاطعه الأب قائلا :

- لا عليك يا ولدي المهم سلامتك .. ومال الدنيا لا يعوضك يا عمر .
بكى هو وابنه قليلا ثم كفكفا دموعها وتوجه معتز مرعي إلى مكتب المأمور وجلس على كرسيه ثم نظر إلى الأم وابنتها وقال :
- شدة وتزول، هونوا عليكم الأمر فلن نترككم .
قالت وعد بغضب :

- هذه مسئوليتكم .. فأنتم من أوقعتمونا في هذه المصيبة .
قال معتز وهو يبدي ضيقه :

- ليس ذلك هو الوقت المناسب لهذا الحديث يا ابنتي .

- وعد : ومتى يكون الوقت المناسب ؟ بعد أن نسجن بسببك أنت وابنك ؟
- معتر : أعني أننا لابد أن نتعامل مع الوضع الحالي بغض النظر عما كان
السبب .

- وعد : وكيف ستعاملون مع هذا الوضع ؟
- معتر : إن تعاوننا جميعا يا ابنتي فسوف نخرج بأقل الخسائر إن شاء الله .
- وعد : وإن لم تتعاون ؟
قال معتر بنبرة جادة :

- عدم التعاون سيكون وبالا عليك أنت وأمك، و سأدع المستشار واصف
التوني يشرح لك كل شيء .
- وعد : إني مصغية .
- المستشار : مبدئيا إخراج عمر معتر من هذه القضية سهل جدا وسيخرج
غدا في كل الأحوال .
قالت وعد متعجبة :

- وما حاجتكم إلينا إن كان خروجه مضمونا .
- المستشار : معتر بك يشعر بالمسؤولية تجاهكم ولا يريد لكم أن تتأذوا بسببه
.. وكي أكون صريحا معكم فإنه بدون تدخل الفريق القانوني لمعتر بك فلن
تحصلوا على أفضل النتائج .
- هلا أصرحت بعرضك .

- أنت وعمر تخرجان غدا من سراي النيابة .. ومدام شريفة سيجدد لها خمسة عشر يوما، ثم في المحكمة ستأخذ حكما مخففا لن يزيد عن ثلاث سنوات .

- سنسخر كل إمكانياتنا لإخراجها بمدة تقل عن ذلك، ويتكفل معتز بك أن يجعل فترة محكوميتها في مكان مريح ونوفر لها في محبسها كل وسائل الراحة.

- والمطلوب منا ؟

- تغيير أقوالكم .. عدم ذكر معتز مرعي أو عمر بك بأي شكل .. أنت تلتزمين بإنكار التهم وعدم معرفة شيء .. وشريفة هانم تعترف بأن الماس ملكها وأنها لم تكن تعرف أن خروج الأحجار الكريمة غير مصرح به قانونا .
بعد أن أتم حديثه سألت وعد :

- هل انتهيت ؟

- نعم .

- نحن نرفض ولن نسير بخطتكم .

أخذ المستشار يللملم أوراقه وهو يقول :

- ستعرضون على النيابة غدا؛ لذا فأمامكم فرصة حتى الصباح، سنترككم الآن تتشاورون مع محاميكم ومع خالك .. ولمصلحتكم نرجو أن تصلوا إلى القرار السليم ..واعلمي يا دكتورة وعد أن البديل هو خروج عمر وحده

وبقاؤك مع أمك في السجن لمدة تزيد على عشر سنوات .. ولن تنالوا بعنادكم إلا مضرة أنفسكم .. وحسب معتر بك مصيبته الكبرى بفقد أمواله .

- وفي أثناء ذلك رن هاتف معتر مرعي وسمعوا منه هذه العبارات .

- خيرا يا متر ، ماذا تقول ؟ ... ذلك الفلاح اللئيم مؤكداً أنه

يعرف عم سنبحت .. قل له إننا موافقون .. اكتب العقد الليلة على أن نتسلم البيت غدا .. لا لا ، أنا سأعود إلى الإسكندرية الآن .

- بعدها خرج معتر مرعي ومحاموه وبقي الحال والمحامي ..

- الدكتور عصام : ما رأيك يا رءوف بك ؟

- رءوف : ما قاله المستشار واصف كله حقيقة ، وعدم تنفيذكم للخطة التي

اقترحها ستؤدي بنا إلى النتيجة التي ذكرها .

- وعد : إن كان قادرا على إخراج عمر في كل الأحوال كما ذكروا فما حاجته

إلينا ؟

- رءوف : ما لم يذكره معتر بك أنه استطاع حتى الآن بفضل علاقاته أن

يتكتم على الأمر ولم تعرف به الصحافة والقنوات الإعلامية .. لذلك موقفه

حساس تجاه الموضوع .. فهو لا يود تسليط الضوء عليه في تلك الفترة .

- الدكتور عصام : إذن هو يحتاجنا ونحن نحتاجه .

- رءوف : للأسف الشديد ، نحن نحتاجه أكثر .

- الأم : فبم تنصح أيها المحامي ؟

- المحامي : أن نتبع خطتهم .. وسنحصل بالضبط على النتيجة التي ذكروها .. وسنستخدم نفوذهم في جعل مدة محكومية مدام شريفة في المستشفى نظرا لحالتها الصحية .. غير هذا تكونون قد حكمتكم على أنفسكم بسجن وعذاب ويضيع مستقبل الدكتوراة .

- الأم : أنا موافقة، وقد اعترفت أساسا في المحضر السابق، لن أترك ابنتي تتحمل مسؤولية خطئي فيضيع مستقبلها .

- وعد : ماذا تقولين يا أمي ؟

- الأم : يا حبيبتي ليس أمامنا خيار .. وإني لأعلم أن معتزا قادر على إخراج ابنه حتى لو كانت المضبوطات وجدت في حقيقته هو .. موقفنا لا يسمح بالمساومة يا ابنتي فاسمعي ما نقول لك .

وضعت وعد وجهها بين كفيها وانخرطت في بكاء شديد .. وانصرف الخال والمحامي وعادت الأم مع ابنتها إلى الحجز، فوجدا الحال قد تغيرت، تم تنظيف الحجز وجلب لهما ما يجلسان عليه وما ينامان عليه، ووجدا طعاما فاخرا وعصائر .. كأن معتز مرعي أراد أن يقول لهما أن من يطيعه يجد جزاء تلك الطاعة راحة ونعيما .. بدا لوعدها أنها ليس بيدها أن تفعل شيئا حيال موقفهما إلا أن تنصاع لما طلبوا .. ألقت جسدها على ذلك البساط الذي فرش لها ونامت نوما عميقا وكذلك فعلت الأم .

وفي الحادية عشرة من صباح الأربعاء عرضوا على النيابة مجددا، وكان معهم هذه المرة فريق ثقيل من المستشارين ومشاهير المحامين، وكثير من الاتصالات

على أعلى مستوى ودفعوا بتغيير الأقوال لكل من المتهمتين ثم جاء قرار النيابة في ضوء الأقوال الجديدة وفي ضوء أمور أخرى ..

كما خططوا تماما، أفرج عن عمر بضمآن محل إقامته ما لم يكن مطلوباً على ذمة قضايا أخرى فخرج مسرعاً لينهي إجراءات إخلاء سبيله ليذهب بعدها إلى الإسكندرية ليلحق بأبيه، واتخذ القرار نفسه بالنسبة لوعده، وتجديد حبس الأم، لحين استكمال ملف التحقيقات وإحالتها إلى المحكمة .

خرجت وعد من النيابة بصحبة خالها .. وقررا ألا يسافرا إلى الإسكندرية ليكونا بجوار الأم حيث يمكن لهما زيارتها في الحجز بشكل يومي بفضل الأموال التي أغدقها معتز مرعي .

كان خروج وعد من النيابة عصر الأربعاء ومضت مع خالها لتقيم في فندق قريب من قسم المطار الذي احتجزت فيه أمها حتى تتمكن من زيارتها . أخذت حماما ساخنا استعادت به جزءا من آدميتها ثم أوت إلى مضجعها في ذلك الفندق وراحت في سبات عميق .

استيقظت من نومها عند المغرب .. خرجت إلى شرفة الفندق تحتسي كوبا من الشاي الساخن الحنون وتستعيد لحظات مفرحة مع طيف مؤنس .. ترى ماذا يفعل الآن ؟ من المؤكد أنه اتصل بي في أيام الحجز .. ترى هل يعلم ما حل بنا ؟ كيف سيكون موقفه حين يأتيه النبأ ؟

انتبهت على صوت قرع الباب بعنف .. حثت الخنطى وفتحت .. ومن الباب اندفع خالها وهو يبكي بكاء شديدا .. في فزع تسأله :

- ما بك .. ماذا حدث ؟

- ماتت أمك يا وعد .. ماتت أمك .

صرخت الفتاة صرخة مدوية ثم سقطت على الأرض غائبة عن الوعي .

قال هارون لمؤنس :

- أبلغت بك الحماقة حتى تهاجمه في داره وبين رجاله، وكيف ستدخل

قصره؟

- بما أعده أبوك ؟

- وماذا أعد أبي ؟

- سأدخل القصر من جهة دجلة، فقد أعد أبوك لنا من الشذوات والطيارات والزبازب ما يحملنا .

- أنا لا أطمئن إلى هذا التصرف .

- ثق بي يا هارون لقد اطمأن ابن المعتز تماما إلى أن أمره قد تم، وساعدتنا رسالة ابن حمدان الأخيرة له، وهذه فرصتنا التي ينبغي أن ننتهزها .

- وكيف تعلم أنه لا حراسة على قصره الآن ؟

- لقد بثت العيون وعلمت أن غلمانهم الذين سيدافعون عنه يتمركزون أمام

دار ابن وهب، والدار من جهة دجلة مكشوفة تمام، بلا أية حماية، فإذا أظفرنا

الله برأس ابن المعتز في هذه الغارة انتهى كل شيء .

- لئن كنت محقا أيها الرجل لشهدت بأنك أمهر أهل الأرض في القيادة .

- الله معنا إن شاء الله، هيا إلى العمل .

- فقال هارون :

- ولكن، أين سيكون الخليفة وأمه ؟

- سيمضي بهم سوسن الحاجب وبعض الغلمان إلى دار ابن وهب فعلا، حتى إن أراد ابن المعتز التأكد من خبر ابن حمدان فسيجده صحيحا .

خرج سوسن الحاجب من فوره وهو يصحب الخليفة وأمه وبعض الغلمان إلى دار ابن طاهر .. في الطريق كانت الفرصة سانحة أمام سوسن لينفذ اتفاقه مع ابن المعتز ويقتل المقتدر، فكر أن يرسل تحذيرا لابن المعتز لكنه أثر التريث خوفا من أن يكشف أمره وفكر في قتل المقتدر لكنه خشي من الغلمان أن يفتكوا به، ولما أدار الأمر بينه وبين نفسه رأى أن ينتظر حتى يرى ما يكون من أمر غارة مؤنس فإن أفلح فهو في موضعه وإن كانت الأخرى ففرص قتل المقتدر ستكون أوفر في دار ابن طاهر .

خلال نصف ساعة كان كل من في القصر قد تجهز لتنفيذ خطة مؤنس، وقبل أن يتحرك الركب استدعى مؤنس أبا واصل ومحمد ابن الغنوي وقال لهما جاء وقتكما يا بطلي الشجاعين، سأؤكل لكل منكما مهمة خطيرة، إن أديتها كما أطلب فسيكون لكما نصف الفوز بإذن الله، فهل أنتما مستعدان ؟

قالا : نعم، مرنا بما تشاء .

فقال اسمعا إذن ...

وبعد أن شرح لهما ما يريد منهما خرجا من باب القصر في روية متجهين إلى وجهتين مختلفتين .. حيث سيقوم كل رجل منهما بدور مختلف .

شحن مؤنس الزوارق بالرجال في سلاحهم، وقبل التحرك أمرهم بأن يتسلحوا بالخنजर .. وجمع النساء وكانوا قد لبسوا ملابس الحرب التي

يرتديها الرجال ووضعهن في مجموعة من الزوارق، يريد بذلك تكثير العدد لبث الرعب في قلوب رجال ابن المعتز عند بدء المواجهة .. كان كل زورق به نحو أربعة رجال أو خمسة سار بهم في ماء دجلة إلى جهة دار عبد الله ابن وهب .. كان هو في أول الزوارق وجعل الزوارق الأولى تضم الأبطال أولي البأس من المماليك لأن العبء كله سيكون عليهم بينما جعل الزوارق التي تحمل النساء في الخلف .

مضى مصعدا في دجلة ببطء وروية .. كانت لحظات صعبة .. حالة من الخوف والترقب ملكت الجميع لقد خرجوا من القصر وهم لا يدرون أي مصير سيلقون .. أبحروا في صمت مطبق .. كان كل واحد من الرجال يقبض على سيفه أو رمحه في استعداد عصبي .. لكن لا حديث، كأنهم يخشون التحدث بهواجسهم أو ذكر مخاوفهم .. كان مؤنس أكثرهم قلقا وخوفا، ورغم أنه يعلم أن فرصته في تنفيذ مخططة فرصة حقيقية إلا إنه لا يضمن أن تسير الأمور كما يهوى .. طاف بخاطره في تلك اللحظة طائف من حبيبته ورد .. تذكر يوم الغابة والدرس الذي علمته آياه عن التوكل واللجوء إلى الله .. ولكن كيف يملك يقينا مثل يقين تلك العابدة الطاهرة التي لا تلوثها أحقاد السياسة وأمور الحكم وما يقع فيها من خيانات .

ومن غرائب الأمور أن ورد في تلك اللحظة كانت تذكره أيضا .. كانت الفتاة في منزلها بجوار خانق الصوفية، كان ذلك اليوم هو ثاني الأيام على زيارة عمار ابن مؤنس لها .. حين طرق الفتى باب منزلها .. لم تحب .. ناداها .. فلم

تجب .. أخبرها أنه ابن مؤنس الخادم ويريد أن يلقاها .. فرحت الفتاة حين سمعت الاسم لكن شيئاً لا تعرفه ولم ترد أن تعرفه منعها من الرد عليه .. فعاد الفتى بخيبة الأمل إلى خانق الصوفية كما أمر أبوه .

إنها تشعر الآن بانقباض وألم في صدرها وهي تقرأ في أورداد الشيخ طاهر .. كانت الأورداد هي كل ميراثها من الشيخ .. لا تركها من يدها ولا يمر وقت إلا وهي تقرأ فيها .. في تلك الساعة حينما كان مؤنس يبهر برجاله إلى معركة المصير ذكرت مؤنسا وشعرت أنه محوط بالخطر .. ألقت الأورداد وقامت .. أخذت تذرع الحجرة جيئةً وذهاباً دون أن تدري ما سبب قلقها .. كل الذي تعلمه أنه الآن في خطر شديد .. عادت إلى أوردادها تنشد أن تهدأ نفسها ويسكن خوف قلبها .. لكن ما تحقق لها الاطمئنان المنشود .. نزلت دموعها وهي تدعو : اللهم اكتب له النجاة .. اللهم انصره وسدد رميته .. اللهم أعده سالماً لولده .. واستمرت كذلك حتى أخذتها غفوة ..

بلغ الركب دار ابن وهب ... كان المراد أن يصلوا بُعيد الغروب فلا يتبين العدو أعدادهم ولا يتضح له كنههم على وجه التحقيق .. ويكون ابن المعتز في الصلاة مع أصحابه .

وصل في الوقت المحدد، فإذا بغلام من غلمان ابن المعتز يبصرهم، فنادى بأعلى صوته شذوات من دار المقتدر احذروا يا أهل الدار، نادى مرتين أو ثلاث قبل أن يقترب مؤنس برجاله، ويتمكن فارس من رجال مؤنس من أن يسدد إليه رمحا فيسقطه، ثم قفز الرجال بسيوفهم إلى المرسى الخلفي فبرز لهم

غللمان ابن المعتز الذين سمعوا صيحة الغلام فقاتلهم مؤنس ورجاله حتى قتلوهم ودخلوا الدار فقاتل دون ابن المعتز رجال من غلمانهم وكثر القتل من الجانبين .. ومؤنس مشغول بأن ينفذ إلى ابن المعتز ليقترله وينهي الأمر لكن حيل بينه وبين النفاذ إلى القاعة التي تجمع ابن المعتز ورجاله، واستمرت المعركة الطاحنة التي استبسل فيها الفريقان وأبديا الكثير من صنوف الشجاعة والبأس والصبر على القتال .. قاتل مؤنس بشراسة واستماتة .. تكسر في يده السيف غير مرة على دروع رجال ابن المعتز واستبدله من سيوف القتلى من الجانبين .. كان النفاذ إلى ابن المعتز يزداد صعوبة مع توافد جماعات من رجاله انتدبواهم من خارج القصر ليصدوا الهجوم .. لكن مؤنس رجل لا يستسلم .. أخذ يستحث جنوده ويشيرهم بكلماته ويتكفل بمواجهة الأبطال من جانب ابن المعتز .. ازداد المكان ضيقا وازدحاما مع اندفاع بهرة غلمان ابن المعتز إلى المعركة حتى أصبح التصاول بالسيوف عسيرا.. وعندها نادى مؤنس في رجاله : الخناجر الخناجر يا رجال المقتدر ..فانتبه رجاله إلى ذلك واستلوا خناجرهم وأعملوا الطعن في أعدائهم فبدءوا يتساقطون وتمتلئ الدار بجثثهم.

حين بدأت المعركة كان مع ابن المعتز كبار رجال الدولة وفيهم ابن الجراح وابن عمرويه والقاضي أحمد ابن يعقوب ووصيف بن صوارتكين يتشاورون في أمور الدولة .

فلما علا العجيج والتصاول ارتبك الجميع ولم يفهموا على وجه اليقين ما يحدث بالخارج .. وإذا بغلام لابن المعتز يأتيه ليخبره بخبر الهجوم ويعلمه بأن غلمانه الآن يخوضون معركة مع رجال حملتهم شذوات المقتدر فامتلاً الحاضرون رعباً .. وجال في رءوسهم أن رجال المقتدر ما كانوا ليهجموا تلك الهجمة إلا وهم مستعدون لها .. وربما تعاونهم في ذلك بعض فرق الجيش .. فاهتزت ثقة ابن المعتز وبدا عليه الخوف رغم محاولته لإظهار الثبات .. وفي هذه اللحظة جاء دور أبي واصل لينفذ دوره الذي أمره به مؤنس .

دخل مسرعاً وهو يرتدي زي الشرطة إلى حيث يجلسون، وقال بصوت يسمعه الجميع موجهاً الخطاب لابن عمرويه هزم ابن حمدان يا سيدي وأبيدت فرقته، وقد فر بهالة إلى الموصل ..

فقال ابن عمرويه : ماذا تقول يا رجل ؟ ممن هزم ؟
فقال أبو واصل : أقول إن فرقة من الجيش هاجمته وقتلت رجاله وإنه حمل ماله ونساءه وانطلق إلى الموصل .

كانت صوت التكبير قد علا، ولأنهم لم يعرفوا من المكبرون خارج القاعة الفسيحة فقد سارع كل رجال الدولة بالتسلل إلى الخارج وهم يرجفون خوفاً، بات كل منهم يفكر في مكان يهرب إليه وقد أيقنوا بأنهم مقتولون إن بقوا وأن المقتدر لن يرحم منهم أحداً .. خرجوا مسرعين واختار كل منهم رجلاً ممن يثق به ليتوارى عنده حتى يدبر أمر خروجه من بغداد .

أما ابن المعتز فقال لابن الجراح في قلق : ماذا نفعل الآن ؟

فقال له ابن الجراح : نخرج الآن إلى سامراء بالجيش .

فقال ابن المعتز : وهل سيتبعنا الجيش إلى سامراء ؟

قل ابن الجراح في ثقة : بالطبع سينصاعون لأمرى .. فهلم بنا قبل أن يدركنا هؤلاء .

كان أسبوعا طويلا عليه .. خمسة أيام مرت وذلك الثلاثاء هو سادسها و لم ير حبيبته ولم يحدثها بأية طريقة .. صحيح أنه انشغل بما يفوق طاقته واستيعابه، إلا أنه لم ينسها .. كانت قد احتلت أحلامه واستوطنت خياله في كل لحظة .. كان يفعل كل ما يفعل ليحقق ثراء يجعله ندا لذلك المتعجرف المغرور .. لعله عندها يستطيع أن يناها .

عاد ليفتح رسائل الفيس بوك فوجد رسالتها " أين أنت ؟ حين تستيقظ كلمني للضرورة " .. شعر بالفرح والنشوة .. أمسك بهاتفه كي يجري الاتصال، لكنه تردد لأن كبرياءه أشار عليه بأنها تعلم ما حدث له وينبغي لها أن تبادر هي بالاتصال .. استمر يفكر في مهافتها وبعد تردد كبير طلب الرقم .. فجاءته الإجابة بأن الهاتف مغلق .. حاول مرات والرد هو هو لم يتغير .

التقى مساء الثلاثاء أصحابه .. خرجوا إلى ميدان القائد إبراهيم الذي احتشد بالآلاف من الثوار، كان الجو يعبق برائحة المطر، والتجهيزات للمليونية القادمة تجري على قدم وساق يبدو أنها ستكون الأخيرة .. بعض الخيام وكثير من اللافتات وجماعات من الشبان يتناشدون أشعارا وجماعات من الشابات يتضاحكن وينشدن بعض الأغاني، وبائعون للكتب وفنانون وخطباء .. يبدو الأمر كما لو كانوا في معسكر أبي قير الترفيهي .. يفترض أن تكون الثورة غضبا، و قد يبدو عجيبا بعض الشيء أن تجد من يستمتعون بالغضب .

جلس الأصدقاء على البحر أمام مسجد القائد إبراهيم يتبادلون الحديث
والبحر يرسل إليهم بعض الرزاز المنعش .

علي : ترى هل سنرى للأمر نهاية ؟

هشام : لقد بات الأمر وشيكا .

عبد الله : ما عهدتك بهذا التفاؤل، فما الذي غيرك ؟

هشام : ليس تفاؤلا، ولكن قراءة المشهد يدلك على نتيجة واحدة هي أنه
سيرحل .

عبد الله : فاقراً لنا المشهد حتى نشاركك البهجة .

قال هشام وهو يعد على أصابعه : هرب زبانيته، وتخلّى عنه الداخل، وانقلب
عليه الخارج، وغير الإعلام من طريقة تناوله للأحداث .. فهل يعني ذلك إلا
أن أيامه أضحت معدودة ؟

علي : أتعلمون أنني سأحزن حين ينتهي الأمر ونعود إلى بيوتنا

هشام : ولماذا ؟

علي : أجد في اجتماعنا على أمر واحد متعة لم أحظ بها من قبل .. قصينا
أسبوعين في الخلاء نواجه الخطر .. حيننا بعضنا بعضا ومات بعضنا من أجل
رفقائه .. لم أشهد الإيثار والنبل الحقيقي كما شهدته بين إخوتي في الميادين .

هشام : أحقا إخوتك ؟

علي : لا أعلم الكثير عن معنى الإخوة إذ لا أخ لي .. ومعظم حياتي قضيتها
بلا أسرة كما تعلمون .. وفجأة حظيت بعائلة كبيرة جدا أحببت كل أفرادها ..

لکم ضحکنا وکم بکینا وکم غیننا وکم هتفنا ... إن الأسبوعین الماضیین ..
هما حیاتی، وفي داخلی نفس تتوق إلى ألا ینتهی الأمر .

عبد الله :يا أخي، فلنته من ثورتنا ثم اذهب للبحث عن أسرة أخرى في العراق أو فلسطين هههههههه

ضحكوا على عبارة عبد الله، وما هاهم بعد ذلك الضحك إلا أن وجدوا مؤنسا قد غلبته العرة ...

عبد الله : ما بك يا رجل ؟

مؤنس : لا شيء، ولكن على ذكر الأسرة تذكرت أبي .

هشام : رحمه الله، هو عند رب كريم، ووجب أن نعد أنفسنا لنالحق به .

مؤنس : ووجب أن يرتاح في قبره وأن أرتاح في تلك الدنيا، ولا راحة إلا بانتقام يشفى صدرى .

عبد الله : العقاب قادم حين ننجح في الثورة ويسقط الظلم الذي يحمله
ليحميهم .

وفي تلك اللحظة رن هاتف مؤنس .. كان المتصل هو أبو شوشة المحامي .

- أبشر يا ملك .

- ماذا ؟

- لقد وافقوا على السعر .. ويريدون إنهاء الأمر الليلة .

- ومتى تتسلمون البيت ؟

- نریده خدا ..

- ماذا؟ لا أستطيع أن أخلي البيت الليلة .
- هذا هو شرطه ..
- تمام، سأصرف .. ومتى نكتب العقد ؟
- الآن لو تكرمت تشرفني في المكتب .
- أخبره أنني سأسلم الأموال نقدا ولن أقبل بشيكات .
- هذا مستحيل .
- هذا شرطي وإلا فلا صفقة، وهذا لمصلحتك أيضا فستأخذ عمولتك نقدا.
- سأدبر الأمر ريثما تحضر إلى المكتب ..
- كان الأصدقاء يستمعون إلى مكالمة مؤنس في اهتمام وترقب، وبعد أن أغلق الخط مع المحامي .. التفت إليهم قائلا في فرح :
- حانت اللحظة المنتظرة يا شباب .. سأسلم الأموال الليلة .
- علي : هذا خطر، كيف ستحمل هذه الأموال يا دكتور ؟ وأين ستضعها ؟
- .. هل فكرت في ذلك ؟
- مؤنس : سأضعها عند أحدكم .
- علي : هذا خطر أيضا .. فرجال مثل هؤلاء ربما يخططون لسرقة المال بعد إعطائك إياه .. لذلك أرى أن الحذر واجب في تلك المسألة .
- وما الحل ؟
- ألدريك حسابا بنكيا باسمك ؟

- مؤنس : نعم، ولكن وهل سيكون ذلك متاحا الآن ؟
- علي : سيكون متاحا صباحا .
- مؤنس : لقد اتفقت معهم على التسليم الآن .
- علي : هاتفه ثانية وأخبره أن كتابة العقد ستكون مع تسليم المنزل غدا، على أن يؤكد لك البنك دخول الأموال في حسابك صباحا
- مؤنس : أنت على صواب يا علي، ولكن لن ينفع هذا الأمر في الهاتف، سأذهب إليه في المكتب .. هل تأتون معي ؟
- عبد الله : لا سنتنظر منك خيرا بالهاتف .
- أسرع مؤنس إلى مكتب أبي شوشة، فاستقبله بالأحضان، وقال له :
- أموالك جاهزة وستأتي خلال ساعة من الآن .
- لقد غيرت رأيي بخصوص التسليم النقدي .
- ماذا تقصد ؟
- دفع إليه ورقة عليها رقم حسابه البنكي .. وقال :
- ضع المال في ذلك الحساب، وعندما أتسلم رسالة البنك بدخول المال إلى حسابي أوقع العقد وتتسلمون المنزل .
- هذا يبدو عادلا .
- لي طلب آخر .
- ما هو ؟

- أبلغ معترز بك، أني مستعد لترك ٢٠ مليون جنيه مقابل أن يشركوني فيما يجدون في المنزل .

- أنصحك ألا تفعل، كما أن هذا سيقبل نسبتي .

- لا تقلق، ١٥ مليون هي حقك سواء أوافق على طلبي أم لا .

- لا أعلم كيف سأبلغه بتأجيل التوقيع .. فالرجل عائد إلى الإسكندرية الآن وقد ترك مصيبة ابنه في القاهرة وعاد لإتمام هذا الأمر .

- مصيبة ابنه ؟ ماذا حدث له ؟

- لقد قبض عليه في مطار القاهرة هو وخطيبته وأمها .

صاح مؤنس في وجه المحامي :

- ماذا ؟

تعجب المحامي .. من لهفة مؤنس في الحديث فقال :

- ماذا بك ؟ أتعرفه ؟

اضطرب مؤنس ورد بتوتر :

- طبعاً .. طبعاً .. فأنا أعمل في جامعتهم .. ونحن صديقان .. طمئنني بالله عليك .

- لقد كانوا يهربون الماس عبر المطار .. ولكن اطمئن فقد كانت المهربات في حقيبة خطيبته، وعلى الأرجح سيخرج عمر بك منها بسلام .. لكنهم خسروا في تلك الضربة كل ما لهم .. وهو يعول الآن على إنهاء صفقتك

ليعوض خسارته، حتى إنه لم يصطحبني معه لمتابعة أمر ابنه وأبقاني هنا لأجل إتمامها .

كان مؤنس في تلك اللحظة كالمطعون في قلبه .. إنه خبر مؤلم، بدل فرحته بالأموال والغنى غما وكربا .. لم يشك للحظة في براءة وعد .. كيف وقعت الفتاة في تلك المكيدة؟ ترى كيف هي الآن؟ وما سيكون مصيرها؟ يريد الآن أن يترك كل ما لديه ليقف بجانبها في تلك المحنة القاسية، ولكن الوقت شديد الحرج وهو مقبل على أحداث يعلم خطورتها وأهميتها .. أعاد إلى وجهه ابتسامة متكلفة، وقال :

- ربنا يستر، أشكرك يا متر ... ولكن معتر مرعي لديه عقارات ومصانع وشركات كثيرة فلن يفلس ..

- لا لا، صدقني لم يبق من أملاك معتر مرعي في مصر إلا فيلا كفر عبده ...
- أنت متأكد؟

- طبعا فقد أشرفت على بيع كل ممتلكاته وجلبت له كل الزبائن لهذه العقارات والشركات .. وقد جمع ما يقرب من ٥٠٠ مليون جنيه، غالب الأمر أنه اشترى بها ذلك الماس وحاول تهريبه .. أتدري أن ذلك البخيل لم يعطيني من كل هذه الأموال التي حازها إلا ٢٠٠ ألف جنيه ..

غاب مؤنس عن الحضور برهة فكر فيها في السبب الذي جعل وعد وأمها يسافران معه، وما الذي أوقعهما في ذلك الشر؟ .. لم يهده عقله إلى إجابة ..
فالتفت إلى المحامي وقال :

- حتى تعلم الفرق بيننا .
- أنتم فلاحون أهل كرم وأصل .. رحمة الله على أبيك وجدك
- أتعرفهما يا متر ؟
- لا، ولكني سمعت عنهما من معتز بك ..

-ق-

استمات رجال ابن المعتز في دفع مؤنس وفرقته .. في حين تمكن ابن المعتز من الخروج هو وابن الجراح وابن عمرويه وبعض غلمان ابن المعتز .. على الفور جلبت لهم الجياد وامتطوا صهواتها وساروا في اتجاه الفرقة التي أمر ابن الجراح بتحريكها من الجيش .. كانت هي الفرقة التي كان مؤنس مكلفا بقيادتها، وكانت قد أخرجت بأوامر ابن الجراح لتكون على أهبة الاستعداد إن بدت من المقتدر مقاومة .. وأمر بتمركزها دون دار ابن وهب في الطريق المؤدية إلى قصر المقتدر ..

فلما مر بها وبصحبه ابن المعتز رفع ابن الجراح سيفه وصاح بهم : ادعوا لأمر المؤمنين، فما أجابه أحد ... فرفع سيفه ثانية .. وصاح بهم : ادعوا لأمر المؤمنين، فما أجابه أحد .. فسكت، فقال ابن عمرويه لابن المعتز :

- انج بنفسك أيها الرجل فما عاد لدينا أمل، الهرب الهرب يا ابن المعتز ..

قال عبارته وهمز جواده وانطلق مبتعدا لا يلوي على شيء .. بينما وقف ابن الجراح ذاهلا لا يعرف ما يصنع .. لقد أيقن هو أيضا أنه لا جيش سيتبعه، وزاد يقينه حين رأى اثنين من قادة الفرق الأخرى مقيدتين بالسلاسل في قبضة فرقة مؤنس .. إذن فليس ثم نصير أو معين .. انقلبت الحال لصالح مؤنس الخادم وصار ابن الجراح وابن المعتز من المطاردين .. وصلت الحقيقة ذاتها إلى ابن المعتز ساعتها .. فقد بات واضحا أن الجيش قد اختار طاعة المقتدر .. فصرخ في ابن الجراح قائلا :

- أضعتني أيها الغبي بغرورك وسوء تصرفك .
- ما أضاعك إلا مؤنس الخادم وابن يعقوب الغبي الذي كشف الأمر لمؤنس فأفسد تدبيرنا يا أمير المؤمنين .
- أي أمير وأي مؤمنين ؟ خليفة ليوم واحد يا ابن الجراح ؟؟ ... الآن يقتلني الخادم إن ظفري .
- ليس ذلك وقت الندم، دبر أمرك فإني سوف أسرع بالهرب، وعليك أن تفعل كما قال ابن عمرويه ...
- همز جواده هو الآخر وانطلق إلى داره ليجمع أمواله وأولاده ثم يجد لنفسه مهربا، بينما أسرع ابن المعتز أيضا هاربا من ذلك المكان .. ولم يبادر أحد من جنود الفرقة بمطاردتها .. ربما كانت الخشية من هيبتهما .. وربما لأنهم لا يتحركون إلا بأوامر من مؤنس ..
- بعد أن اختفى ابن المعتز عن أنظار الناس خلع ما عليه من زينة ولباس قد يعرفه الناس به ... ثم أرسل أحد غلمانه إلى رجل من وجهاء بغداد اسمه ابن الجصاص يستجيره، فأجاره ابن الجصاص، فنزل بداره مستخفيا حتى يدبر أمر خروجه من بغداد هو أيضا .
- كان أبو واصل قد واصل - كما أمر مؤنس - حربه الدعائية التي كان لها أثر مدمر على معنويات الطرف الآخر، فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان ينشر خبر انتهاء الفتنة وهزيمة ابن المعتز وهروبه هو وابن الجراح وابن عمرويه وأن الخليفة المقتدر سيكافئ من يدل عليهم .

أما ابن الجراح وابن عمرويه فقد مضيا إلى دارهما فوجدا العامة ينتهبون الدارين ففر كل منهم إلى حيث يمكنه أن يتواري عن الأعين .

انتهى مؤنس من الفتك بعدد كبير من غلمان ابن المعتز وفر الباقون منهم من أمامه .. فلما انتهى إلى باب الدار وجد العامة يهللون ويهتفون باسم الخليفة المقتدر .. فسجد لله شكرا وأرسل البشير إلى الخليفة يعلمه بالظفر .

في تلك اللحظة كانت ورد قد أفاقت من غفوتها .. وجدت أن بها راحة وطمأنينة وهدوء نفس .. فأخذت تحمد الله على نصره وتدعو أن يتم الخير على مؤنس ..

مضى إلى دار الخلافة وقد أرسل مائة رجل ليجلبوا الخليفة إليها .. سار كالفاتحين مزهوا بنصره، يحمد الله على توفيقه حتى مر بفرقة التي كان يقودها، وأبصر ابن الغنوي في مقدمتها مع قادتها فتبادلا ابتسامة ذات مغزى .. ثم ترجل عن جواده ... فترجلوا جميعا .. وجعل يسلم عليهم ويحتضنهم واحدا واحدا ويشكرهم على استجابتهم حين استنجدهم .. وحين احتضن ابن الغنوي قال له : أحسنت يا رجل فقد انتصرنا بحسن أدائك للمهمة، فقال الرجل : لم أفعل شيئا يا سيدي بل عليك أنت أن تفرح بحب أولئك الجند لك، فلولا جبههم واحترامهم لك ما نجحنا ... هلل الجنود وكبروا .. رفعوه على أعناقهم ورفعوا السيوف لتحيته هتفوا مرات ومرات وهو يلقي كل تلك الحفاوة بعين دامعة، وبعدها انتقل إلى دار الخلافة حيث كان الجميع في انتظاره .

كان اللقاء في دار الخلافة مؤثرا حقا .. فما كاد يعبر الباب حتى ارتفع التهليل والتكبير وسارع الجنود والغلمان بحمله على الأكتاف والهتاف يرج جنبات الدار .. وهو يبكي فرحا .

قال له الحرمي وهو يحتضنه كأب : والله ما أخطأت فيك فراستي، فقد علمت منذ رأيتك أنك امرؤ صاحب نجدة وبأس وما خبرت أحدا من القادة مثلك يا مؤنس، فانعم الليلة بنصرك فسيكون ما فعلته الليلة حديث بغداد وديار الإسلام كلها .

فقال له مؤنس : إنك رجل كريم حكيم يا سيدي، وما توفيقي إلا بالله . عندها قدم المقتدر وأمه وخاله غريب وابنه هارون .. تتابعوا في مصافحته واحتضانه .. وأخذوا يربتون على كتفه تقديرا له ولأعماله العظيمة، ثم قال له المقتدر :

- كأن الله قد جعلك في هذه الدنيا لحمايتي، لولاك يا رجل لكنت نسيا منسيا، لن أنسى ما فعلت اليوم كما لم أنس ما فعلته من قبل يوم الغابة .. فقال مؤنس :

- حياتي فداؤك يا أمير المؤمنين، حفظك الله لنا ولديار الإسلام .

- كيف أكافئك يا مؤنس ؟

- مكافأتي هي سلامتك يا مولاي .

- لقد منحتك خمسين ألف دينار، وأقطعتك قطعة تختارها في مدينة السلام

... ولقبتك بالمظفر، وإني والله أستقل ما أعطيك

- أشكرك يا أمير المؤمنين أدام الله أيامك وحفظك من كل سوء .
- ولك فوق ذلك أن تختار أي منصب تحبه في دولتي، ولكني الآن قد وليتك
شرطة بغداد؛ لتكون مسئولا عن القبض على ابن المعتز وكل من بايعه، إيتني
بهم أحياء أو أمواتا، أو أنفذ فيهم حكمك بما ترى .
- سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين، فنحن لن نخطئ خطأهم ونترك الأمور
معلقة دون حسم .

- قبل أن تمضي .. ألك حاجة أخرى ؟
- غلمانك وخدمك يا أمير المؤمنين .. كانوا عدة النصر اليوم فهلا أظهرت
فيهم كرمك الهاشمي وأعطيتهم فوق ما وعدناهم .. ولا تنس يا مولاي من
قتل في سبيلك منهم ...
- كن أكيدا من أنني سأكافئهم جيدا .. انطلق أنت لتستريح فقد أجهدت
كثيرا .
- بإذنكم يا أمير المؤمنين .

غادر مؤنس القصر بينما استمر المقتدر وكان جوادا كريما في مكافأة رجاله
وتفريق الأموال فيهم، أعطى كل من ثبت وحامى عنه مالا كثيرا، وسأل عمن
قد ماتوا فأنفذ لذويهم أموالا كثيرة .

عاد مؤنس إلى منزله وسعاده طاغية بما أحرزه من نصر في مهمة مستحيلة،
كان سعيدا بنجاحاته من ابن المعتز الذي كان سيقتله لا محالة إن ظفر به .. ليس
أمامه الآن إلا أن يستريح بعد ما بذله من جهد في إنقاذ الخليفة في مهمة كانت

مستحيلة، لكن الله وفقه في كل أمر وخذل أعداءه في كل تدبير ..أذن له
الخليفة فسلم وغادر القصر إلى بيته ..

أوى إلى مضجعه في تلك الليلة ليأخذ حظه من النوم بعد ثلاثة أيام بلياليهن
لم يذق فيهن للنوم طعماً، وقبل أن يضع بدنه على السرير تذكر أن أمرا لم يحسم
بعد وأنه لن يستطيع النوم إن لم يؤد ما عليه .

لما ترك مؤنس المحامي اتصل بأصدقائه يخبرهم أن ينتظروه ففعلوا .. عاد إليهم بوجه غير الذي ذهب به .. ظهر أمامهم حزينا مهزوما بعد أن علم السبب في غياب وعد .. إنها الآن قيد الاحتجاز في تهمة غريبة أغلب الظن أنها بريئة منها .. فلما وجدوا في وجهه الكآبة والحزن راعهم ذلك .. ولما ألحوا عليه ذكر لهم السبب .. وذكر لهم تفاصيل ما حدث مع المحامي .

- عبد الله : وما حزنك على امرأة مهرّبة .. احمد الله أن نجاك منها .

- مؤنس : أمسك يا عبد الله عن ذكرها بسوء .. أنا أكيد من أنها ضحية ذلك الكلب ابن معتز .

- هشام : هون عليك يا صديقي، فلنته من موضوعنا ثم نرى .

- مؤنس : أجل .. وسأخبركم الساعة بالجزء الثاني من خطتي .

- علي : علام نويت ؟

- قبل أن أخبركم، أريد أن أسألك يا هشام عن شيء مهم .

- هشام : وما هو ؟

- مؤنس : صديقك ضابط الشرطة الذي حكيت لنا عنه ؟

- هشام : ماذا عنه ؟

- مؤنس : أهو شخص شريف كما وصفت ؟

- هشام : أشهد له بذلك، كما أنه يواصل عمله بتفان رغم أن كثير من رجال الشرطة من بعد جمعة الغضب غلبتهم اللامبالاة ويكادون لا يقومون بأي عمل، لكنه رجل يقوم بواجبه .

- ومن أين لك معرفته ؟

- إنه جار لي في العمورة .. وأؤكد لك أنه لو كان غير شريف لقطعت علاقتي معه على الفور .

- مؤنس : عظيم يا شباب، ينبغي الآن أن يجري هشام اتصالا بصديقه الضابط يطلب إليه أن ينتظرنا الآن .. وبعدها أريد أن نسافر جميعا إلى القرية الآن ففي الصباح سننهي المسألة معهم

- عبد الله : وما هي الحكمة في التنازل عن ٢٠ مليونا .

- أريد أن يحق لي مرافقتهم في كل خطوة حتى أحقق هدي .

- وما أدراك أن معتز مرعي سيرضى أن يشركك في أرباحه مقابل ٢٠ مليون فقط .

- لأنه طماع .. سيطمع في المال ثم يغدر بي ولا يعطيني شيئا كانتقام على مغالاتي في ثمن البيع .

- فلم تصر على ذلك إن كنت تعلم أنه سيغدر بك .

- قلت أريد أن أطلع على طريقة خروج الآثار من البلاد ومكان حفظها في مصر .

- وربما يشركك ويرفض أن يطلعك على شيء .

- سنرى ما يكون وستصرف في ضوء ما يقرر .
- عندها رن هاتف مؤنس كان الاتصال من الدكتور هادي البربري :
- ألو، مساء الخيرات يا دكتور ..
- مساء الخيرات يا دكتور مؤنس .. كيف أنت ؟
- أنا بخير ... ماذا فعلت مع عملائك ؟
- وافقوا على المبلغ الذي طلبته .
- للأسف الشديد، لقد اتفقت مع الطرف الثاني بمبلغ ٢٥٠ مليوناً ولست أظن أصحابك يدفعون هذا المبلغ .
- رد الدكتور هادي غاضباً :
- ولم لم تخبرني يا دكتور؟ .. لقد وعدتني بالرد علي قبل أن تحسم أمر الصفقة.
- لا تغضب مني يا صديقي .. فلك عندي تعويض جيد .
- تعويض ؟ وما هو ؟
- صفقة أخرى خير منها .
- أخبرني بها .
- ليس الآن انتظر مني اتصالاً يوم الخميس مساء .. مع السلامة .
- انطلق الأصحاب بعد تلك المكالمات ليقابلوا الضابط وائل حبشي صديق هشام، وبعد المقابلة سافروا إلى حوش عيسى؛ ليأخذوا أسرة مؤنس إلى الإسكندرية، ويخلوا المنزل للشاري .. قاد كل منهم بعض المسافة وتبادلوا أخذ قسط من الراحة .

في الطريق قال علي لمؤنس: ماذا تنوي أن تفعل بالذهب الذي أخذته من المقبرة؟

- هو حقي .

- كيف ذلك ؟ أأنت جاد فيما تقول ؟

- ما ذا تقصد يا علي ؟ هل تريد منه شيئاً ؟

- معاذ الله، ما صحبتك في تلك الأخطار وأنا حريص على مغنم، وإنما هي حقوق الصداقة والأخوة بيننا .

- وأنا أقدر لكم جميعاً ما فعلتموه معي، ولكني لم أفهم وجه عجبك بعد .

- إنني أفهم أن تبيع بيتك بذلك المبلغ الخرافي وأن تسعى في الانتقام والإيقاع بأولئك اللصوص .. لكن ليس من حقك أخذ كنوز أثرية يملكها الشعب كله .

- أتدري يا علي أن عدد المسلات الفرعونية في روما أو نيو يورك أو باريس يفوق عدد المسلات الموجودة في مصر ؟ ولاحظ أنني أتحدث عن مسلات عملاقة .

- سرقة الآخرين لثرائنا لا يبيح لنا أن نفعل مثلهم .

- هل تدري أن عمليات التهريب المنظمة تقوم بها منظمات دولية ويقف على رأسها أكبر قادة الدولة على مر العصور ؟

- ولو .. إنه تراث الأمة وليس من الوطنية أن ..

- الوطنية؟؟ أليست هي تلك الكلمة الأسطورية التي ترادف العنقاء ..
اسمع يا صديقي الطيب، علمتني الحياة أن الحملان لا تصدر زئيرا وأن
العقبان لا تسكن أبراج الحمام، وفي هذه الدنيا القبيحة إما أن تكون أسدا أو
تكون حملا، وهذه فرصتي ولن أضيعها .. فمن مارسوا إذلالنا والعبث
بكرامتنا ما امتلكوا القوة لذلك إلا بعد أن نهبوا تراث البلاد، ولا شيء أشد
وجعا من أن تذلل بالمال الذي هو مالك وتهان بالحق الذي هو حقك، وقد
قررت أن أغتنم فرصتي كي لا أذل بعد اليوم أمام أي أحد .. سأمتلك قوتي
حتى لا أقف صاغرا أمام أحد بعد اليوم .. أتفهمني يا علي ؟ أتفهمني؟

- وكيف تقبل ما لا حراما ؟

- اطمئن إنه حلال ..

- نتخدع أنفسك

- كنوز الأرض حلال لمن يجدها وعليها زكاة الركاز وسأخرجها .. أليس

كذلك يا شيخ عبد الله ؟ ألا توافقني يا هشام ؟

هز عبد الله وهشام رأسيهما مقتنعين بصواب موقفه .. بينما سكت علي وهو
غير مصدق أن كلامهم صحيح .

حين وصلوا استقبلتهم الأسرة بعشاء دسم كانوا قد أعدوه عندما اتصل
بهم مؤنس يخبرهم بأنهم في الطريق .. احتضن جدته وقال لها :

- اقرب وقت الثأر يا أمي .

فقالت بصوت ملؤه الإشفاق .

- أخاف عليك منهم يا مؤنس .
- لا تخشي شيئاً فقد أعددت كل شيء .. ادعي فقط ربك كي يوفقنا ويخذل أعداءنا .

- أدعوه ليل نهار أن يكون معك يا ولدي، فماذا سنفعل الآن ؟
- سننتقلون إلى الإسكندرية في الصباح .
- وسنترك البيت لهم ؟ بيتنا يا مؤنس ؟
- أتثقين بي ؟
- بالطبع يا ولدي .
- أعدك أن أعيدك إليه عروسا كما دخلته مع جدي وفقى .. ولكن دون جمل ومحني ..

ضحكت الجدة، وقالت :
- حفظك الله يا ولدي ..
- ولكن ..
- ولكن ماذا ؟
- هل سننتقل متاعنا ؟
- سنترك كل شيء على حاله
- لماذا يا ولدي ؟
- لا أريد أن يشعر أحد من العائلة بأنني أبيع المنزل
- لكن قل لنا إلى أين سننتقل وكيف ؟

- دعي كيف الآن .. وتذكري ألا تغفلي أنت وأمي عن دعائك لنا .. فإني في أمس الحاجة لدعائكما .

في صباح الأربعاء كان البيت قد خلا من سكانه الذين خرجوا إلى الإسكندرية في سيارة استأجرها مؤنس وصحبهم في تلك السفرة علي ليذهب بهم إلى شقة باكوس، وعاد عبد الله بسيارته وبقي مؤنس وهشام فقط في انتظار المحامي ومعتز مرعي .

حين وصل الجمع إلى الشقة قادهم علي في حفاوة وترحيب وأجلسهم على مقاعد ذلك الصالون ودخل حجرته، ثم أخذ يضع بعض الملابس في حقيبة صغيرة ليغادر الشقة؛ فليس من المناسب أن يقيم في شقة صغيرة مع أختي مؤنس وهو عنهم أجنبي غريب .. استوقفته الجدة لحظة خروجه وسألته :

- إلى أين يا ولدي؟

- إلى حيث أنتمي .. إلى مسجد القائل إبراهيم؟

- ترك بيتك لتنام في مسجد؟

- ابتسم الفتى في حياء وقال لها :

- لن أنام في المسجد يا أمي ولكني سأكون في الميدان .

- تببت في الميدان؟ لم يا ولدي؟ ابق معنا ولا بأس فأنت مثل همام .

- طبعاً يا أمي أنا هنا بين أخوتي لكنني لا أذهب إلى الميدان لأنام بل لأشارك

الشباب في الثورة

- لم يا بني ؟ وماذا ستستفيد مما تفعله سوى تعريض نفسك لخطر الموت أو السجن؟

- إنني لا أفعل ذلك لأستفيد، ولكن لتستفيد مصر، لينال أبنائها الغذاء والكساء والدواء بكرامة، ليها بها أعداؤها ويحترمها العالم، كي لا يظلم بريء ولا يهان ضعيف ولا يسحق صاحب رأي .. ليجد الشعب الذي يحميها ويبنيها ما يستحقه من العدل والحرية ..

- ولكن يا ولدي هناك أخطار . وأعداؤكم يملكون من القوة ما لا تملكون .
- نعلم أن الخطر حولنا وأن الموت أقرب إلينا من أنفاسنا في كل وقت نمضيه في الميادين، ولكن لو استسلمنا للخوف وآثر كل امرئ السلامة وفضل نفسه فلن نحقق شيئاً .. إنني أومن بما أفعله .. واعلموا أن ابنكم مؤنس الآن يخوض مواجهة تشبه ما أنا بصده .. معركة ضد وجه من وجوه ذلك النظام الذي يحاربه الثائرون معي ..فهو جزء من ثورتنا على القهر والظلم ... ونحن لا نطلب منكم اليوم إلا دعواتكم الصادقة .. أوصل إليك مرادي يا أماه ؟

- وصل يا بني مرادك .. الله معكم .. منصورون بإذن الله يا ولدي .. منصورون .

- أستودعكم الله .

أخذ خطوات ثلاث وصل بهن إلى باب الشقة .. فسمعها من خلفه تناديه :

- انتظر يا ولدي .

- ماذا ؟

- فليصحبك همام .. وأريده أن يعي ما كنت تقوله الساعة .. في أمان الله يا

بني

ابتسم علي في سعادة .. وقفز همام من مقعده في سعادة ممائلة ليخطو في اتجاه باب الشقة بينما وضعت عالية يدها على صدرها ولم تنطق بكلمة .. وبعدها انطلق الشابان ليحبوا ميادين الثورة ويلتحما مع الثوار .

عند الظهيرة وصلوا بسياراتهم فاستقبلهم مؤنس بحفاوة شديدة وجلسوا في المربعة في انتظار أن تأتي رسالة البنك بدخول المبلغ إلى حسابه .. كان معهم مجموعة من الرجال الأشداء في بذلات فخمة، فأوجس منهم خيفة مؤنس وشعر بالخطر، كما أنهم اصطحبوا معهم بعض الرجال يبدون في هيئة الفعلة ومعهم الفتوس وعدة الحفر .. بدا أن معتر مرعي شديد العجلة لإنهاء الأمر اليوم وهذا ما مكن مؤنس من أن يضع كل الشروط التي يريدتها .. بدأ المحامي في إخراج الأوراق وكتابة عقد البيت .. وفي أثناء ذلك جاءت الرسالة من البنك تؤكد دخول ٢٥٠ مليون جنيه في حساب مؤنس، فلما قرأ مؤنس الرسالة تعجب، وقال :

- أفهم من ذلك أن عرض مشاركتي لكم مرفوض .

- فقال معتر مرعي : نعم، فلن يشارك أحد في شيء، فقال مؤنس :

- إذن عودوا من حيث أتيتم، فلا بيع ولا شراء .

- ماذا تقصد ؟

- أعني ما قلت، أشارك بنسبة معقولة أو لا صفقة .

كان مؤنس يستغل فرصته جيدا فهو يعلم حاجة معتز مرعي لتلك الصفقة وأنه سيوافق صاغرا على ذلك ولكنه لن ينفذ ما اتفقا عليه ويعطيه شيئا .. كانت خطة مؤنس تقتضي أن يظل في نظرهم شريكا إلى أن يطلعوه على مكان تخزين الموجودات ثم يضرب ضربته الانتقامية بمشاركة الضابط .. لم يجد معتز مرعي أمامه سوى الموافقة على ذلك العرض، فقال بمكر :

- إكراما لجذك وأبيك سوف أشركك في الأرباح بنسبة عشرة بالمائة، ولا

نريد منك شيئا .. أرضيت ؟

- أجل، ولكنني أطمع في كرمك يا معتز بك في شيء آخر .

- وما هو ؟

- أريدك أن تبيعني البيت بعد إتمام ما تريدون .

التفت معتز إلى المحامي وقال له : اكتب له عقدا بالبيت بتاريخ الغد واكتب عقد الشراء بتاريخ اليوم ..

ثم قال لمؤنس : ألدك طلبات أخرى يا دكتور مؤنس .

- لا .

- فها وقع العقد .

كتب العقدان ووقع الطرفان عليهما، أخذ مؤنس عقد المنزل وأعطاه لهشام ليحمله معه .

وبعدها بدأ الرجال في العمل، فتحوا الحجرة وبدأ الحفر، وبعد ساعتين من العمل وصلوا إلى مدخل المقبرة .. لم يتعجب مؤنس من وصولهم السريع إلى الباب نظرا لكثرتهم وقوة بنيانهم .. كانوا يبدوون كمحترفين في هذا العمل .. عندما رفعوا الحجر الذي يؤدي إلى بابي المقبرة .. قال معتز مرعي لمؤنس :

- أنت شريك معنا، فهل تريد الدخول ؟

- ألا يكفيك ما حدث لأبي .. لقد عرفت كل شيء يا معتز بك .

- نظر معتز إلى الأرض ثم قال :

- كان أمرا محزنا للجميع .

- فعلا، قالوا لي إنك كنت شديد الحزن على أبي .

التفت معتز إلى رجلين من رجاله وقال لهما : انزلا وادخلا من الباب الأيسر .

بعد زمن يسير كان الجميع في المقبرة .. حملوا كل ما فيها بحذر شديد إلى أعلى استخدموا صناديق خاصة لحمل الموميאות، ثم قدمت سيارة سوداء مغلقة دخلت فناء المنزل وحملت فيها بحرص شديد .. وسيارة أخرى حمل فيها عشرات من الأواني والأدوات الحربية التي كانت في المقبرة ثم حمل صندوق الذهب إلى سيارة معتز مرعي ومعه البرديات .

انتهى الرجال من عملهم وركب معتز سيارته في سعادة، حيث يقدر أن يبيع تلك الموميאות الملكية فقط بأضعاف ما دفع ثمنها للبيت، وفوق ذلك ما وجده من برديات لا تقدر بثمن وذهب أثري يعوضه عما أضاعه ابنه .

ولما هم مؤنس بالركوب معه قال له : إلى أين ؟

قال مؤنس : أأست شريكا ؟ أأب أن أكون معك ..

نادى معتز على رجل أأمر الوجه وله شارب أصفر يكاد أغطى فمه أأأى
أسان وقال له .. أركبوه معكم .

فقال مؤنس : بل أأأ أن أكون معك .

رد معتز : بل ستركب معهم ..

فقال مؤنس : ولم ذلك ؟

أأابه معتز بأأة لأنك كأذب أأأر، أأظن أنك أأأأني أأها الفلاح اللأأم
؟ لأرأنا العذاب أأى أأأرنا بأكان بأأة المأأرة .. أأأأأنا ساذأا ولا أأرف
أنك فأأأ المأأرة .. أسان .. أها .

أأأها أأاط رجال معتز بمؤنس وهشام ... أأول مؤنس المأأومة لكنهم
كانوا أقوى عأأا وأصأ بأنا وقوة .. تكأأأوا أأأها وأأأروا أأالا وأرأأوا
أأأأأها ..

أنأأرت فى لأأة كل مأأطأ مؤنس، فلم أأن أأ أأر أن أأأأف معتز
أنهم أأ أأروا .. لأأ أأأأأوا فى إأأاء معأم أأرهم للمأأرة .. ولكن ذلك
ما كان لأأأأى على مأمرس أأأر صنع ثروأه من أأارة الأأار مأل معتز مرعى .
أأأابه الأأس من النأة من أولئك المأأأأ وأأله الظن أن أأأه سأنأأأ
فى تلك اللأأة على أأأهم .. وفأأة .. سمع صوت طلقأ نارأة أأرأ
المنزل وصأأأ أأأأ .. فأنأرف أأه رجال معتز مرعى إلى بأب المنزل
بسلاأهم لأأأة سأأهم .

وتركوا مؤنسا وهشاما فاغتنما الفرصة وأسرعوا إلى داخل البيت يحتمون من طلقات الرصاص .. وهما في رعب .

أسرع رجال معتز بإخراج السيارات التي تحمل الآثار وإخراج معتز وهم يتبادلون إطلاق الرصاص مع مجهولين لا يعرفهم مؤنس، وبعد فترة من تبادل إطلاق النار كان معتز ورجاله قد انسحبوا من المنزل وطاروا إلى الطريق في سياراتهم .

خرج مؤنس وهشام من مخبئهم ولما يعلموا من الطرف الذي أنقذهم فوجدوا أمام المنزل رجال من العبايدة قد حملوا الأسلحة ويقودهم صبري العبايدي .

كان صبري قد علم من الدكتور هادي البربري أن مؤنسا باع المنزل، فلما أخبره بذلك ثار وغضب وجمع أبناء عمه فشحنهم ضد مؤنس وأثار حفيظتهم عليه .. وما زال بهم حتى أجابوه إلى حمل السلاح، لينالوا حظا من الغنيمة بسلاحهم ..

كان تصرف صبري من حظ مؤنس وهشام حيث نجوا من خطر محقق، فعجب أن كانت نجاتهما بيد من أراد به الهلاك .

لما تواجه مؤنس مع صبري صاح به صبري :

- بعث المنزل وبعثنا أيها الخائن .

فأجابه مؤنس بتحد .

- هو منزلي أفعل فيه ما أشاء .

عندها تقدم صبري من مؤنس يريد أن يضربه فأسرع من معه من أبناء
العبادة بالفصل بينهما، وظلوا به حتى هدأ، وعندها توجه إليه مؤنس، وقال
له :

- كم كنت ستأخذ من الدكتور هادي البربري يا صبري ؟
 - فنظر الجميع إلى صبري مندهشين .. وقال صبري في عجب :
 - وكيف عرفت بالدكتور هادي ؟
 - أعرف كل شيء عن اتفاقك معه، ولكن ليس ذلك مهمها، فأجب أمام
العبادة، ولا تكذب فإنني أعرف كل شيء .
 - كان سيعطيني مليون جنيه .
 - أيها الساذج الفاشل .. ستظل صغيرا حتى حينما تحلم .
 - دعوني أمزقه .. لن تفلت من يدي أيها الخائن .
- فقال مؤنس بتحد :

- هل كنت ستعطينا منها شيئا ؟ وهل أخبركم يا أبناء عمي بذلك الأمر ؟
- سكت صبري ولم يجب .. فاستأنف مؤنس .
- لم تخبرهم لأنك ما كنت لتعطي أحدا شيئا، ولكني سأكون أكرم منك،
لقد بعت منزلي الذي هو نصيبي من ميراث جدي بشرع الله وكلكم كنتم على
ذلك موافقين .. فليس لكم عندي شيء . ولكني لن أنسى أهلي وسأعطيكم
من ثمن البيت ما يرضيكم جميعا . انصرفوا إلى بيوتكم وانتظروني بعد أسبوع .

كان عمار في خانق الصوفية يتنسم الأخبار .. يخرج ويدخل في قلق واضح .. وأهل الخانق يعجبون لذلك الفتى الذي لا يهدأ منذ وصل إليهم .. حين بلغته أنباء نجاح ابن المعتز في الليلة السابقة اغتم وجلس ساكنا في خوف على أبيه وما سيحدث له .. انقطعت الأخبار منذ ذلك الحين .. إنها أوقات عصيبة .. لم ينم الفتى وظل طوال ليله يقرأ القرآن والأوراد ويدعو لأبيه بالنجاة .

قفز مؤنس من سريره وأسرع إلى خانق الصوفية .. من داخل الخانق سمع الفتى والعبد ذلك الصوت الجهوري المحبب ينادي : يا عمار .. يا سالم ؛ فصاحا في لهفة وفرح : أبي .. سيدي، واندفعا إلى الخارج .. وبعد لحظة كان عمار وسالم في أحضان مؤنس والدموع تتساقط من المآقي وأهل الخانق يعجبون لذلك المشهد .. سألاه في لهفة عما حدث، فقال سأحكي لكم كل شيء في الصباح، ولكن أخبراني: هل وجدتما ورد ؟

قال سالم : نعم وجدناها .. إن بيتها بجوار الخانق

فقال : وكيف هي ؟

فقال عمار : إنها منقطعة لله يا أبي، ولا تريد أن تلقى أحدا .

فقال مؤنس : هل أخبرتها أنك ابني ؟

فقال عمار : نعم أخبرتها ..

قال مؤنس : فماذا فعلت ؟

عمار : لم تفتح لنا بيتها .

مؤنس : ولم تقل شيئا ؟

عمار : لا .

قال مؤنس في حزن : فهيا بنا الآن إلى البيت، والله يفعل الخير إن شاء الله .

طلع الصباح على دولة جديدة للمقتدر؛ فقد قيض الله له رجالا مثل مؤنس يحمونه ويثبتونه، وكانت الخلافة قاب قوسين أو أدنى من ابن المعتز الذي بويع خليفة ليوم واحد .

في ذلك الصباح أرسل الخليفة إلى ابن الفرات وكان مستخفيا عند بعض جيرانه فكتبوا أمره، فلما حلف لهم رجال الخليفة بأنه يريد أن يستوزره أظهره وحمل إلى الخليفة فقلده الوزارة .

لما انبلج الصباح على مؤنس قام يدبر أمر الشرطة في بغداد، فجمع قادة الشرطة وأمرهم بأن مهمتهم الأولى هي العثور على مبايعي ابن المعتز وعلى ابن المعتز نفسه .. وأمرهم بإعلان مكافأة لمن يدل على أي منهم، فجاء العامة بعلي بن عيسى وابن عبدون يجرونها جرا إلى مؤنس فحملها إلى الخليفة وعنده ابن الفرات، وانتظر أمر الخليفة فيها .. فإذا بهما يستعطفان الخليفة ويحلفان له أنها أكرها على طاعة ابن المعتز، وإذا بابن الفرات يشفع لهما حتى يستبقيهما الخليفة، ففعل الخليفة، ومؤنس حينها يكاد يتميز من الغضب غير راض عن ذلك التهاون في أمرهما .

انطلق رجال الشرطة يفتشون البيوت بحثا عن البقية .. وأطلقوا بين الناس أمر الجائزة؛ فكان أول من وقع في يد مؤنس هو ابن الجراح فقتله مؤنس خيفة

أن يطلقه الخليفة كما أطلق غيره، ثم تبعه أحمد بن كيغلغ فقتله مؤنس بيده أيضا .

أما ابن عمرويه فظهر بعد يوم وقد جمع بعض أصحابه ونادوا بشعار المقتدر يريد بذلك أن يدلس على الناس، فقالت العامة له يا مرائي يا كذاب ثم هجموا عليه فهرب منهم وتفرق عنه أصحابه، ثم دبر لنفسه هروبا إلى بعض الاعراب ببادية الشام، فلما بلغ خبر هروبه إلى مؤنس حزن لذلك كثيرا فقد كان يمني النفس بالظفر به حتى يمكن خادمه حسان من الانتصاف لنفسه مما فعله به ابن عمرويه .

وبعدها أرسل الخليفة مؤنسا الخازن في طلب وصيف بن صوار تكين الذي جاءت الأنباء بهربه إلى سامراء، فظفر به وقتله، ثم قبض على القاضي أحمد بن يعقوب وسجن فقال له رجال المقتدر وهو في محبسه : ما فعل جعفر المقتدر حتى تباع غيره، فقال : لا أباع صبيا، فقتلوه أيضا .

ظل ابن المعتز في دار ابن الجصاص يموت كل اليوم ألف مرة ولا يشعر بلذة طعام أو شراب رغم أنه يلقي معاملة كريمة .. عاش أياما سوداء ضيقا بكل شيء .. يخشى خيانة الخدم والعبيد في دار مضيفه .. وكلما نقل أحد الخدم خبرا بمقتل أحد من مشاييعه يشعر باقتراب دوره

وفي أثناء انشغال مؤنس بتعقب مبايعي ابن المعتز إذا بخادم من دار ابن الجصاص يأتي مؤنسا ويخبره بأنه يعرف أين يختبئ ابن المعتز، لكنه يريد

المكافأة، فوعده مؤنس بمكافأة كبيرة، فأخبره الخادم بأنه في دار ابن الجصاص.

فمضى مؤنس برجاله فكبس الدار وقبض على ابن المعتز وابن الجصاص وألقى بهما في السجن.

ليلا دخل على ابن الجصاص في محبسه، وسأله :

- لم أجرت ابن المعتز ؟

- ملهوف يطلب جوارا .. فما عساي أفعل ؟

- أله عليك يد من قبل ؟

- كلا .

- هل بايعته ؟

- كلا .

- هل كنت ستبايعه ؟

- لا اعلم .. ربما كنت سأفعل .

- انطلق أيها الرجل إلى دارك .. فإنك لو أجبتني بأي جواب غير ما قلت

لكنت قتلتك ..

ثم دخل على ابن المعتز في محبسه فلما رآه مكبلا في أغلاله قال له في تشف :

- من الصقر الآن ومن الذبابة يا ابن المعتز ؟

- تطاولت واستعليت أيها الخادم .

- سأذكرك بقولك :

- لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى
- نظر إليه ابن المعتز في أسى وذلة ثم سأله في سخرية :
- أوقد صرت جبلا ؟
- ها أنا كما ترى .. طليق أدبر أمر الخلافة وأنت في أغلالك صاغرا .
- فصاح ابن المعتز :
- أتشمت بي أيها الخادم ؟
- كلا، ولكن كم أملت منذ أبعدتني عن بغداد أن أرى فيك يوما، فأجب أيها الغادر .
- وبم أجيئك ؟ أنتتظر مني أن أتوسل إليك كي تعفو عني كما جئتني تفعل ؟
- لا حاجة لي بتوسلك، ولكن اصدقني فيما سأسألك عنه ..
- هات .
- إن سلمت نفسي لك .. هل كنت قاتلي ؟
- رفع ابن المعتز رأسه ثم قال في تحد :
- أجل .
- لماذا ؟
- مثلك لا ينبغي أن يعيش
- ما زلت لا أفهم، لماذا ؟

- لا يحتمل العالم وجودي ووجودك معا .. أحدنا ينبغي أن يختفي ليعيش الآخر .

- فسل مؤنس سيفه ثم قال : اسمع الآن قولك :

وَأَنْ فُرْصَةٌ أَمْكَنَتْ فِي الْعَدُوِّ	وَفَلَا تُبَدِّ فِعْلَكَ إِلَّا بِهَا
وَأِنْ لَمْ تَلِجْ بِأَبِهَا مُسْرِعًا	أَتَاكَ عَدُوُّكَ مِنْ بَابِهَا
وَأَيَّاكَ مِنْ نَدَمٍ بَعْدَهَا	وَتَأْمِيلٍ أُخْرَى وَأَنْتَ بِهَا

وعندها انتهى من إنشاده، ضربه بالسيف فأطار رقبتة، ثم أرسل من يخبر الخليفة ..

ترحم بعدها على الشيخ طاهر بن أبي زرعه، وجعل يسأل نفسه في قلق : من الخليفة الثاني الذي سيقتله .. لقد قالت له من يكشف لها ذات يوم أنه يقتل خليفتي فلم يصدق قولها، وها هو قد قتل خليفة بايعه الناس وجلس على سرير الملك، وإن كان ذلك قد حدث مرة فمن الممكن أن يحدث ثانية .. هل يكون المقتدر ؟ أم يكون غيره يخرج عليه ؟ .. شغلته كثيرا كلمات ورد التي بات الآن أكثر تصديقا لها .

خرج مؤنس وهشام مسرعين يبحثان عن سيارة تقلهما إلى الإسكندرية .. وفي أثناء توجههما إلى موقف السيارات لحق بهما جابر ابن عمه الشيخ محمود وخطيب أخته شيما بسيارة نصف نقل .. استوقفهما جابر ليسأل عما حدث منذ قليل في المنزل ويطمئن على عائلة مؤنس، فأخبره مؤنس ملخصا لما جرى ثم أخبره بأن أسرته قد سافرت إلى الإسكندرية، فعرض جابر عليهما أن يوصلهما .. فشكراه وركبا السيارة متجهين إلى الحوش .. ولما كان الوقت ليس في صالحهم فقد طلب مؤنس من جابر أن يكمل بهما إلى الإسكندرية .. فقبل راضيا .

بمجرد خروجهم من القرية أدرك مؤنس أن الوقت حان لتنفيذ الجزء الأخير من خطته الانتقامية، فقد كان مقصده من الاطلاع على مكان تخزين الموجودات أن يبلغ عن معتز مرعي ضابط الشرطة الذي التقوه بالأمس ليدهام وكرهم ويلقي القبض عليهم متلبسين؛ فيتم بذلك انتقامه من معتز مرعي .. الآن بات ذلك مستحيلا لأنه لا يعلم أين سيكون ذلك المكان ولا يضمن أن يخفوا تلك الأشياء في فيلا معتز في منطقة كفر عبده الراقية كما يخمن، لكنه كانت لديه خطة بديلة أخذ في تنفيذها فورا، وكان قد اتفق على خطواته التالية مع النقيب وائل حبشي صديق هشام الذي يقود دورية شرطة النجدة .

أجرى مؤنس اتصالا بعبد الله يخبره فيه أن يكون في موقعه المتفق عليه .. و اتصالا آخر بالنقيب وائل، .. أبلغه بتحرك السيارات الثلاث محملة بالمومياوات الفرعونية والكنوز الأثرية على الطريق الزراعي .

تحرك الضابط الشاب بسرعة وحماس .. أسفل كوبري أبيس عند مدخل الإسكندرية نصب الكمين من الشرطة لسيارات معتز مرعي ..

كان مؤنس يشعر بالقلق من الفشل في تلك اللحظة .. جال بخاطره أنهم قد يخرجون عن الطريق الزراعي ويخفون الكنوز في أي مكان .. ارتاع لذلك الحاطر واخذ يدعو بحدوث معجزة ما ليلتزموا بالطريق الزراعي .

سارت السيارات على الطريق متجهة إلى الإسكندرية وسيارة معتز مرعي تتقدمهم حيناً وتتأخر عنهم حيناً .. وعند مدخل الإسكندرية تحت كوبري أبيس فوجئ معتز بالطريق مغلقة .. التزم الهدوء وجلس في كرسيه رابط الجأش .. قدر أن الأمر مجرد لجنة مرور ستسأل عن رخصة القيادة وكفى .. لكنه فوجئ بهم يطلبون منهم التراجع من السيارات ثم يبدؤون في التفتيش .. زعر رجاله وبدت عليهم معالم الخوف .. فطمأنهم معتز وهدأ من روعهم .. وحين عثر رجال الشرطة على الآثار أمر الضابط بالقبض عليهم، ووضعت القيود في أيديهم واقتيدوا صاغرين إلى السيارة التي ستقلهم إلى الحجز .. كل ذلك ومعتز لا يبدو عليه أي أثر لخوف أو اهتزاز ..

دقائق معدودة بعد القبض عليهم .. رن هاتف هشام، وسمع يقول :

- ألو : أهلا يا وائل بك .. ماذا ؟ ...حقا ؟ ...نشكرك يا وائل بك .. نحن في غاية الامتنان .

والتفت إلى مؤنس يعلن الخبر السعيد .. هلل مؤنس وطار فرحا بتحقيق خطته التي رسمها وجعل يحمد الله ويفكر في طريقة مناسبة للاحتفال بذلك النصر .

وفجأة توقفت كل الأفراح حين رن هاتف هشام ثانية ..سمعه مؤنس يقول : أهلا وائل بك .. ماذا تقول ؟ يا للأسف ..أرجو أن تعرف الآن لماذا يسخط عليكم الناس في الشوارع، الآن تفهم جيدا ما جدوى الثورة التي تعارضها .. ولعلك الآن تعرف جيدا أي جانب ينبغي لك أن تتبعه الثورة هي الحق .. الثورة هي الملاذ وهي الأمل .. مع السلامة .

كان مؤنس يسمع في قلق ينتظر من هشام انتهاء المكالمة ليخبره الخبر وإن كان ما سمعه ليوضح له ما انتهت إليه الأمور .

بعد أن أغلق هشام الخط، التفت إلى مؤنس وقال له في أسى : فشلت خطتك .. تم إطلاق سراح معتز مرعي بعد أن قبضوا عليه .. هذه بلادنا للأسف .

حين سمع مؤنس ذلك هاج كالمجنون .. صرخ وركل أرض السيارة برجليه كالأطفال .. كانت مسألة الانتقام رغم أهميتها لا تمثل شيئا بجانب إحساسه الآن بالمسئولية وعذاب الضمير، لقد مكن المهريين من انتهاب كنوز لا تقدر بثمن مقابل بعض المال، لقد بات الآن مهربا للآثار بشكل رسمي ..

كيف سيتعايش مع تلك الفكرة المزعجة ؟ .. إن حسن نيته ليست كافية لتبرير ذلك الفشل الذريع .. كما أن إفلات معتز مرعي من تلك المكيدة سيكون خطرا عليه؛ إنه لن يسكت على ما فعله مؤنس دون انتقام ما .. إن فشل مخططاته تعني حزنا أبديا وخوفا أبديا وعذاب ضمير أبديا .

توقف جابر على جانب من الطريق .. حين وجد مؤنسا لا يستطيع التنفس .. إنها أزمة الصدر التي فارقت منذ سنوات تعاوده الآن .. دقائق مرت على هشام وجابر كالدهر وهما يحاولان إسعاف مؤنس بأي طريقة يعرفانها .. يكاد الرجل يضيع منهم على الطريق ولا حيلة لهما في إسعافه إلا بما يعرفون من طرق بدائية ودعوات صادقة .. وبعد يأس جاء الفرج من الله عاد مؤنس إلى التنفس الطبيعي واستعاد بعض هدوئه .. لكنه انخرط في البكاء، نزلت الدمع من مآقيه وهو صامت مستكين .

قال هشام: لم يعد لدينا أمل في شيء إن لم تنجح الثورة .. إن فشلنا فسنظل في هذا المستنقع إلى الأبد، ستنهار أحلامنا ونعيش منسيين تحت حذاء الدولة العميقة ..

لم ينبس مؤنس ببنت شفة .. زاد تتقاطر الدموع من عينيه وهو صامت لا يحدث أحدا .. جلس ساهما يتجرع غصص القهر ومرارة الهزيمة .. في حين استأنف جابر التحرك بهما إلى الإسكندرية، وبعد أن تجاوزوا كفر الدوار بنحو خمسة كيلومترات جاءه اتصال من عبد الله .

- ماذا حدث يا مؤنس ؟ .. إنهم أمامي يدخلون الفيلا .

- انتهى كل شيء يا عبد الله .

- ماذا حدث ؟

- قبض عليهم النقيب وائل ثم أطلقهم بعد تدخل رؤسائه الفاسدين

- لعنة الله على تلك الدولة الخربة ..

- حتى معرفتنا بمكان الآثار لن يفيد الآن في شيء ما دامت الشرطة

تساندهم .. إنهم مافيا حقيقية ليس لدينا قدرة على إسقاطهم .

- فما العمل الآن ؟

- قابلنا الآن في ميدان القائد إبراهيم أنت وعلي .. عهد علي ألا أعود إلى

بيتي حتى تنجح ثورتنا أو أموت دونها .

- ولكن عليا في ميدان سيدي جابر في مظاهرة كبيرة .

- إذن انضم إلينا .. سنوافيكم إلى هناك ..

وكاد أن يغلق الخط .. لكنه انتبه فجأة وتغيرت لهجته وقال في جد :

- قلت أين علي ؟

- في ميدان سيدي جابر .

ما إن نطق عبد الله بتلك العبارة حتى خطرت لمؤنس خطة شيطانية .. شرد

قليلا ليفكر فيها ويحسب حساباتها .. لمعت عيناه واتسعت ابتسامته .. ترك

الهاتف من يده وعبد الله ما زال يخاطبه .. ألو .. ألو ... وإذا بالابتسامة تتحول

إلى ضحكة هيسيرية جعلت هشاما يحسبه قد أصابه الخبل .. فقال له .. هون

عليك يا رجل لا تفعل في نفسك هكذا ...

هتف مؤنس بفرح : لا تخش علي يا هشام فقد أرسل الله لنا الحل .

- وما ذلك الحل ؟

- الحل هو الثورة .

- ما الحديد ؟ .. لقد قلت ذلك للتو .

قال مؤنس في حماسة : سنصنع ثورتنا يا هشام

أعاد وضع التليفون على أذنه واستأنف محادثة عبد الله قائلا :

- ابق في مكانك .. واخف جيدا وكن على حذر .

- لماذا ؟

- لا وقت الآن للشرح .. التزم بما قلته لك فقط .

ثم أجرى مهاتفة أخرى بعلي، وأطلعه فيها على ما يريده منه هو وأصحابه

عندما وصل مؤنس وهشام وجابر إلى الإسكندرية كان أذان المغرب قد بقيت عليه نحو ساعة ...

توجه مؤنس فورا إلى ميدان سيدي جابر الذي غص بالثوار حيث كان في انتظاره علي وجمع كبير من أصدقائه الثوار .

وقبل دخول الميدان جاءه نبأ آخر من عبد الله .. سيارة سوداء دخلت المنزل .. رجح مؤنس أنهم الشراة، ولكن ظنه كان خاطئا لأن السيارة التي ذكرها عبد الله تكانت تقل عمر معتز مرعي الذي عاد من القاهرة بعد إنهائه إجراءات إخلاء سبيله ..

حين دخل الميدان لمحبه علي، فصاح هو وأصحابه صيحات متتابعة :إنه الدكتور مؤنس .. إنه الدكتور مؤنس .. فلما سمع الثوار منهم ذلك رجحوا أنه شخص ذو أهمية؛ فتوجهت أعين الحاضرين إليه .. وعلى الفور اعتلى مؤنس على الفور مكانا وقام في الناس خطيبا ليبارس لعبته المفضلة في تحريك الوجدان وإلهاب الحماسة :

هتف : عيش حرية .. الشعب يريد .. والناس يرددون، ولما علم أن الأبصار إليه شاخصة قال بحماس: اسمعوا مني يا ثوار قصيدة كتبها عني وعنكم، وعندها ناوله أحد الثوار من أصحاب علي مكبرا للصوت وأخذ مؤنس في إنشاد قطعة من الأدب التحريضي من نظمه :

هل تعلمون من البلادِ عَداها	بلدًا تسيّرُ على دروبِ عِداها ؟!
ولم السفينةُ عاندت رُبّانها	ولم الفتاةُ تُهينُ مَنْ رِباها ؟!
ولم الحبيبةُ أخلفت بوعودها	فتسيرُ صاغرةً لمن أبكاها ؟!
أشكو إليك قصائدًا رصَّعْتُها	بالزهرِ والأشواقِ، ما جَدّواها ؟!
فلم وأدتِ الحلَمَ في أرواحنا؟	ولم قهرتِ النفسَ في مَسعَاها ؟!

صاح علي طربا : الله الله، ومثله فعل أصحابه حيث تصايحوا وصفقوا مبددين إعجابا بإنشاده .. فزاد الناس التفافا وأسلموا لمؤنس آذانهم بعد أن انتقلت إليهم عدوى الإعجاب والتطرب، كما أنهم وجدوا في ذلك فرصة لسماع شيء جديد مختلف عن الهتافات التي تعبوا في ترديدها .. فاستأنف يقول برنة التوجع :

فجورُها يطغى على تقوَّاهَا	فيك العدالةُ قد هوى بُنيانُها
وفقرها يُرمى بنارٍ لظَّاهَا	وثرِيها "يطأ الثرى مترفقا"
وشقيَّها خَصَمٌ ينالُ رضاها	وتقيُّها ابنٌ يواجهُ سُخطَها
وسرورَها ونسيَمَها وشذاها	سَرَقَ اللصوصُ ثُرايَها وُثرائَها
وشرورَها وحيمَها وأذاها	ترك اللصوصُ خرابَها وبُعائَها
وتصد بالنكران من يهاها	كم تسخر السمرء من عشاقها

كان مكبر الصوت قد حمل صوته إلى كل الآذان، وكان الجمع قد أخذته روعة إلقاء مؤنس وصدق نبرته، فأثر في الناس بتلك الكلمات التي وصفت مصر وما فيها من ظلم أصاب كل الواقفين بنفحة من لظاه فلمست شغاف قلوبهم ومست ما كانوا يخفون من وجع الجور وآلام الشعور بالدونية .. علا التصفيق بعد أن أتم ذلك البيت .. وانتظروا منه المزيد ؛ فاستأنف بعدها قائلاً في صوت جهوري ومحركا بصره في الناس كأنه يخاطب كل واحد منهم على حدة : ما لنا يا مصر نموت فيك، ونموت بك، ونموت عنك؟ ويعربد اللصوص فيك ويتلاعبون بك ويتغافلون عنك .. فلهم إغداق وجود ولنا إنكار وجحود .. ولهم نهب المتاع وعلينا تبعة الدفاع ...

إخواني الثوار إننا في سعي حثيث نريد لها التحرر واللصوص حتى تلك اللحظة يستغلون ذلك وينشطون في تهريب آثارها وكنوزها .. علموا أنهم سيغادرونها لتعود إليكم فعز عليهم أن يتركوا لكم فيها شيئاً .. حتى ميراث

أجدادكم ينهب بشكل منظم .. بالأمس حمل الذهب من منجم السكري إلى
استراليا .. وقبلها حولوا أموالا نهبوا منكم إلى بنوك سويسرا .

والآن ينهبون الآثار والذهب ليتم تهريبها إلى فرنسا .. على بعد خطوات من
هنا تختبئ الكنوز المصرية من موميאות وذهب في انتظار أن يتم تهريبها ..
بفعل رجال أعمال قذرين عاشوا زمانا يمصون دم الشعب ويتلهون بأوجاعه .
وعندها صاح علي كما اتفق مع مؤنس : أين ذلك ؟

فقال مؤنس : في فيلا قريبة من هنا، في كفر عبده تم تكديس الذهب والآثار .
وصاح آخر من أصحاب علي : لن نسكت على ذلك، إننا سنحمي تراثنا
بدمائنا .

وصاح آخر من أصحاب علي : الآن وجب أن نوقفهم عند حدهم ..
فصاح مؤنس بدوره : هيا بنا، ثم قفز بخطوات واثقة ليسير في الاتجاه المنشود
فتحرك خلفه أصحاب علي وهم يهتفون .. فسار الناس خلفهم وهم يرددون
التهنئات .

لقد نجحت الخطة في تحريك الناس، يا الله، كم هو سهل التأثير في أولئك
الطيبين ..

كان بعضهم قد خلصت نيته وصحت عزيمته على إنقاذ ثروات البلاد
وتراثها، وبعضهم يريد أن يشفي غيظ نفسه من الأغنياء الذين يتمتعون
بالنعيم دونه، وبعضهم يمني النفس بأن يفوز بقطعة من الذهب تكون عنده

خيرا من الثورة وقيمتها ومن مصر وتراثها .. وبعضهم وجد الجمع يتحرك فلم يجد حيلة إلا التحرك معهم .

المهم أنه بين حماسة الشباب وحقد الحاقدين وطمع الطامعين تحركت الحشود خلف مؤنس إلى فيلا معتز مرعي بمنطقة كفر عبده القريبة من ميدان سيدي جابر، في تلك المنطقة الراقية الهادئة التي يسكنها عليّة القوم وأصحاب الجاه .

وبعد أقل من ربع ساعة فوجئ عبد الله وهو جالس في سيارته بجموع من الثوار يسرون خلف مؤنس والهتاف مستمر .

وعندما اقتربوا من الفيلا نزل من سيارته التي راقب منها الأحداث وأشار إلى مؤنس ليعلمه بباب الفيلا من طرف خفي .. وعندها قال مؤنس : ها هو البيت .

فاندفع الثوار إلى داخله يتقافزون من فوق بوابة الفيلا إلى الداخل ، وعندما لمح بعض الجيران ما يحدث سارعوا بإبلاغ الشرطة التي تحركت بحماس هذه المرة، فليس بوسعهم أن يتصاموا عن نداءات فلان بك وفلان باشا وليس بوسعهم ألا يهرعوا لنجدة أهل الحي الراقي من هجمة الغوغاء وتطاول العامة .

كان من في البيت قد هالهم الضجيج خارج المنزل وأصوات الجموع تهز تلك المنطقة الهادئة التي لم يعتد سكانها أن يسمعو فيها صوتا، فوقفوا يترقبون

مرور تلك المظاهرة من أمامهم، ولم يدر بخلداهم أن المتظاهرين قد يقتحمون بيتهم .

استطاع الرجال الذين قفروا إلى داخل الفيلا أن يفتحوا البوابة بسرعة لمن في الخارج، وعندها بدأت الجموع بالتدفق إلى داخل البيت الفخم
كان المبحوم مفرعا ومفاجئا فبادر من بقي من الحرس بالخروج من الفيلا
مسرعين في فرق تاركين سيدهم يواجه تلك الحشود الغاضبة، وهكذا يكون الأمر حين تشتري الحماية بالمال لا بالحب والوفاء .

دخل مؤنس وعبد الله وهشام وعلي وأصحابه إلى المنزل .. ولما رأى عمر تلك الجموع يقودهم مؤنس اشتد حنقه وأصبح كالمجنون .. أقدم حينها على خطوة حمقاء حين رآه .. ظن أنه قد يخيف تلك الجموع بصوت الرصاص .. سحب مسدسه وأطلق رصاصتين في الهواء .. وعندها هجم عليه بعض الشوار وأسقطوه أرضا وأخذوا منه المسدس وظلوا ممسكين به وهو على الأرض فأمرهم مؤنس ألا يتركوه وأن يبقوه مكتوفا .. فظلوا كذلك بينما انطلق الناس يبحثون عن الكنوز .

وقف مؤنس في حالة من الترقب والذعر مخافة ألا يجدوا شيئا فتكون العاقبة سيئة من الشوار الذين جلبهم من ميدان سيدي جابر .. مرت عليه دقائق كأنها دهر ثم ساق له ربه الفرج حين سمع تصايح الشوار في حجرة أسفل السلم الداخلي، لقد بدءوا يتطاحنون على الذهب في الصندوق .. استطاع علي وأصحابه أن يقفوا دون المومياوات والبرديات بحزم وشدة فما مسها أحد

بسوء ... بينما نجح بعض المهاجرين في قنص بعض المشغولات الذهبية وطار بها مسرعا .. ولولا حزم الشباب الثائرين ويقتظتهم لفقدوا صندوق الذهب كاملا ..

كان معتز مرعي يرقب ما يحدث وقد جمد في مكانه كأنه تمثال من الصخر، يشاهد في حسرة الثوار وهم يتلفون محتويات المنزل وينهبون ما فيه وهو لا يستطيع لذلك دفعا، ومؤنس ينظر إلى أعمالهم الغوغائية في سعادة وتشف ولا ينهى أحدا من الناس عن أي فعل يؤلم ذلك الطاغية المتغطرس

بينما أقبلت زوجة معتز في ثيابها المنزلية الناعمة تصرخ وتبكي وتروح وتحجى بين زوجها الذي وقف كقطعة من الأثاث جامدا لا يستجيب لتأوهاتهما وصراخها وبين الثوار ترجوهم أن يتركوا ولدها، فلا يعبا أحد من الناس بنداءاتها وتوسلاتها .. بل إن بعضهم تفرغ لتوثيق تلك الأحداث بالصور والفيديوهات .

مرت ساعة أو أقل من الأعمال التخريبية والتصايع حول الكنوز حتى وصلت قوات الشرطة .. كان عددهم كبيرا ومعهم سياراتهم المصفحة وأدوات قمعهم .. جاءوا يريدون أن يفضوا التجمع ويفرقوا الناس .. لكن مؤنس تقدم من قائدهم وقال له : أريد أن أتقدم ببلاغ ضد المدعو معتز مرعي صاحب هذه الفيلا .. إنني أتهمه بتجارة الآثار ونهب كنوز مصر وتهريبها .. ولولا هؤلاء المواطنين الشرفاء لفقدت مصر جزءا مهما من تاريخها وتراثها .

تحرك قائد الشرطة ليرى الآثار برفقة مؤنس حتى تأكد له الأمر وبدأ بإبلاغ قاداته بما حدث واتخاذ الإجراءات اللازمة ..

لم يستطع مؤنس أن يمنع نفسه من الاقتراب من عمر الذي كان مكتوفا بسواعد قوية لرجال ثائرين وقال له في شماته : لن ينقذك الآن أي مسئول فاسد بعدما ينشر الخبر في كل القنوات والصحف، وأظنك لن تستطيع في حياتك أن تنسى كيف أوقع بك الفلاح الذي طردته وأهنته .. واعلم أيها الحقير أن هذا ما أوصلتك إليه كفاءتك .

ثم تحرك مؤنس إلى حيث يقف معتمز مرعي، ووقف أمامه ونظر إليه نظرة ظفر حملت كثيرا من التشفي .. فلوى الرجل بصره إلى ابنه فوجده مكتوفا فاقد الحول بيد شباب الثوار فأعاد النظر إلى مؤنس .. ثم خر على الأرض ميتا .

-ش-

بعد أن وئدت فتنة ابن المعتز وقتل معظم من سَعَرها .. اطمأنت
بغداد وقر قرارها .. واجتهد مؤنس في شكر الله على نعمه؛ فأخلص الله العبادة
وسار في الناس سيرة حسنة ينفذ فيهم شرع الله ما استطاع ويلقى منهم الشناء
والحب .

ولكن قلبه كان كسيراً لفقده ورد، ظل قلبه معلقاً بها ولا يخلو من التفكير
فيها ويمنى نفسه بأن يلقاها مرة واحدة .. ذهب مرات إلى بيتها وطرق الباب
ولكن لم يجبه من وراء ذلك الباب إلا الصمت .

وفي ليلة نام فيها مؤنس راضياً بعد صلوات خاشعة أداها في جوف الليل،
رأى في نومه طاهر ابن أبي زرعة يقبل عليه في أتم زينة، وهو يقول :

- يا خادم الله ..

- لبيك يا شيخى .

- كيف وجدت الأمن والخطر ؟

- والله، إني قد وجدت الحق ما قلت وما قالت ورد .

- فأين الأمن ؟

- في وعد الله .

- وأين الخطر ؟

- في وعيد الله .

- فاجعل لله قلبك ثم أتبع ذلك بجوارحك ففي ذلك النجاة .

- ومم تكون النجاة ؟
- من نفسك .
- ثم وجد الشيخ يسير مبتعدا وهو يلبي تلبية الحاج .. فناداه مؤنس : يا شيخى .. والباب المغلق ؟
- فنظر إليه الشيخ بابتسامة لم يعرف مؤنس شيئا أجمل منها ثم مضى ولم يقل شيئا .
- استيقظ مؤنس من نومه بُعيد الفجر ومازال صوت الشيخ في أذنه، فنهض وأنفض ابنه عمارا وسالما وتوضأ وصلى بها ثم انطلق معها إلى حيث بيت ورد العابدة .. مع تباشير الصباح طرق الباب جاء صوتها من خلفه .
- من بالباب ؟
- أنا مؤنس الخادم .
- فإذا بالباب يفتح وتطل ورد من ورائه كضوء الصبح فلما رآته افتر ثغرها عن ابتسامة تشبه شروق الشمس، وقالت :
- أزارك أبي ؟
- نعم .
- فإنه زارني أيضا وأمرني أن أطيعك وأن أقول لك شيئا .
- وما هو ؟
- يقول لك : اليوم هو الموعد ... ثم استأنفت في حياء : ولكن لم يقل أي موعد هو ..

فسجد مؤنس لله يحمدہ على المنۃ والعطاء وعیناه تزر فان الدموع، فقالت له

- فیم بكاؤك؟ وأی موعده هو؟

- موعده زواجی بك... فهل تقبلین؟

- قلت لك ردي .

- وما هو؟

- قلت : قد أمرني أبي أن أطيعك .

فتهلل وجهه ثم قال لها : انتظريني إذن حتى أعود .

ذهب إلى خائق الصوفية مسرعا ونادى في أهله :

يا أهل الحق أنا خادم الله مؤنس، وقد جئت أشهدكم أني سأتزوج من ورد

العابدة، فهل تشهدون؟

فقالوا جميعا : نشهد .

وقال أحدهم: هل ثم زواج بغير وليمة؟

فضحك الجميع وقال مؤنس : اشهدوا اليوم زواجنا وغدا أولم لكم أكبر

وليمة تشهدها بغداد .

ثم مضى بهم إلى بيتها وأرسل سالما ليجلب من يعقد لهما من قضاة بغداد ..

وتم الأمر وحمل زوجته إلى بيته، حيث بدأت حياة جديدة وبدأ هو قصة

أخرى من قصص الصعود والهبوط في الحياة .

كانت ليلة صاحبة امتلأت بالضحكات الطازجة ولم يشعروا فيها بوخزات
البرد؛ فقد استبدت بهم رغبة طاغية في الضحك على أي شيء والسرور لأي
مشهد، لقد تخففوا من حمول جسام في القصة الصغرى ويحدوهم اليوم أمل
كبير في القصة الكبرى ..

قال هشام لعبد الله متهمًا .. يا عبد الله أخبرنا لم أصبحت سلفيًا ؟
فقال عبد الله : سأخبرك إن قلت لي من ضربك بالمطواة على وجهك وسبب
لك هذا الجرح ههههههههههههه .

[illegible]

وأنا كان عندي جلاباب أحبه، لأنه هدية من أبي جلبها لي من العمرة وبعد سنوات وجدت الجلاباب قد قصر علي ..فقلت أطلق لحيتي وأتبع السلفيين ههههههههه ... واستمر الأصحاب في نشوة طاغية يشاركونهم مؤنس في تلك الضحكات السعيدة .

في تلك اللحظة رن هاتفه ... رقص قلبه عندما رأى الاسم .. إنها تلك
الأحرف السعيدة التي كان ينتظر رؤيتها .

- ألو .. وعد .. كيف أنت ؟ لقد ...

سمع صوت بكاء فقال .. ما بك ؟ فزاد البكاء .. فاستأنف قائلاً :

- لا تخشي شيئاً لقد علمت بما حدث لك ولن أتركك، أعلم أنك بريئة ..

لقد انتقم الله لك ولي، إنه ..

- أُمي ماتت يا مؤنس .. كانت عبارة صادمة .. حين سمعها ارتج عليه

القول وصمت لوهلة تتعثر فيها على شفثيه كلمات المواساة وعبارات التعزية

ثم تمالك نفسه وقال لها : لا حول ولا قوة إلا بالله .. وأين أنت الآن ؟

- في القاهرة .

- أنا قادم إليك .. انتظريني .

في اليوم التالي (الخميس ١٠ فبراير) كان مؤنس في القاهرة .. التقى وعد

وخاها ورجالا آخرين عرف أنهم أقارب المتوفاة .. بدت الراحة على وجه

الدكتور عصام حين قدم مؤنس وما كان يتوقع ذلك .. وبعد فترة من

الاندهاش والاستغراب فهم الباعث لمجيئه حين رأى كيف ينظر إلى وعد

وكيف تنظر إليه .

تحرك مؤنس معهم في إتمام مراسم الدفن، وكم كان الأمر صعباً بسبب

اضطراب أحوال البلاد في هذا اليوم العاصف من تاريخ مصر، ولصعوبة

الإجراءات وتعثر كل شيء قرر الدكتور عصام أن تدفن أخته في القاهرة في

مدافن أسرهما بدلا من نقلها للدفن في الإسكندرية .. انقضى النهار كله وطرفا من الليل في تدبر أمر الدفن .. وشارك مؤنس في حمل النعش مع قلة من المشيعين يكاد يعدهم على أصابع اليدين، وظل معهم طوال اليوم في كل الإجراءات .. وبين الحين والآخر يهاتف أسرته ليطمئن عليهم ويهاتف أصدقاءه لينقلوا له المشهد الثوري في الإسكندرية .. احتل الأسى والحزن والدموع واجترار الذكريات مع الراحلة كل أروقة الفندق الذي ينزلون فيه وكل موضع مشيت فيه الأقدام وقت الجنازة .. بصعوبة بالغة استطاع مؤنس والدكتور عصام أن يقنعا وعد بتناول بعض الطعام الخفيف حتى لا تسقط على الأرض من الضعف والشحوب .

وفي العاشرة من مساء تلك الليلة جلسوا في مدخل الفندق الذي نزلوا فيه صامتين ينظرون في الأرض في أسى، وساد سكوت مزعج قطعه مؤنس حين قال للدكتور عصام : أستاذنك أن أصحب وعد لمكان ما، فأشار له الدكتور عصام أن نعم، فقال لها:

- هيا معي

تعجبت وعد من هذا الطلب الغريب وفي هذا الوقت الصعب، وتساءلت :

- إلى أين ؟

فقال :

- إلى ميدان التحرير .

لم تعترض وعد وقامت على الفور؛ كأنها وجدت في ذلك فرصة للخروج من كآبة الحزن وضيق الجلسة .

ذهب مؤنس ووعد إلى الميدان وكان قد امتلأ بحشود لم يشهدها تاريخ مصر من قبل .. حيناً وصلاً إلى ميدان الإسعاف وجدا الزحام قد اشتد بشكل مخيف .. سمعا في الطريق عما وقع من أحداث في ذلك اليوم وعرفا أن مباركا خرج على الناس بخطاب باهت يرفض فيه ترك مقعده كأبي ملك استغواه المنصب وملك عليه حياته فبات مقعد السلطة كجزء من بدنه ليس من السير بتره أو انتزاعه إلا بانتزاع الروح ..

كان يخوض في وسط الحشود وقد أمسك بيدها في سعادة كبيرة .. الهتاف يدوي ويرج البيوت رجا ... ارحل .. ارحل .. ارحل .. مشهد مهيب يشي بأن هناك ختاماً سعيداً لتلك الليلة .

ظل ممسكا بيدها ويتقدم شيئاً فشيئاً من ميدان التحرير .. ملحمة بشرية تعجز عن وصفها لغات الأرض .. مرا بأطفال يحملهم آباؤهم على الأعناق وقد فاضت عيونهم بالبراءة والدهشة وتهللت أساريرهم كأنهم يشهدون مهرجاناً سعيداً .. مرا بفتيان في عمر الزهور قد توهجت جذوة الثورة في صدورهم فهم يهتفون بحماس ويرددون الأهازيج في نشوة .. ورجال تكشف سواعدهم عن قوة وتنم نظراتهم عن تحد، ثم شيوخ قد تأرجحوا بين القلق والأمل فلا يمسك لسانهم عن التمتمة بالدعاء .

همس لنفسه يخبرها بأنه هنا في ميدان التحرير حقيقة مصر التي غابت كثيرا .. هنا الصفوة المجتابة .. هنا أنبل من أنجب هذا الوطن .. هنا والآن وربما ليس بعد الآن ترى الإنسان المصري والإنسانية المصرية .. كانت صورة بهية تكشف عن شعب مختلف عن ذلك الشعب الذي طالما سمعنا ببعجزه واستكانته .. صورة مفرحة تشعر فيها بأطياف الملائكة ورائحة النبوة تعبق في جنبات الميدان .

كان سعيدا أن القدر سمح له بأن يدرك جانبا من وثبة الشعب وأن يشارك الناس في هذه الأحداث المشهودة ... وبعد صبر وجهد وصلا إلى مشارف الميدان في لحظة لا تنسى .

في تلك اللحظة التي وصل فيها مؤنس وواعد إلى مشارف الميدان وصل معها الخبر الذي انتظره الملايين .. سمعا تكبيرا يهز الكون ويرج المباني .. الناس يتقافزون فرحا ويحتضنون بعضهم البعض والدموع تملأ مآقيهم .. وعندها سمعا مكبرا للصوت يعلنها ... لقد رحل .. لقد رحل .. مصر لنا .. مصر لنا .

ارتعد جسده لتلك العبارة وأخذ يبكي بشدة .. قفز مع القافزين وغنى معهم وردد هتاف الهاتفين وسار خلفهم وواعد معه في كل ذلك لا يتركها من يده تفعل ما يفعل في مرح طفولي وفرحة غامرة ..

تحركا في المكان ليسجلا تلك اللحظات الغالية .. ينظران في الوجوه التي يكسوها جمال وروعة لم يشهدا مثله في بني البشر، كأن الفرحة قد أصدرت

قرارا بأن يتحول أولئك البسطاء إلى أسعد شعوب العالم في تلك اللحظة الأسطورية .

الحشود تتلاطم في موج سعيد والأصوات تتداخل لتصنع سيمفونية فريدة .. هتافات وهتافات .. مجموعات تتحرك معا، وفرادي مثل مؤنس ووعد ينخرطون بينهم ليرددوا ما يهتفون به ثم ينفلتون لينضموا إلى جماعات أخرى ويرددوا أهازيج أخرى ..

وفي لحظة لن ينساها ولن تنساها .. هداً ... نظر إلى السماء فخالها تبتسم وإلى واجهات المباني فخالها تبتسم .. سكنت كل جوارحه .. خيل إليه أن الميدان على اتساعه وكثرة الحشود فيه ليس به أحد إلا هو ووعد .. صمت أذنه عن سماع الهتافات وعميت عيناه عن رؤية أي شيء سواها .. لم يكن مشهد الميدان والحشود في نظره إلا كخلفية بصرية بالبعد الثالث، ولم تكن الهتافات في تلك اللحظة إلا خلفية موسيقية وضعها القدر عن عمد ليعينه على قول ما كتبه .. أمسك زراعيها .. نظر في عينيها .. وقال : أحبك .

من شدة الضجيج حولها لم تسمع صوته ولكنها قرأت حركة شفثيه بتلك الكلمة المحببة .. فنظرت إليه وقالت :. وأنا أيضا .. لم يسمع هو الآخر كلمتها لكنه فسر حركة شفثيتها ..

وعندها أطلق ذراعيه دون وعي ليحتضنها في فرحة طاغية وهو لا يصدق نفسه .. بثها في تلك اللحظة كل ما كتبه من شوق ومحبة

سهرًا حتى الصباح مع الحشود وفي الصباح شاركوا الناس في تنظيف الميدان في
سعادة لا تدانيها سعادة .

بعد ذلك بشهرين سيكون الزفاف أسطوريا لم يشهد كفر الأكناز مثله من
قبل .. سيذبح سبعة عشر عجلاً أو يزيد، ويطعم البلدة كلها أو يزيد ويوزع
على الفقراء لحوما ويفرق فيهم أموالا كثيرة .. سيفني بوعده لأبناء عائلته
ويعطيهم من الأموال ما يرضيهم فيمتثلون غبطة ورضا .

سوف يعيد مؤنس في ذلك الزفاف ما كانت القرية قد نسيت من رقص
الخيول والمزمار البلدي وسيكون لذلك صدى عظيم عند الناس، سوف
يحتشد الناس من كل حذب وصوب يشاهدون ذلك المهرجان الكبير وذلك
القصر الفخم الذي سينفق عليه مؤنس أموالا عظيمة ويجلب لتنفيذه أشهر
شركات البناء والتشييد ويجتهد في الانتهاء منه في أسرع وقت .

سيصل موكبه المهيب وهو يركب في تلك السيارة التي ما شهدت القرية
مثلاً .. السيارة تسير ببطء شديد بسبب الحشود من حولها .. وجوه تحاول
أن تدس أعينها في السيارة لترى وجه العروس، ومن ينجح منهم في ذلك
سيستسابقون في ذكر آيات جمالها ومظاهر فتنتها .

وحين يصلون إلى البيت يميل على جدته التي تجلس بجانبه ويقول لها
انظري الآن يا أمي إلى ذلك القصر .. ألم أعدك بأن تدخلني إليه كالعروس ...
ستقول الجدة .. هناك الله يا حبيبي ورزقك الذرية الصالحة .. ثم ستدمع
عينها وتضيف : الله يرحمك يا وفقي، الله يرحمك يا همام .

سيكون مؤنس محوطا في تلك الليلة بأبناء عائلته .. سينزل من السيارة ويساعد عروسه على النزول، ثم يُصعدها إلى جناحها السعيد حيث تقف بجوار أختيه وأمه وجدته لتنظر إلى الحشود في انبهار شديد من شرفة غرفتها .. في حين ينزل مؤنس إلى الساحة الواسعة أمام القصر حيث سيُركبونه على الخيل ويرقص بذلك الجواد المدرب على أنغام المزمار .. وحين يترجل سيلقي إليه بنبت من الشوم ويبدأ في التحطيب مع أبناء عائلته .

وبعدها سيجلس ليتلقى التبريكات والتهاني .. ويطاف على الناس بأشربة ملونة .. سيكون بجانبه أخوه وأصحابه والدكتور عصام .. وفي تلك الأثناء حين يأتي الدكتور هادي مهنتا سيقول لمؤنس : أين الصفقة الأخرى التي وعدتني بها ؟ .. سيصطحبه من يده ويسير به إلى جانب ليس فيه أحد يسمعه، ثم يقول له : سأدلك على رجال يملكون ذهابا كثيرا من المقبرة الفرعونية ويريدون منك تصرفه ...

يرد : ومن هم ... فينادى على هشام وعبد الله وعلي ... ويقول لهم الدكتور هادي البربري يريد أن يعقد معكم صفقة .

يقول عبد الله : أي صفقة ؟

فيقول مؤنس : يريد أن يشتري منكم الذهب .

فيقول عبد الله : ولكن الذهب ليس لنا .

فيقول مؤنس : إنني أعطيه لكم، أنا فقط شريك رابع، .. ثم يكمل مداعبا : فهيا دبر أمرك وتفاوض مع هذا الرجل واحذر منه فإنه ماهر .

يبش عبد الله وهشام وتتهلل أساريهما بينما يدير علي ظهره لهم ويمضي
مبتعدا عنهم .

ومنذ تلك الليلة ستبدأ حياة جديدة ويبدأ هو قصة أخرى من قصص الصعود
والهبوط في الحياة .

من حديث المقهى ٤

قال التاريخ في ثقة :

- أترون التشابه ؟ إنه الصراع نفسه بين أهل السلطة وأهل الطموح

أجابه الغد :

- في القصتين ينتصر مؤنس، وهو ما يثبت خطأ قولك بأنه لا جديد .

- وكيف ذلك ؟

- كم مرة مربك انتصار ضعيف على قوي ؟ كم مرة سجلت هزيمة أولي

النفوذ ؟ ما تعرفه الأمم أن البقاء للأقوى وقد خسر الأقوى في القصتين، وإن

كنت ستهلل لتشابه أحداث القصتين وتطابق النهايتين فليس ذلك بشيء .

- التطابق أمر شكلي ولا يثبت وجهة نظري .

- فما الذي يثبتها إذن ؟

- ألا ترون أن ذلك الطامح المنتصر هو في الأصل ساع إلى امتلاك النفوذ

والسلطة ؟

- بلى ؟ ولكن ماذا يعني ذلك ؟

- يعني أنه عما قليل سيصبح هو صاحب الجاه والنفوذ الذي يحارب أي

طامح آخر من طبقات الشعب، وتستمر الحلقة المفرغة .

- فإن كنت مصيبا في ذلك فقد أخفقت في توقع مصير الثورة .

- كلا، ما أخفقت .

- انتصر الثوار على النظام البائد
- نصر زائف
- قد أطاحوا بالرئيس .
- الغباء أن تفرح لهدف سيلغيه الحكم بداعي التسلل في حين سيستقبل مرمك أهدافا ..
- لن يعنى الشعب بقول حكم فقد صار هو الحكم، يكفي أن الغاية تحققت ولن تعود الوجوه البغيضة التي جثمت طويلا على صدور البسطاء الكادحين.
- هيهات يا صديقي فالأعداء كثر والثورة تحمل في طياتها فيروسات موتها .. إنها حملة بأدران الانتهازية والجهل وكفى بهما قاتلين .
- ولكنها في ذاتها تحمل الرجاء والإيمان ولا أحسب أن في تاريخ الإنسانية حدثا يماثل ثورتنا نقاء ونبلا .. اللهم إلا معركة بدر
- انتظر فقط حتى تلوح الغنائم .
- ها قد عدنا إلى السفسطة .
- كلا، إنني حقا ساع مثلكم إلى تبين الحقائق، ولا يهمني إن كنت مخطئا أم كنت مصيبا .
- فاشرح لنا كيف يكون وضوح الشمس محل جدل، لقد أعلن الرئيس اليوم عزل نفسه، فماذا يمكنك بعد هذا أن تقول ؟

- إنك تمر بعشرات الانتصارات والانكسارات بشكل يومي، فيوم كل إنسان حافل بالأفراح والمواجه معا، تشعر بالنصر حين ينصاع لك الولد وبالهزيمة حين تفشل في استرضاء الزوجة، وبالسعادة حين تنجح في خداع رب عملك وبالألم حين تقف مفلساً أمام بائع اللحم، هكذا هو يومك بطيخة كبيرة تفرح عند شرائها وتحزن عندما تشقها، وبالتالي فهكذا هو عمرك وبالتالي هكذا هي أقدار الشعوب .

- ما لنا وللبطيوخ يا رجل لا بعدت في الحديث .

- الحديث هو هو، فما ترونه انتصاراً للشعب هو بداية الهزيمة .

- ولو دقت جيداً في نهايتي الثورتين وأعني بالأولى ثورة مؤنس على ابن المعتز لوجدت فرقاً دقيقاً يثبت أن ثورة اليوم ستؤول إلى فشل .

- وما هو ؟

- أرايت كيف كان مصير ابن المعتز ورفاقه .. إنه القتل، وبه فقط تحقق للمقتدر نفاذ أمره واستطالة دولته .

- لسا في ذلك العصر الممجي حتى يقتل الناس دون محاكمة ..

- لا يقتل الثعبان إلا من رأسه، ومن قبل ما قالت العرب :

- لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ...

- إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

- وربما كانت روايتك للأحداث قد غمطت ابن المعتز حقه .. وكما يعرف بين الجميع أن التاريخ يعيد نفسه .. يعرفون أيضا أنه ليس ناصع الوجه صادق الحديث فكم طالته يد التزوير وشوخته الافتراءات .

- إن ذلك لا يغير من الأمر شيئا، فالفرق واضح بين تعامل الأمم وتعامل اليوم مع حالتين متشابهتين ..

- ولكن، أليست استفاقة الشعوب أمرا جديدا لم يعتد التاريخ على كتابته ؟

- ما الشعوب إلا أدوات يحررها النافذ أو الطامح ليحقق أربه .

- ولكنهم عامل مرجح في كل معادلة .

- هم كذلك، لكن للأسف لا يرجحون إلا ما يخدم مصالح غيرهم أو ما

يضر بمصالحهم ..

- وما مفهومك لنجاح الثورات إذن يا عبقرى ؟

- إن كل ثورة ناجحة ليست أكثر من استبدال للطغاة بالطغاة

القدامى، والشعب الفرح بنجاحه لا أراه إلا كساقطة نجحت في تغيير القواد،

والمؤلم حقا أن يموت الآلاف في رحلة الشعب للبحث عن مستغل جديد .

- كيف نقول إذن إن النهاية كانت سعيدة أو حزينة .

- لا نهايات بهذا الشكل إلا في الروايات والأفلام ..

- حيرتنا، فمن الراجح منا إذن ؟

- في الحقيقة أنا أجهل ذلك تماما ... فأمامنا أسئلة كونية تحتاج إلى إجابة وتفتقر إلى الحسم .. ولكي أكون منصفاً فإنني أعترف بأن التاريخ ليس دائماً أفضل من يقدم الإجابات .. بل إنه أحياناً قد يقدم إجابات خاطئة .

- وكي أشاركك الإنصاف فإنني أعترف بأنه مؤسسا الخادم قد يكون دليلاً على أن العصور تتغير برجل والدول تبنى برجل وتنهار برجل .. وأخشى أن تكون الثورة دليلاً على أن شعباً كاملاً لا يكفي لأداء دور يقوم به رجل ... وربما علينا أن ننتظر غودو ..

- يبدو أنه ليس أمامنا إلا ذلك .

هنا تدخل الآن قائلاً :

- ما دمنا لم نحدد من الراجح في هذا الرهان فاسمعوا لحكمي .. قال التاريخ والغد في صوت واحد :

- وما حكمك ؟

من حديث البحر ٢

لما وصل حودة وصباح إلى موضع تجمعهم الناس شهدا ثلاثة رجال يلبسون ملابس عجيبة مضحكة تحت تمثال سعد زغلول، والناس قد أحاطوا بهم وجعلوا يصفقون لهم في سعادة، وقد توقفت السيارات وأطلقت أبواقها في مشهد عجيب ..

وليس كالمصريين أحد في حب الغناء والرقص واغتنام لحظات الطرب والاستمتاع بها .

سارع حودة وصباح بالاقتراب، وبعد قليل وجدا أنفسهما دون وعي ينزلان في حلقة الرقص .. وبسرعة غريبة ازدحم المكان بفتيان في عمر حودة، كانوا يقودون دراجات بخارية صينية أسهموا بدورهم في توفير الموسيقى الشعبية الرنانة عبر السماعات التي ركبوها في درجاتهم البخارية الصغيرة ..

حين توفرت الموسيقى أبدت صباح موهبة فريدة في الرقص .. ومع الوقت انسحب التاريخ والآن والغد من الحلقة، وبقيت صباح ترقص وحدها والناس يصفقون .

كانت قد أعطت حقبة يدها إلى حودة بعد أن رأت إعجاب الناس يزيد والحلقة تزداد ازدحاما .

في غفلة من صباح المشغولة بالرقص فتح حودة حقيبتها فوجد عشرين
جنيها دسها في جيبه وبعد أن سكت الغناء وانفض الجمع قال لها بكل ثقة :
(يللا بينا أنا عازمك على ساندويتشين كبدة).

الفهرس

٥	الوجه اللطيف للبحر.....
٦	من حديث البحر ١.....
٩	حبيبتي.....
١٠	من حديث المقهى ١.....
٢٤	الثلاثاء ٢٥يناير ٢٠١١.....
٥١	من حديث المقهى ٢.....
٢٤٢	من حديث المقهى ٣.....
٤٤٨	من حديث المقهى ٤.....
٤٥٣	من حديث البحر ٢.....